الصخرة الدامية

أو

إرادة الرجل

تأليف

الروائي الفرنسي الذائع الصيت

شارل ميروفيل

تعريب

نجيب زيدان

مطبعة الهلال بشارع نوبار نمرة ٤ بمصر

سنة ١٩٢٢

اهداء الرواية

الى كل شابة دعيت للزواج . فعليها أن تتمعن قليلاً قبل ان تحكم بالقبول ..

الى كل شاب طالب زواج . فعليه ان يحسن الاختيار ..

الى كل متزوجة . فعليها أن تكون عفيفة النفس فلا تنقاد الى تيار أهوائها مهما كان شديداً ..

... لان أولئك الفاسدات لسن الا كنقط سوداء تتخلل صفحات الهيئة الاجتماعية . فتورطهنّ في الفساد يسبب شقاءً للرجل في أهم ادوار حياته ويلحق به عاراً لا يمحى مدى الايام

المعرب

كلمة

أطلق المؤلف على روايته اسم (الصخرة الدامية) نسبة الى بقعة من الارض في فرنسا وقعت فيها أهم حوادث هذه الرواية. وكأن تسميته اياها بهذا الاسم يدلنا على انه كان في العصور السالفة طائفة من الدرويد وهم الكهنة يقدمون الضحايا البشرية على تلك الصخرة تقرباً من آلهتهم ويهدرون تلك الدماء البريئة في منبع من الماء حتى ان من زار تلك البقعة رأى آثاراً حمراء على جدران ذلك المنبع مما يؤكد لنا صحة هذه الرواية

وفريق آخر ينسبون لها خلاف ذلك من الاقاويل مما لا يخرج عن حد الخرافات ولا محل لذكرها هنا

المعرب

الجزء الاول

زلة والدة

الفصل الاول

الموعد

تجري حوادث روايتنا هذه في شارع جرنيل في ضاحية سان جرمان وفي بناية وزارة التجارة . وتبدأ في منتصف شهر يونيو سنة ١٨٧٦ وقد ساد السكون في قاعة الجلسات المكسوة جدرانها بالورق الأخضر . وفي داخلها ستة من الموظفين تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعشرين والخامسة والأربعين

كان الحر في ذلك اليوم شديداً فبلغت درجة الحرارة خمسة وعشرين في مقياس سنتغراد وكنت ترى من في القاعة يشغلون الوقت بالمطالعة طلباً للراحة

ففتح الباب وأطل منه رجل تدل هيئته على الاستقامة وصدق الطوية . ونادى : روبينيه ؟

فقام رجل من مقعده هو أصغرهم سناً نحيف البنية أعرج . وأجاب : ها أنا يا مسيو ردون

فأجابه : تقدم فاني في حاجة الى محادثتك

فذهبا وانقفل الباب وراءهما عندئذ انتصب أحد الموظفين وهو في الثلاثين من العمر غليظ الجسم مورد الوجنتين وقال : ان هذا الحيوان يزعجنا دائماً

ثم خاطب رفيقه الذي كان متشاغلا في تقليم أظافره : كم بلغت الساعة الآن . يا لوريو ؟

— وأين هي ساعتك ؟

— ليست في جيبي

— يلوح لي أنك تزوجت حديثاً ؟

— ولم أندم على ذلك

— هل أقمت مؤخراً في بوليه ؟

— نعم

— هل كانت مزدحمة بالناس ؟

— نعم كان الازدحام عظيما . وانه ليصعب على الانسان أن يتنزه في تلك الغابات الجميلة والقيام بنفقات الطعام على نفسه وأصحابه اذا كان جيبه فارغاً

تثاءب أحدهم ميشيل وكانت ملامحه تدل على البساطة ولونه ضارب إلى السمرة وهو من سلالة نورماندية عريقة فقال : متى ينتهي أمرنا وننجو من هذه الوحدة العميقة . ألا تعلم يا لوربو بأن لي رغبة في الزواج ؟

— دع المزاح يا صاح

— أنا لا أمزح بل أريد امرأة مثل . . .

— امرأة جون ردون ؟

— بعينها . فعند ما أقابلها في الشارع وهي تتيه بثوبها الجميل ورائحة العطور تفوح منها تتحرك عواطفي ويرقص فؤادي لها طرباً

يبلغ لوربو الأربعين من العمر وهو صفراوي اللون مجعد الوجه . فقال بغيرة : أن ردون هذا يخدمه التوفيق . فبعد ان كان أحقرنا جميعاً أصبح نائب الرئيس . .

فأجابه النورماندي : وهو لا يزال يسعى ليحوز منصب الرئاسة

كان ميشيل لا يهتم لردون ومنصبه انما همه الوحيد أن يوقع في قلب رفيقه الغيرة . فأخذ ينظر اليه خلسة ثم قال : سأعلمك شيئاً جديداً اذا شئت . . .

— بأي شأن ؟

— بشأن مدام ردون الجميلة ولكنك لا تكتم سراً

— قل ولا تخف

— أتعدني بعدم افشائه ؟

— اذا صرحت لي بكل شيء أعدك

— لم أتعود الرياء وشأني الصراحة

— وهل تعدني بألا تكون سبباً في الحط من شأن النساء

— ربما . . . .

— قص عليّ واقعتك يا ميشيل وإحل نفسي في شك من صحتها

كانت مدام ردون الجميلة تفضل تمزيق عهد الزواج . . . .

بل أن تحرقه على ما أظن

كان لوريو متزوجا وأباً لولدين قد ترعرعا . وهو لا يزال ينظر الى ردون السعيد بعين ملؤها الحسد والكراهية لارتفاع شأنه

قال ميشيل : لم أر ما حدثتني

— من رآه إذاً ؟

— روبينيه

— ما معنى ذلك ؟

— معناه أن روبينيه يقطن غرفة صغيرة في شارع باك في الطبقة الرابعة . ونائب الرئيس يقطن في شارع سان سيمون

— أعلم ذلك

— في ساحة بقرب منزل روبينيه بناء منفرد (فيلا) يشتمل على حديقة غناء . فبينما كان روبينيه جالساً بقرب نافذته يستنشق الهواء العليل وذلك حوالي الثالثة بعد الظهر إذ رأى . . .

وتوقف ميشيل عن الكلام وأخذ يتعمد السعال ، ثم تابع حديثه فقال : رأى عربة دخلت إلى الساحة وانزوت تحت سقيفة عن عين المنزل ونزل منها شاب واختفى في الحديقة . وبعد بضع دقائق رآه روبينيه يفتح نوافذ الغرف لتجديد الهواء والشاب في الثلاثين من العمر بلحية شقراء وبعد برهة لم يعد يراه وترك النوافذ مفتوحة . ثم ظهرت امرأة من الرواق وسارت الى الحديقة ومنها الى الطبقة الأولى من المنزل وعلى ملامحها الخوف كأنها تخشى مفاجأة

وأحست المرأة حينئذ بخطأ الشاب وأقفلت النوافذ وقد تمكن روبينيه من أن يتبينها . أتعلم من هي ؟

— مدام جون ردون ؟

— هي بعينها . وأصبحت المواعيد بين الشاب والامرأة أمراً مشهوراً . .

— ألا يحتمل أن يكون ذلك مختلقاً ؟

— بل هو مؤكد

— ألم يخطيء روبينيه في حكمه ؟
— يقول إنه متأكد ذلك جيداً
— متى كان ذلك ؟
— السبت الأخير
— ومع ذلك فان روبينيه لم يحضر . فماذا تعتقد في الأمر يا ميشيل ؟
— اني أفضل أن أبذل حياتي حتى أكون بدل ذلك الشاب في ذلك الموعد
ثم وضع قبعته على رأسه وقال : إذا سئل عني لقضاء أمر فقل اني في ادارة الداخلية . . . الى الغد

ما كاد يخرج ميشيل حتى آب الأعرج الى مكانه . فاقترب لوريو منه وخاطبه همساً : أصحيح ما فاه به ميشيل ؟
— بأي شأن ؟
— بشأن السيدة . . . مدام . . . .
— وأي سيدة ؟
— لا تنكر عليّ الأمر . . . في شارع باك . . . الموعد . . . مع شاب جميل . . .
— وهل تعلم ذلك ؟
— نعم . فماذا يدعى ؟
— أجهل أمره البتة
— لا تنكر . . .
— أرجو منك ألا تخاطبني بهذا الشأن . . .
— أخاطب من إذاً ؟ وماذا يفيدك إذا كانت مدام ردون تعشق أو لا ؟
هل كان ذلك يوم السبت ؟
— دعنا من أمر لا يهمنا
— أكان اليوم بعينه ؟
— نعم . نعم . انما الصمت !
— ليكن

لم تمض برهة قصيرة حتى حذا الموظفون الخمس حذو النورماندي وذهب كل منهم الى منزله . أما نائب الرئيس فانه فتح باب غرفته فرأى المكان

خالياً فاغتنم تلك الفرصة ليعود الى منزله ويرتدي ملابس سوداء ويخرج بقدم سريعة الى حديقة التويلري

لم يكد يصل حتى وجد شابة في الثانية والعشرين من العمر هي قرينته جالسة على كرسي منفرد بجانب شجرة في الحديقة . وكانت ذات جمال باهر لاسيما بلباسها الرمادي الفاتح . أما عيناها الكبيرتان فسوداوان وشفتاها الحمراوان كالكرز الناضج

وإذ اقترب جون منها وضع يده على كاهلها فقالت بدون أن تدير اليه وجهها : ألاتعلم بأني لا أكترث بمن يعاملني هكذا ؟

فاقترب الرجل وبأسرع من لمح البصر ألقى على عنقها قبلة حارة وتمتم بهذه الكلمات : لم هذا الجفاء ياعزيزتي وأنا أحبك حباً جماً ؟

فأجابته بسخرية : لاتعتقد بأننا في أواسط غابات المورفان

ثم نهضت فبادرها جون بالسؤال : الى أين ؟

— اني ذاهبة لأبحث عن بنتاي

— أين هما ؟

وكانت الابنتان المنوه عنهما على مقربة منها فأسرعت اليهما . فالصغرى تبلغ من العمر سنة ونصف حنطية اللون . أما الثانية فأكبر منها بسنتين ذات وجه أسمر مثل والدتها

فسألت الشابة زوجها قائلة : أنعود الآن الى منزلنا ؟

— اذا أردت . انما لا بد من التنزه قليلا . . .

— أين ؟

— حيث تشائين

— أمشياً على الاقدام ومعنا الاطفال ؟

— بل في عربة

— والدراهم ؟

— فلنبق اذاً هنا . . . واستنشاق الهواء العليل أفضل من البقاء في الوزارة ...

— ألعلك تنهك قواك من كثرة الأعمال ؟

— كلا . بل أكاد أختنق من شدة الحر

— أشتر لنا منزلا منفرداً (فيلا) على شاطىء البحر

— أريد ذلك . انما لا بد من السعي وراء المستحيل

— يا للاسف !

— ماذا دهاك يا عزيزتي ؟

— لا تكترث لأمري . فالنساء قد تعتريهن نوبات عصبية . وقد حانت الساعة فمد جون يده لمصافحتها فامتنعت متلاهية في ملاعبة ابنتها بينما كانت ليوني الخادمة تمتني بريموند

ثم ساروا الى منزلهم في شارع سان سيمون حيث يقطنون ولم يكد جون يطأ عتبة الباب حتى أسرع الحاجب اليه وسلمه رسالة . فابتدره قائلا : من أتى بها ؟

— لا أعلم فقد وجدتها في غرفتي

ففض جون الرسالة وهو في أسفل السلم . بينما كانت قرينته تسترق ما يدور بين زوجها والحاجب وحدقت في زوجها فوجدت وجهه متغيراً . فسألته عن فحوى هــذه الرسالة . فوضع جون الرسالة في جيبه وقال متململا : لا شيء . . . خدمة يطلب مني اداؤها . . .

لـكن الحقيقة كانت خلاف ذلك . فقد عثر حانقاً : نميمة وبهتان . . . .

الفصل الثانى

زواج حب

اليك تاريخ جون ردون :

لم يكن منشأ جون في باريس بل في أواسط غابات المورفان . توفيت والدته شابة وكان والده مزارعاً ويمتلك قطعة كبــيرة من الأرض صالحة للزراعــة وبجانبها منزل قديم البناء . وتعرف تلك البقعة بحي سوفاجير من أعمال مقاطعــة سوفلي

أرسل جون في حداثة سنة الى الكلية ليتلقى العلوم آملاأن يكون في مستقبل الأيام قانعاً بمعيشة الفلاح في كوخه الوالدي متأهلا بامرأة جميلة حائزة على الصفات الزوجية. وقد تم له ذلك

وهذه الامرأة هي ابنة قبطان استقال من الجندية وأصبح يعيش من ايراده

وقطن في منزله الكائن بقرب سوفلي

وهـذا القبطان يدعى فرنسيس تونيليه قد ترمل في الخسين من عمره وكان إذ ذاك ضابطاً في اللجيون دونور وقام ببعض أعمـال باهرة جعلته في مركزه السامي

وتربت تريز ابنته الوحيدة تربية أضرت في مستقبلها لانها اعتادت على عيشة الرغد والتأنق في كل شيء

وكانت مطلقة الحرية قد اعتادت أن تأتنس بصديقة لها فتقضي لها ما ترغبه منها لما اعتادت عليه من العطف

وقد أحس الأب ردون بضرورة إيجاد عمل لولده جون فكلف أحد القضاة المشهورين أن يستعين بأحد أصدقائه ليجد له مركزاً حسـناً في وزارة الزراعة والتجارة

وكان جون يشعر بضرورة الاعتناء بمركزه. إلا أن أمراً آخر أعمى بصيرته وهو حبه لتريز

كانت تريز تشعر بضرورة السكنى في باريس مدينـة المدنيـة الترفة . وكان جون كلما عاد إلى المورفان يراها تزداد نمواً وجمالا وبهاء

وقد ازداد هيام جون بتريز إزدياداً عظيما . وكان حبه لها باخلاص . أما هي فـكانت تلقي الى المستقبل نظرة الطمع والشره معاً

وكانت خطبتها لجون كضمانة لمستقبل سعيد إذ كانت تفكر في ماعساها تفعل يوم تفقد به والدها . فالى أين تذهب ؟

كان جون لايحب السكنى في باريس . إنما رغبة بارضاء حبيبته تريز رحل إليها في شهر مايو من فصل الربيع الزاهر عقد زواجهما في كنيسة القرية وكانت نفس العروس سابحة في الفضاء الواسع

نعم كانت تحب زوجها وتنفر من الخيانة إنما ذكر مدينة باريس كان يسرها كثيراً . . .

في باريس قطن الزوجان في الطبقة الخامسة في منزل حقير في شارع مونبارناس

كانت تريز في غياب زوجها تأخـذ في التفكير . فتشغل الوقت في المتنزهات العديدة والاماكن البهيجة المختلفة . إنما كي تجاري رفيقاتها الباريزيات في الترف

تحتاج الى دراهم تذكر . فأول ما طرأ على بالها والدها القبطان ثم والد زوجها مات ردون الاكبر أبو جون ردون عندما وضعت تريز أول طفلة . فاستولى السكون على العائلة منذ ذلك الحين . فباع جون الأدوات الزراعية بمبلغ باهظ ثم أجر الأرض بايراد سنوي لايقل عن ثلاثة آلاف فرنك وهذه القيمة كانت تصرف على النفقات العادية

زد على ذلك أن ولادة الطفلة الثانية جعلت جون في أشد سروره فكان يحسب أنه أسعد الناس حظاً ويعتقد أن امرأته ملاك فيزداد هيامه بها

وما أشد عجب جون من إسراف زوجته رغم إيراده الزائد . وكلما فاتحها بهذا الشأن كانت تقول له : لا تتداخل في أموري

وكان الأب تونلييه (والد تريز) يقضي مطالب ابنته حتى آخر درهم لديه

* * *

كان تأثير الرسالة في قلب الزوج كوقوع الصاعقة . ففي ذاك المساء كانت تريز قلقة البال من هذه الرسالة التي غيرت ملامح زوجها تغييراً صريحاً

أشعل جون سيكاراً وقال لزوجته ؟ أتبتغين مني شيئاً ؟

— هل ما أدعيته بشأن الرسالة حقيقي ؟

— بلى . رسالة خطيرة تدعوني للتغيب عن المنزل

— اذاً ؟

— سأعود الى الوزارة

— فليخل بالك من الأوهام

— لاتكثري المزاح

ثم اقترب منها وقبل جبينها بحرارة وتمتم قائلا : اني أعبدك يا تريز

خرج جون وسار حتى وصل الى زاوية شارعي سان سيمون وسان جرمان والتفت حوله لكي يتأكد من خلو المكان في هذه النقطة ثم فض الرسالة وقرأ ما فيها بيد مرتجفة كما يأتي :

سيدي

ان سيدة تجهل مقرها تسعى في انذارك عن أمر خطير قد يمس بشرفك وشرف أسرتك

ان امرأتك تخدعك في الباطن فهي لم تكتف بابتزاز دراهمك بل سمت

الى وسيلة أخرى غير قانونية لاستجلاب مايشبع شهواتها الشخصية من لهو وتنزهات

واذا أردت أن تتحقق صدق قولي فسلها عما كانت تفعله يوم السبت في منزل بشارع باك نمرة ٣٧ بين الثالثة والرابعة بعد الظهر مع شاب حسن البزة كثير الغنى ان تقدمك السريع في المناصب لم يرق في عينها . فاذا أردت أن تتحقق أخلاصها لك فسلها عما دعاها الى خيانتك وخداعك ؟

حاقدة مجهولة

فأحس جون بعد تلاوة تلك الرسالة ان نار الغضب يتصاعد الى رأسه وأخذ يخطر ذهاباً وإيابا وهو يتحسر على حالته التعسة وما آلت اليه بعد هذه الرسالة المشؤومة

فتمتم بحزن هذه الكلمات : كيف ! تريز خائنة ! تريز كاذبة ! تريز خادعة ! واحسرتاه على حسن ظني بها . . . .

ولم يزل جون سائراً لايعي لشيء من فرط التأثر حتى وصل الى قرب جسر رويال عند مدخل شارع باك المنوه عنه في الرسالة

فتقدم الى المنزل المذكور وهو قديم العهد ومتداعي الى السقوط

فدخل الى الساحة ووجد المنزل المشار اليه بسلمه الخارجي ذي الخمس درجات فهز رأسه تحسراً وأتم سيره في الرواق المؤدي الى الحديقة . . . .

وهنا ظهرت له الحقيقة بأجلى بيانها اذا علم أن امرأته تخدعه دون أن يشعر بأمرها

أجل أن تريز التي قد وهبها قلبه قد خدعته ومثلت دوراً يمس بشرفه ويشين بسمعته

ترى هل في امكانه ان يسألها عن الحقيقة ؟ . . . . وهي المذنبة التعسة التي قادتها الاطماع الى هذه الهاوية . . .

تمتم جون كلمات ملؤها القنوط : « هنا تمت الجريمة . هنا أتت لمقابلة عشيقها »

لا بد أن الدراهم كانت سبباً في هذه الجريمة الشائنة فما أتعس حال الزوج

ألقى جون نظرة أخرى على هذا المنزل ، وكان الباب العمومي لايزال

مفتوحاً نخرج وهو يقول : سيتقابلان هنا • فأكون أنا من ضمن زائري هذا البيت

وفي الساعة العاشرة والنصف عاد جون الى منزله وهو مكتئب • ولدى دخوله الى الصالون الصغير رأى امرأته تعلق قبعتها على الشماعة وتخلع رداءها فقال مندهشاً : عجباً ! هل خرجت ؟

— لبرهة وجيزة

— الى أين ؟

— الى الوزارة لأبحث عنك • وقد ضاعت أتعابي ومللت الانتظار فعدت حالا

— والطفلتان ؟

— نائمتان

ثم قبضت على يده وقادته الى مخدعها حيث كانت الطفلتان نائمتين في مهديهما وقالت : لاتحرك ساكناً

فألقى جون على زوجته نظرة ملؤها الغضب والحقد فارتابت منه وقالت بتردد : ان نظراتك حادة ياجون فماذا دهاك ؟

— لا شيء . .

— بماذا تفكر اذاً ؟

— أفكر في المستقبل . ان موظفاً مثلي لايمكنه أن يعيش على هذا الترف الباريسي

— ان هذه الفكرة الصائبة قد طرأت عليّ مراراً

وبعد سكوت طويل قال : اذاً لقد ذهبت لتبحثي عني ؟

— بدون شك

— المعذرة • اني في غاية الكدر

— لماذا ؟

— لا أعلم . استودعك

— فلتصحبك السلامة

فارقها جون وهو يعلم أنها لاتزال تخدعه • والحقيقة أنها تكذب فيما أدعته

فقد ذهبت لتبعث برسالة الى عشيقها . وتحوى هذه الرسالة ما يأتي : « لديّ ما أخاطبك به . . . اني أنتظرك عند الساعة الثالثة في المكان المعلوم »

« ت »

الفصل الثالث

على الاثر

في صباح اليوم التالي نهض جون مبكراً وذهب الى مكتبه في الوزارة. وكانت ملامحه تدل على الهدؤ والسكينة فقد ألقى نظرة الفاحص الى الماضي ولعن تسرعه وعدم تبصره في المواقب . وكيف ذهب فريسة الخيانة وهو خالي الذهن من ذلك

ألم تقوده تريز الى باريس ؟ ألم يكن لها علم عا ستفعله هنالك ؟ . .

ألم يقبل عا تمنته وما كان أشد سرورها عند ما أجابها إلى طلبها

وصل جون وهو شارد الفكر الى زاوية شارع بورحولي فالتطم بعابر سبيل تحنق عليه قائلا : انتبه يا صاح

لكنه ما كاد يراه حتى غير لهجته وقال : هذا أنت يا جون امن أين أنت آت؟

— من المنزل .

— والى أين تقصد ؟

— الى هنا

وأشار له الى علم مركز على بناء الوزارة . فقال مخاطبه : هنا مكتبك ؟

— نعم . وأنت ؟

— اسمح لي بدقيقة ؟

— بل عشرة

وأراد الرجل أن يأخذ بذراع جون الا أن هذا صاح : ما هذا ؟ هل أرقت الليلة ؟

وكان الرفيق ضخماً يعمل في احدى المنازل الكبرى فقاد جون الى شارع الانفاليد وقال له : اني حاقد عليك بسبب العرس . ألا تنبئني بزواجك وأنا ابن عمك؟

— لم أعلم عن مقرك . هل كنت في الجندية

— بدون شك

— اذاً لعلي أهملت الواجب فالمعذرة . . .

— هل أنت قانع بمنصبك ؟

— نعم

— هل تذكر سان سلفستر عند ما أردت ترصيد حساب الايجار والتواليت والخادمة ولعب الاطفال والملابس وغير ذلك واعتقدت أنه لم يبق في محفظتك شيء يذكر

— اذكر ذلك جيداً

— ولديك طفلتان جميلتان . . . . .

— نعم . فهل رأيتهما ؟

— منذ ثلاثة أسابيع فقط . بينما كنت سائراً أبصرت الطفلتين مع الخادمة وكنت أعرفها جيداً فسألتها عنهما فأجابت بأنهما ابنتا مدام ردون . . . فقبلتهما بكل عطف . . . ألا تأنف لمخاطبتك خادماً ؟

— أمر مضحك يا لويس

وكان الخادم يدعى لويس ربول وهو ابن اخت رئيس مقاطعة سوفلي . وقد أخنى عليه الدهر واصبح فقيراً فاضطر للاستخدام . فقال

— أنت لا تسألني عن مقري

عسى أن تكون مرتاحاً في المنزل الذي تعمل فيه . عند من ؟

— عند شاب يزعم بأنه سعيد

— سعيد ؟

— ولم لا . فهو شاب ظريف في الثامنة والعشرين من عمره ذو صحة جيدة تعشقه النساء لنبالته وجماله وغناه

— كيف عرفته ؟

— هو كولونيل . وقد سعى لادخالي في خدمته

— كم لك من الزمن في خدمته ؟

— ثلاث سنوات وقد توفي والده في المدة الاخيرة

— ماذا يدعى ؟

— المركيز بورد

— أين يقطن ؟
— في فندق بورد بشارع نابليون وهو منزل أنيق بحدائق عظيمة
— لقد بلغت العاشرة الا ربع
— متى أراك ثانية ؟
— متى شئت
— لم تعطني عنوانك
— سان سيمون نمرة ١٦ في الطبقة الثالثة

ثم افترقا . فذهب ربول الى منزل في شارع فيلار ليودع رسالة وقصد جون الى مكتبه في الوزارة

بينما كان جون مشتت الأفكار نحو زوجته الخادعة إذ طرق الباب فقال : أدخل

وكان الطارق لوريو وبيده ورقة بشأن السكر فأعطاها لجون الذي قال : الآن يمكنك أن تنصرف

فأراد لوريو أن يذهب فأوقفه جون بقوله : اني متأخر ويمكنك أن تساعدني بالقاء نظرة على هذه الدوسيهات ريثما أطالع كافة الرسائل الواردة

وأشار الى زاوية من الغرفة فارغة وقال له : إذا كان ذلك يسبب ضجرك فأرسل لي روبينيه

— كلا . اني طوع أوامرك أيها النائب

كان جون يطالع الرسالة تلو الاخرى دون أمهال ويلقيها بجانبه . وكان لوريو يلاحظ سرعته وهو يسترق البصر الى ما يقرأه فتألم باطناً وتمتم بصوت حزين : الجميع يملون أمري . . . .

عاد جون الى منزله وقد امتلأ وجهه غماً وكآبة فأحست زوجته بخطورة مركزها وسألته : ألديك شيء جديد ؟

— لقد ارتكبت خطأ بتأخيري الى الآن
— أنت ؟ . . .
— لقد أخطأت في عمل مضاد لرأي الرئيس وهو الآن في غضب
— أهذا كل الشيء ؟
— أليس بكاف ؟ . . .

— لا تنزعج لامر يسير

سار جون لمخدع زوجته وهو مطرق إلى الأرض ثم انتبه فجاءة على نداء طفلته الكبرى تدعوه لمنازلة الطعام . فاستجمع قواه وذهب الى القاعة المعدة لذلك

لم تطل مدة مكثه لدى المائدة فنهض وقال : يجب أن أعود إلى العمل بعد الظهر وقد أتأخر هناك

فأبرقت عينا الزوجة إلا أن ذلك لم يخف عن جون الخانق فابس قبعته وقال مستفهماً : أتخرجين ؟

— لم أفكر بعد . ربما خرجت

خرج جون من منزله وهو يناجي نفسه قائلا : لقد انتهى الامر . هي لا تفكر الا به . . سوف تعلم كيف يكون انتقامي . . .

كانت الساعة الثانية عند ما وصل جون الى مكتبه ولكنه لم يلبث أن دعا لوريو وقال له : اني أشعر بصداع . فلنؤجل عمل اليوم الى الغد

وإذ خرج جون تمتم لوريو مقهقهاً : اني أعرف سبب صداعه . . .

سار جون متجهاً نحو شارع باك الى المنزل الذي عاينه في صحيفة اليوم . وكان المنزل لا يخلو من الناس والعربات المحملة بالبضائع فألقى جون نظرة شاملة على المنزل ذي الحديقة واذ وجده خالياً تنفس الصعداء وتقدم الى الداخل فلم يعترضه أحداً من البوابين

وسار في الحديقة الى أن دخل فسحة الدار وصعد السلم الخارجي وولج باب المنزل

الفصل الرابع

أسرار العشاق

كانت أول غاية وجه اليها جون اهتمامه هي التنصت الى ما يدور في المنزل وكان السكون مخيما إذ ذاك فدخل باب قاعة الاستقبال

أراد أن يمتحن بقية الغرف ولما لم يجد ما يهمه أمره صعد الى الطبقة الاولى

وولج غرفة مفروشة بغالي الاثاث وأنفس الرياش والسجاد

وفي هـذه الغرفة فراش مغلف بقماش من النسيج الحريري الاحمر وأرض الغرفة مفروش بالسجاد النادر . وهناك أيضاً طاولة تحتوي على جميع أدوات الزينة التي تلزم امرأة أريستقراطية . وفي وسط الفراغ الكائن بين نافذتين تطلان على الحديقة بيانو صغير

مر في مخيلة جون في تلك اللحظة بريق من الأمل لم يلبث ان انطفأ نوره فجاءة في هـذه الغرفة الهائلة تمت خيانة زوجته وخداعها له بصير ورتها خليلة شاب من أولاد الاغنياء . أخذ يفكر في وسيلة يزيل بها هذين الاثنين من الوجود كي يزول من مخيلته هذا الشر ويعيش آمناً مطمئناً . لكنه وقع بين عاملي الانتقام والشرف . أيقتل زوجته ؟ — والأطفال الى ماذا تؤول حالتهم ؟...

انه لشريف وشرفه يطالب بسفك الدماء . . . .

كيف يأتي هـذا المنكر ويزيد الطين بلة . ألا يكفيه التستر فهو خير من الفضيحة الشائنة التي تؤدي الى هوة لا قرار لها فينحط مركزه الأدبي والمادي معاً في الهيئة الاجتماعية

وبينما هو على هذه التأملات اذ انتبه الى صوت وقع أقدام خفيفة على رمل الحديقة فألقى نظرة حائرة الى ما حواليه ثم اندفع نحو غرفة الزينة واحتبأ بين ستائرها

وقد أتى الشاب قبل مجيء خليلته وجلس على مقعد وأخذ يعزف على البيانو ويردد هذه الكلمات . كيف لا أجد أحداً . يظهر أني وصلت أولا أيتها المعبودة الجميلة ذات العيون العسلية . . .

تأمل جون قليلا ذلك الرجل الجهنمي الذي سلبه أعز ما لديه ألا وهي امرأته . فاذا هو . . . .

وكان المركيز رعوز دي بورد لوسان يناهز الثلاثين من العمر وينتسب الى أعرق عائلة في سان جرمان معتدل القامة قوي البنية جميل الوجه يحق للنساء أن يعشقنه لصغر سنه

أخذ المركيز يخطر ذهاباً وإياباً وهو ينتظر بفارغ الصبر قدوم خليلته . ولم تمض عشر دقائق حتى سمع جون صوت امرأته فارتعدت فرائصه فاذا كان لا يزال في نفسه ذرة من الشك فقد صح الصحيح وانقطع الرجاء

تصاعدت النيران الملتهبة في فؤاده وأصعدت الدم الى رأسه فأعمت بصيرته وكاد يفتك بهما في الحال لكنه توقف عن هذا العمل الجنوني ريثما يتم له الامر ويكشف الستار عن الحقيقة الجارحة

— لقد انتظرتك طويلا فظننت أنك لن تأتي اليوم

— قد أكون على حق لو تغيبت

— ولماذا ؟

— دعني أستريح لاني تعبة فقد أسرعت في سيري . ثم لست مطمئنة

— ومن تخشين بأسه ؟

— كل شيء حتى ظلي

— أراك مرتجفة

— أشعر بذلك لكثرة خوفي . .

— ممن ؟

— أمر يسير

— وما هو ؟

— لقد كان في اعتقادي أننا في أمان

— وهل من حادث يكدر صفاءنا

— بل مصيبة

— بالله عليك لاتخيفيني . ماذا يداهمنا ؟

— ان زوجي قد تغيرت هيئته في المدة الأخيرة

— ليس هذا ما يستدعي الاهتمام بل أنها ظنون .

— هل حدثك بها ؟

— كلا

— وأي ظنون تعنين ؟

— وصلته رسالة خيانة

— هل قرأتها ؟

— كلا انما لاح لي أن ملامحه تغيرت فجاءة بعد تلاوة الاسطر الأولى من الرسالة . فكرت في أن أستشيرك فيهذا الامرلتلافيمايؤول من الخطر المحدق...

— لا تنزعجي لأقل الظنون . والآن أين الطفلتان ؟

— تركتهما في حديقة التويلري كسابق عادتهما وسأبرح بعد برهة
— أرجوك ....
— كلا . كلا . اني جزعة . ونفسي تحدثني بوقوع ما لا تحمد عقباه
— هل الطفلتان في صحة جيدة؟
— أيتهما تعني على الاخص؟
— ابنتنا بدون شك
— ريموند ؟ . . . إنها على تمام العافية . ومرآها يسبب لي سعادة لاتقدر . فهي على شاكلتك ياعزيزي

لم تكد تفوه المرأة بهذه العبارة الأخيرة حتى أصبح جون في حالة يرثى لها من شحوب اللون وقد علم بأن طفلة من اللتين يعتقد انهما ابنتاه لم تكن إلا ابنة غير شرعية وقد دعيت على اسم أبيها المركيز ريمون . وقد دامت هذه الصلة الأثيمة والخيانة الفادحة مدة ثلاث سنوات فكان سعادته لم تكن الا خيالية بحتة

قامت تريز وقالت : اني كثيرة الجزع إذ لو فاجأنا جون لقتلنا بدون رحمة
— إنما لا بد من أن تجيبني على طلبي
— أعلى مغادرته ؟
— بدون شك . لان الحياة لاتطاق على هذا المنوال ولا يمكنني أن أتركك اني أحبك كالمعتوه . وهذه الطفلة التي هي من دمي يجب أن تكون معنا لانها نتيجة محبتنا . أجيبي . . . .
— إن هذا لمستحيل . كيف أترك إبنتي الاخرى وهي حشاشة كبدي أيضاً . وهل تترك الوالدة أطفالها صغاراً . لست بامرأة قاسية . ولا أنكر أني أهواك بل أعبدك وأكرس حياتي لاجلك . لكن . لا سبيل إلى القبول
— إذاً أنت ترفضين ؟
— لا بد من ذلك
— ربما أصبت . لكن ما العمل ؟

لو تمكنت تريز أن ترى زوجها مختبئاً في غرفة الزينة لماتت جزعاً . ذلك الرجل الذي أصبح منظره كالاسود الضارية بعينين يتطاير منهما الشرر

فقال المركيز بلهجة المتوسل : يجب أن نتبصر جيداً في الأمر . وسوف أجد لذلك علاجا ناجعاً

بعد برهة انفضّ المجلس وعاد كل من المركيز وعشيقته الى حال سبيلهما

فنهض جون من مخبئه وقد شابه الأموات فقال وهو يصر بأسنانه : في اعتقادي إني وجدت العلاج . . . .

ثم نزل من المنزل المشؤوم واختلط بين الجمع الغفير

الفصل الخامس

ذكرى قديمة

خرج جون من المنزل المشؤوم الذي تحقق فيه مهبط آماله في زوجته التي أحبها حباً أعمى وأن ذلك الحب لم يلبث أن زال فجاءة

تبسم حانقاً وقد علم أن زوجته لا تحبه بل تحب رجلا آخر حباً يقرب من العبادة . هذا هو العار بعينه

وقال في نفسه :— هل يمكن أن يكون لوريو هو كاتب هذه الرسالة ؟ وعلى كل حال لا بد أن كاتبها قد قام بخدمة جليلة لم أكن أتوقعها

طرأ على جون في بادىء الأمر الغضب ثم اليأس . لكنه عاد الى التفكير

وصل وهو في سيره الى جسر الانفاليد وأخذ ينظر الى المياه الجارية التي تخرج من باريس غير آسفة على فراقها . . . وفكر أنه سيفعل هو أيضاً . فالفرار لا بد منه

عادت اليه ذكرى قديمة أزالتها محن الأيام

أراد أن يعود إلى الأرض التي نشأ فيها . أي « سوفاجير » تلك الضاحية الصغيرة التي كان فيها الاب ردون يزرع أرضه بكل نشاط

أراد أن يحذو حذو والده فيعود الى ذلك الوطن العزيز ويترك باريس التي نغصت حياته كلها . هنالك في الخلاء والشمس المشرقة تكسبه صحة قوية فتتجدد قواه ولا يعود يفكر في ماضيه المؤلم

عزم جون على أخذ الطفلتين معه فيمضي بقية حياته منفرداً عن الدنيا وملذاتها . لكن عائقاً حال دون مرامه وهو التصاقه بالامرأة الخادعة

لقد علمنا أن المركيز يطلب الطفلة ريموند . ولكن جون سيأخذها بعامل الحقد والضغينة

سيقوم بين الرجلين عراكٌ عنيفٌ ينتهي بأن تأخذ الزوجة الطفلتين لتربيتهما بمقتضى القانون

سوف يذهب إلى البلاد القاصية حيث لا يعلم أحد مقره . لكن لا بد له من المال وهو لا يملك درهماً واحداً فقد بددت امرأته أمواله . أيبيع سوفاجير التي لا تزال في قبضة يده ؟ — لا بد من ذلك

عندئذ سقطت دمعة من مقلته أسفاً على هذه التضحية العظيمة

كانت الساعة السابعة عند ما عاد جون الى منزله شارد الفكر فبادرته تريز بقولها : لمَ تأخرت ؟

فاقترب منها وقبلها قبلة صادقة آنستها منه وعلمت أنها باخلاص . فتبسمت كأنها نجت من خطر محدق . فسألته قائلة : يظهر انك لم تشتغل اليوم ؟

— كلا

— لقد جاءني زائر

— متى ؟

— عند الرابعة

— لم تخرجي إذاً ؟

— برهة فقط . . .

— الى أين ؟

— إلى اللوفر لشراء قطعة من الدانتيل . وكانت الطفلتان في حدائق التويلري كالمعتاد مع ليوني الامينة . ثم عدت الى المنزل لوضع السلعة . ولما أردت الخروج سمعت طرق الباب . تنبأ من يكون الطارق ؟

— لا أعلم

— أحد رجال القانون

— المسيو كولومبي ؟

— هو بعينه

— إنا مدينون له ....

— بما منح لنا الوزير

— وبعد هذا المنصب ؟ ..

— ان الأمر لم ينته بعد فيجب والحالة هذه أن نرفض مساعدته

— لماذا ؟

— لأنه لايقوم بمساعدتنا مجاناً

ذهب جون الى قاعة الطعام . وفي أثنائه قص على زوجته مقابلته مع ابن عمه وأردف قائلا : أنت تعلمين شيئاً عن لويس روبول الذي كان جندياً منذ ثلاث سنوات ؟

— نعم

— لقد اضطر أن يبحث عن عمل لأن والده لم يخلف له درهماً واحداً

— هل وجد ؟

— من حسن حظه . لقد نسيت أن أدعوه في حفلة زواجنا لأني لم أعلم مقره

— ماذا يعمل الآن ؟

— عمل خادم

— في منزل من منازل الكبراء ؟

— بدون شك لأنه ليس من وضعاء الناس

— منزل من ؟

فأجاب جون بدون اهتمام : يخدم عند المركيز دي بورد

في تلك اللحظة سقطت الآنية من يد الطفلة جان فالتفت جون اليها فنجت زوجته من نظراته النقادة لانها كانت قد شابهت الأموات لدى سماعها هذا الاسم . ثم تجلدت وملكت روعها وقالت مستفهمة : وأين يقطن ؟

— في شارع نابلون وقد قيل لي أنه غني وجميل وحسن السيرة

في الساعة التاسعة كان جون مع زوجته في مخدعها وكانت الطفلتان نائمتين . فقال جون :

— لم أقم بعد الظهر في الوزارة . فقد أصابتني نوبة شديدة فقصدت الى الشانزيلزيه عند مدخل بوا

— منفرداً ؟
— نعم وكنت أفكر في أثناء سيري
— بأي شأن ؟
— كنت أفكر في شراء فيلا بقرب البحر في جهة فيلار أو تروفيل
— لم أقصد غير المزاح حين قلت لك أني أود أن يكون لنا فيلا
— وأما أنا فأجد الآن
— أليس هذا مستحيلاً ؟
— ليس بمستحيل لاني وجدت الوسيلة لتحقيق هذه الغاية
ثم نهض جون وقال : غداً أبلغك عن عزمي
— ولم غداً ؟
— لاننا سنذهب غداً للتنزه ونتحدث سوية
— أين ؟
— في الضواحي
— ليلتك سعيدة
ثم انصرف فتنفست تريز الصعداء وأظهرت الارتياح وغمغمت قائلة لنفسها : لقد أخطأت في ظني فهو لا يعلم شيئاً

الفصل السادس

الرسالة

أمطرت السماء في تلك الليلة ولم تهب العاصفة فكان الطقس جميلا في الصباح. أشرقت الشمس بأشعتها الذهبية على الاشجار الزاهرة فانعشتها وعلى الأثمار فأنضجتها وعلى الأوراق فأكسبتها اخضراراً

فتح جون النافذة واستنشق الهواء العليل وشارك جمال الطبيعة بين تلك البقاع الخضراء

ثم ارتدى معطفه المصنوع من القطيفة ذات اللون الكستنائي.وأخذيتمشى على أطراف أصابعه كي لا يزعج أهل البيت في نومهم .لكنه سمع حركة آتية من المطبخ

كانت ليوني الخادمة الشقراء تعد مايلزم للنزهة من غذاء وحلويات . فاقترب جون من عتبة المطبخ وقال لها : لقد بكرت . . .

— لأن الأطفال متى استيقظوا لا يدعون وسيلة للعمل

— لا تتعبي نفسك . فسنتناول الطعام في حانة قريبة

— هل علمت سيدتي تريز ذلك قبل الآن ؟

— سأفاجئها به في حينه . لو تعلمين؟ ؟ ؟

— ماذا ؟

— قابلت أحد أصدقائك

فعلا وجه الخادمة حمرة الخجل وقالت : من هو يا ترى ؟

— لويس روبول

— الجندي القديم ؟

— نعم

— وخادم المركيز دى بورد ؟

— هو بعينه

— لقد أراد أن يدخلني في خدمة المركيز . وهو طيب القلب

— هل رأيته منذ مدة طويلة ؟

— منذ سنتين . . . أي قبل أن أقوم بالخدمة عند سيدي

— ولمَ لم تقبلي طلبه ؟

— لأني لا أعرف الحياكة . وقد أحببته فهو من أقرباء سيدي

— هو إبن عمي

— قال لي ذلك

انتهي الحديث وذهب جون الى قاعة الاستقبال وشاهد رسم امرأته صنع لبيرت المصور فأخذيتأمله ويتنهد تنهداً عميقاً صادراً من أعماق قلبه

هناك مكتب صغير لتريز . فجلس جون ومد يده إلى غلاف عليه بضع رسوم لزوجته فانتقى منها رسمين ثم أخذ بضع رسوم للطفلتين وأخذ قلماً وخط على قرطاس ما نصه :

سيدي

منذ سنة أخبرتني بأن رجلا يريد أن يشتري مزرعتي في سوفاجير ليجعلها مركزاً للصيد والقنص وقد رفضت الطلب اذ ذاك . أما الآن فقد أحوجتني الضرورة لأن أوافقك على ما عرضته عليّ . وبما أنه لا سبيل للاجابة وأنا في باريس فسأحضر إلى نيفر للمباحثة في هذا الشأن . وأقبل تحيات صديقكم الامين ؟

جون ردون

وعلى ظهر الغلاف كتب ما يأتي : المسيو بوشين . كاتب عقود في شاتوشينون نيفر

ثم وضع الرسالة في محفظته بجانب الرسوم وكانت ريموند وجان تتحدثان بأمور صبيانية مختلفة . وقد استيقظت تريز وأخذت تداعبهما ثم فتح جون الباب وقال بصوت هادىء : إن الطقس جميل فسأتنزه قليلا ثم أعود في الساعة العاشرة

أخذت تريز بعد انصراف زوجها تناجي نفسها بعد أن رأت منه مسالمة ودية فقالت في نفسها : لم يعلم شيئاً

لكنها تمتمت بحزن : والنهاية ؟ . . .

أجل . كيف تنتهي هذه العلاقة الزوجية التي دامت مدة حتى أصبحت وثيقة العرى بحياتها المادية والأدبية

كيف تسهر على سلامتها وهي بين نارين : الأولى زوجها الذي تغيرت سحنته منذ يومين أثر رسالة غريبة . والثانية عشيقها المتمول الجميل الذي أصبح لا تمكنه مفارقتها وزاد حبه لها حتى أرادها لنفسه دون سواه

تمتمت حينئذ هذه الكلمات : لم يزل نجمي ساطعاً . . . ألم تنجح مقاصدي منذ مجيئي إلى باريس ؟ ولكن . . .

ألم تحصل على ما كانت تطمح اليه أبصارها ؟

وصل جون في سيره إلى اسطبل عربات واكترى عربة فسارت به إلى منزله وكانت الساعة اذ ذاك العاشرة ونصف . فركبت العائلة وسارت العربة بهم

الى« بوادى بولون» تلك الغابة الجميلة التي تصلح لتناول الطعام فيها ولا سيما في مثل هذا اليوم الزاهر . في احدى الطرق المؤدية الى الغابة تأبط جون ذراع زوجته وسار وقد ساد السكون عليهما وبعد برهة قالت تريز : وما هو الشيء الذي ستفاجئني به ؟

— لن نعود قط الى نيفر ؟

— قد يحتمل ذلك

— أتشاركينني في رأيي ؟

— لا وسيلة خلاف هذه

— حدثتني نفسي بأن لافائدة من حفظ ممتلكات لا نراها

— ستبيع اذاً مزرعة سوفاجير ؟

— بدون شك ؟

— هل صممت على عزمك ؟

— أنها عزيزة لدي . لكن لا بأس من بيعها . . .

ثم همس في أذنها قائلا : أن أسعار الممتلكات آخذة في الهبوط السريع وقد دفع لنا الثمن الموافق . والشاري يود ان يحوز على قطعة أرض كبيرة . فهذه فرصة نادرة يجب أن نغتنمها

— وبعدئذ ؟

— نقسم المبلغ الى جزئين ؟

— ولماذا الى جزئين ؟

— الجزء الأصغر نشتري به فيلا على شاطىء البحر والآخر نضعه في مصرف بفائدة تذكر

— لكنك ستفارق سوفاجير الى الأبد

ثم اقتربا من مكان مظلل بأشجار باسقة فضم جون زوجته الى صدره وقبلها قبلة حارة وهمس في أذنها قائلا : أنها تضحية لكنها عن طيبة خاطر

فنفرت منه كما تنفر الغزالة من وجه مطارديها وقالت بحنو : اني أرفض هذه التضحية ما دامت عزيزة لديك

— هذا لأجل طفلتينا وسعياً وراء راحتنا لأني لا أطمع بسوفاجير ما دامت بعيدة عني

— انك السيد المطلق • فلتكن ارادتك لانها قبل كل شيء

— سأذهب الى سوفاجير بعد يومين لأنهي هذا الامر فهل ترافقينني ؟

فلم تجب • فكرر عليها القول : ان الجولان لذيذ في هذه البقاع الأثرية التي تذكرنا بسابق غرامنا وأول خطوة في سبيله

فترددت مرتبكة وقالت : أريد ذلك . لكن الطفلتين ؟ أنتركهم مع الخادمة ؟

— لا بأس عليهما . وسأذهب أيضا الى نيفر

— افعل ما شئت

ثم ركبا العربة مع الطفلتين والخادمة فسارت بهم الى المنزل : وهناك قال جون بتأسف : لقد فاتك أنه آخر يوم نتنزه فيه ولن نعيد الكرة

— لماذا ؟

— لأننا لسنا من الأغنياء

ثم ولج جون غرفته وقال في سره : انها لا تزال تخدعني

الفصل السابع

العودة

بعد مرور ثلاثة أيام • عند الخامسة صباحاً نزل شاب من القطار الآتي من باريس الى محطة نيفر • وكان متنكراً بردائه الاسود وعلى رأسه قبعة من اللباد

وكان الضباب يرتفع ارتفاعا عظيما فيغشي وادي اللوار كله

إتجه المسافر مسرعا نحو عربة واقترب من حوذيها النائم على المقعد الامامي فأيقظه بقوله : مولينيه : أنائم أنت ؟

فاستيقظ الحوذي مرتعباً وأشار بيده على رأسه للتحية وقال : العفو يا مسيو جون • لم يوقظني القطار هاأنادا

— متى وصلت ؟

— البارحة مساء عند منتصف الليل

— يظهر أن الليل لم يطل لك ؟

— لم يطل الا قليلا

— أترحل ؟

— اذا شئت يا سيدي ؟

فوثب جون الى داخل العربة وسارت به الى شاتوشينون إنما لا بد من المرور بشايتون عند الأب فوكار بينما يأكل الجواد علفه . فقال جون للحوذي:

— كيف صحة الأب فوكار ؟

— على غاية ما يرام • وهو طاعن في السن . واحد أصدقاء والدك القدماء

— وفندقه ؟

— الاعمال سائرة طبق المرام

ومولينيه هـذا شاب في الخامسة والثلاثين من العمر تربى في سوفاجير بين عائلة ردرن وبقي في خدمة المزارعين الذين اشتروا جزءاً من الارض • وكانت المودة بين جون ومولينيه مؤسسة منذ الطفولة

— كيف حالة آل روفريه (مزارعي سوفاجير)

— متمتعون بصحة جيدة

— هل أنت راض عنهم ؟

— نعم • وبودي ألاّ يتغير صاحبها • لكن ••• لا مفر من القضاء المحتم

— ألم يمتنعوا عن ارسالك الى نيفر حينما وصلتك رسالتي أو تأثروا ؟

— أنهم طوع أوامر سيدي على كل حال

— هل هم مسرورون من المعيشة في المزرعة ؟

— أجل . فهم يعتبرون أنفسهم من أسعد الناس لان لديهم من الاخشـاب ما يقيهم البرد . والاعشاب النضرة علف للماشية • ولا يفتأ الأب روفري عن قنص الحيوانات البرية كالخنزير والتيس والأرنب ودجاجات الأرض التي تحوم حول الصخرة . . . أما زوجتـه فامرأة صالحة ذات تقوى

انتهى الحـديث فأطبق جون جفنيه لكنه لم ينم بل كان سابحاً في بحار من التأملات المقلقة فان هواء بلاده النقي قد أذكره تلك المعيشة الآمنـة الخالية من الشوائب منذ كان في نضارة الشباب فندم على مفارقته لها وما أصابه من جراء ذلك

حسد جون ذلك الرجـل الذي شغل مكانة حسنة في تلك المزرعـة الوالدية .

فقد كان مطمئناً بين نظرات المزارعـين المشفوعة بعامل المحبـة والشفقة نحو خليفة سيدهم

ما أشهي الحياةله لو رضيت تريز بمعيشة المزرعة وبقيت بين المزارعين بدلا من الانقياد الاعمى الذي أتى بها إلى باريس فهوت في حضيض الذل. فيا للفضيحة ! لقد آن وقت التفكير . . . .

وما وصلت العربة إلى غابات سان بناندازي الشاسمة حتى برز جون من مقعده وقال للحوذي : والقبطان ؟ (ويعنى به والد تريز وهو الآب تونيليه)

— لا يشكو ألماً غير أنه بالرغم من هذه المظاهر تراه يزرع حديقته ويتنزه ويلهو كيف شاء

— هل يذهب إلى سوفاجير أحيانا ؟

— كل يوم . ويعظم سروره حينما تكون ابنته برفقته . هل هي متمتعة بصحة جيدة يا مسيو جون ؟

— نعم . نعم. يا عزيزي

— والطفلتان . يظهر أنهما جميلتان كالملائكة فقد أرانا القبطان صورتهما . . . .

فسكت جون حتى بلغت العربة شاتلون عند الحادية عشرة ووقفت عند مدخل فندق دو بيش

وكان صاحب الفندق جالساً على مقعد وهو يعرف جون تمام المعرفة .فلما شاهده يحييه وثب نحو العربة وقال : كيف أنت هنا يا جون ؟

ثم رافقه الى قاعة صغيرة . وبدا الآب فوكار في الستين من العمر بشعر أشقر فقال : أتتغدى يا جون ؟

— بدون شك . ومولينيه أيضاً . فقد أتى إلى نيفر ليصحبني

— فنادى صاحب الفندق: ميلاني . جيرارد

كان الأب فوكار أرمل غير أن في خدمتـه ستاً من الخادمات . أهمهن جيرارد . وهي رئيسة الطهاة وفي الخمسين من العمر . فلما جاءت سألها : ماذا لديك من الاطعمة غداء لولدنا جون ؟

— بيض . لحم مسلوق . ضلوع . فطائر . . . .

— حسناً عجلي في إحضار الموجود . وأوعزي الى ميلاني ان ترتب المائدة

جاءت ميلاني وحيت جون بكل وداعة وأدب . فحياها بوجه عبوس كانه في شاغل لا يبرح مخيلته . فقال الأب فوكار بحدة : يظهر أنك كثير الافكار
— اني لكذلك يا أبتي
— ان كلمتك هذه تزعجني . فماذا حدث لك ؟
— حدث أني سأبيع مزرعتي
— مستحيل
— الامر كما أقول
— لمن ؟
— للذين يبتغون شراءها
— يا للخسارة . آه لو كان معي مائة ورقة من فئة الألف . . . . لا أصدق ما تقوله
— بل هو الحقيقة بعينها
— لا شك أن أموراً قاهرة حملتك على ذلك
— واأسفاه
— كيف تبيع مزرعة ولدت فيها . . .
— لا مرد لما حكم به القضاء
— أتبيعها بعد أن أقمت فيها خمسة وعشرين عاماً . وتوفي والدك في أرضها ؟ وتزوجت أنت فيها أيضاً . . .
فكانت لعبارته الأخيرة أشد تأثير ظهر على محيا جون فلحظ منه الأب فوكار وقال بصوت ضعيف : إذاً لقد تقرر الأمر ؟
— نعم . نعم
— الذي كنت أراه أنه ليس من الحكمة التزوج بابنة جميلة عاشت بين العظمة والترفه . فلو تزوجت بقروية . . . . (وأشار بيده الى ميلاني وهي شابة في العشرين من العمر صبوحة الوجه) لأقمت معها في رغد من العيش
— لقد انتهى الأمر يا سيدي
— إذاً ستبيع المزرعة ؟
— إذا وجدت من يدفع ثمناً عادلا

— ان مزرعة كسوفاجير لا تلبث طويلا حتى تجد من يشتريها . . .

جلس الأب فوكار وجون لدى المائدة وأتت ميلاني بطبق من اللحم المسلوق. فقال جون :

— وآل رفين . ألم تصلك أنباء من قبلهم ؟ (وعائلة رفين تشتمل على بليز وتوماس وهما اخوان أشتهرا بالقنص في الاماكن الممنوعة من غابات المورفان . وكانا يتستران ويتظاهران امام الجميع بأنهما يعملان على قطع الاخشاب)

فقال الأب فوكار : منذ مدة غير طويلة مر توماس من هنا وكان يحمل طريدة . وقيل ان أخاه ترك البلاد

— أين هو الا ن يا ترى ؟

— لا أعلم عنه شيئاً إلا أنهما بطلان إذا قالا فعلا واذا وعدا وفيا . . .

فابرقت عينا جون سروراً . وبعد تناول الطعام أراد أن ينصرف فقال الأب فوكار : أذاهب أنت الى سوفاجير ؟

— عما قليل أذهب اليها ومنها الى كاتب العقود في المزرعة

— الى بوشين اللئيم ؟ فهو ينقب الأرض كي يجد لك شارياً . . . . انتصح يا جون وارجع عن غيك فقد تندم ولات ساعة مندم

— لا بد من ذلك

— ستمر من هنا عند عودتك ؟

— اذا تمكنت

ثم صافح الأب فوكار وركب العربة فسارت به بين الطرق الوعرة إلى شاتوشينون . وعند الساعة الخامسة مساء دخل جون إلى مكتب المسيو بوشين كاتب العقود فاستقبل بما يليق بمقامه شأن الزبائن الاغنياء الذين يفدون عليه

ولم تطل مدة المحادثة فان بوشين يعرف عائلة ردون منذ مدة طويلة وقد احتفظ لجون بالشاري فهو متمول وصاحب المعامل الحريرية في ليون ومن هواة القنص . وقد أعجبته مزرعة سوفاجير لحسن موقعها ومناحيها

عند الساعة السادسة والنصف اتفق جون مع الكاتب على الثمن بحيث يقبض القيمة المودوعة في بنك فرنسا عند عودته إلى باريس

عند ما أقبل الليل وصلت العربة بقرب منزل فسقطت عنده دمعتان من مقلتي

جون لان هـذا المنزل هو موطن آبائه ومقر ولادته وقد باعه . آه ! ! !
هاهي سوفاجـير بعينها .... الوداع يا سوفاجـير .... إلى الأبد ....

الفصل الثامن

القرية

استعد المزارعون لاستقبال سيدهم فأعدوا مائدة الطعام في قاعة قديمة البنيان قد عشش العنكبوت على أركانها إنما متانتها كفلت لها عمراً طويلا

جلس جون الى الطاولة لتناول الطعام وثلاثة من الخدمة حوله وهم موليفيه وتموشيه راعي البقر وفيرونيك الخادمة الضخمة

أما المزارعة فتبلغ الخمسين من العمر وملامحها تدل على المكر والرياء وهي عاملة مجتهدة لاتضيع الوقت سدى

والأب روفري رجل قد حنكته الأيام فأصبح لايؤخذ بسهولة ولا تفوته فرصة الا انتهزها

وكانت الراحة والطمأنينة تشملان هذا المنزل السعيد

تناول الجميع طعامهم محافظين على السكينة لعلمهم بأن جون آتيهم بنبأ لايسرهم

ثم أخـذوا يتداولون أطراف الحـديث فتكلموا بشأن الأب تونيليه وقد دعوه بمناسـبة حضور جون. فاعتذر للألم الذي انتابه ووعد بأن يأتي غـداً ليرى صهره

قالت المزارعة : ان قدومك إلى بلادك قد أنعشك وأعاد إلى نفسك ذكرى جميلة .... ستقيم بيننا بلا شك بضعة أيام ؟

— كلا

— لعلك تفضل السكنى في سوفاجير على باريس ؟

— بدون شك . إنما هذه المرة هي الأخيرة التي تروني فيها بينكم

فاشرأبت المزارعة بعنقها منذهلة ولم تفه بكلمة . وتابع جون حـديثه : لقد بيعت سوفاجير

— متى ؟
— منذ ساعتين
— لمن بيعت ؟
— لرجل يعلم كيف يحكم . . . .
— سيان لدينا اذا كان غنياً أو جميلا

انتهى الحديث فاختلى جون في غرفته في الطبقة الأولى من المنزل القديم والغرفة تحتوي على مضجع بسيط وكرسيين وآنيتين من الخزف ونافذة كبيرة تضيء الحجرة كلها

ثم اتكأ جون على النافذة ورمى ببصره الى الغابات التي يتدفق لمعان القمر الشاحب . فاعتراه للحال انحلال وفتور انقلب الى تأملات عميقة وتنهدات صادرة من أعماق قلبه

على قمة هذه الجهة يرى الناظر بقايا حصن قد تداعت أركانه وتهدمت جدرانه وقد يتبين الانسان أنها صخرة هائلة غير منتظمة ومسطحة في ذروتها. وهي تنسب حسب الاعتقادات الشائعة الى أنها كانت أنصاب تقام عليها الذبائح والقرابين البشرية في عهد كهنة الدرويد

فهذه الصخرة أو بعبارة أخرى مجموعة صخور مغشاة بطبقة خضراء جميلة زاهرة قد اشتهرت في القديم وأصبحت ذكرى لأهل تلك القرية فيدعونها بالصخرة الدامية

لماذا سميت بهذا الاسم ؟ يصعب على الانسان أن يتحقق هذا الأمر

هل كانت تستعمل للضحايا البشرية كما يزعمه المعاصرون ؟ أو ان جريمة لا تغتفر حدثت فيها حتى ثبت عليها هذا الاسم المريع ؟ أم أمر سخيف وهو وجود ينبوع مياه معدنية قد غشى جدارها بطبقة حمراء تشابه لون الدم

ومهما يكن الامر فهذه الصخرة تشتمل على بقعة ممتدة الى جهة بعيدة في البلاد . وعلى سطحها تمتد قرية سوفاجير والقصر الاثري وبرج الحمام والحدائق والاطلال البالية تشهد بوجود القصر الهائل المذكور في تاريخ الاعصر الخالية

أنعم جون النظر طويلا في هذه البقعة التي تذكر مكاشفته للمرة الاولى

بصوره نحو ابنة القبطان تونيليه حيث قال لها : تريز اني أحبك ولا يمكنني أن أعيش بدونك . وكان يحبها حقيقة

وما كان أشد سروره حينما سالمته بقولها : نعم . فكأن رنات صوتها قد دوت في فؤاده وكان لدويها تأثير جليل

الا أن هذه الاحلام قد تبعثرت وأصبحت كالخيال لا حقيقة لها البتة

أراد أن يرجع الى معيشته القديمة أو يذهب الى عالم مجهول ولكن الى أين ؟

بقي جون برهة وهو غائص في بحار من التأملات العميقة يناجي الطبيعة بأسلوب رقيق عذب ولم يكن يسمع الا نعيق البوم وصياح الغربان وتغريد الطيور في تلك البقعة المقفرة . . . .

بعد ردح من الزمان استلقى جون على فراشه وقد أنهكه التفكير

عند الخامسة صباحاً استيقظ وقد استرد بعض قواه . فأعاد نظرة أخرى إلى الجهة التي ناجاها ليلة أمس

بعدئذ خرج من غرفته فصادف المزارعة فسألته : الى أين ذاهب مبكراً؟ إلى منزل القبطان ؟

— كلا . فهل يأتي لمناولة الطعام ؟

— نعم

— أخبريه بأني لا أرغب ازعاجه . اني ذاهب الا ن

— الى أين ؟

— الى توماس رفين

— ان المسافة طويلة

— لقد تعودت قطع المسافات البعيدة وسأعود مساء

— ماذا ترغب من توماس ؟

— أريد أن أستعلم عن محل وجود أخيه بليز

— هو لا يقطن في البلدة

— لقد أخبرني الأب فوكار بذلك

— هل تأخذ معك قطعة من الفطير ؟

— بكل سرور

— وكأساً من النبيذ ؟
— هذا غاية أمنيتي
شرب جون كأس النبيذ وخرج قاصداً الى الكوخ المهجور المدعو بوتوشيان الذي يقيم فيه آل رفين وتوصل إلى هذا الكوخ في طريق ضيق مستقيم على الصخرة يؤدي إلى قمتها ومنها إلى حيث يراد

فهذه الصخرة الثابتة التي يزعزعها هبوب الرياح العاصفة وقصف الرعود هي الصخرة الدامية وعلى عمق خمسين متراً من قعر الينبوع المعدني طبقة حمراء وعلى مسافة قريبة منها ثلاث أشجار من الزان منقوش على جذعها اسمي جون وتريز وتاريخ المقابلة الأولى . . .

وفي الجهة الشرقية منزل الأب تونيلييه المحاط بالاشجار الباسقة

بعد مسير ساعتين وقف جون أمام منزل حقير وطرق بابه فسمع نباح كلب من الداخل وصوتاً أجش يقول : أدخل

الفصل التاسع

الضغينة

أعمل جون يده في المصراع فانفتح الباب . ودخل إلى غرفة تحوي بضع كراسي مشوهة ونوافذ ضيقة وخوان يتداعى بمجرد لمسه . فأخذ الكلب يحرك ذنبه جزلا وهو من نوع الكلاب التي تعيش في حي سوفاجير

وكان رجل بمعطف سنجابي اللون وفي قدميه حذاء غليظ فقام بلهفة ومد يديه مصافحاً جون وقال : أنت هنا ياجون . . . لم أكن أتوقع قدومك

— جئت لقضاء برهة قصيرة
— على ماذا عولت ؟
— على بيع مزرعتي
— وا فادحتاه !

— هل أزعجك مجيئي ؟
— بل سبب لي سروراً لا يوصف . فقد مضى زهاء الثلاثة أعوام ولم تزرنا
— بل أربعة على ما أذكر
— أترى كيف يمر الوقت بسرعة ؟
— وتتقلب فيه الأفئدة وتتصلب العواطف ويفتر الشعور . . .
— ماذا دهاك ياعزيزي حتى تتلفظ بهذه الأقوال ؟؟؟ فاني أرى على سيمائك ما يحدثني بوقوع مصاب ؟
— هو ما تقول . وأنت ؟ لماذا أراك هزيلا ؟
— لأن والدتي توفيت منذ شهرين من جراء الأحزان وقد زاد حزنها سفر بليز الفجائي . . .

وتوماس رفين شاب في السابعة والثلاثين من العمر متوسط القامة مشهور بجده في العمل وعيناه تتقدان ذكاء وهو نحيف الجسم عصبي المزاج يحب الصدق ومن اتصف به

بعد برهة ساد فيها السكون قال : بعد أن رحل بليز بقيت في بوتوشيان مع والدتي الصالحة أما الآن فقد أصبحت فريداً بعد فراقها الأبدي

— ألا تضجر من الاقامة في هذا الكوخ ؟
— بدون شك . وهل ما يحول دون إرادة العزة الالهية ؟
— إذاً علم أني أتيت لأعرض عليك أمراً ذا شأن
— وما هو ؟
— أن تصحبني في سفرة
— إلى أين ؟
— لم أعين وجهتها بعد . أتعدني بكتم السر ؟
— وهل أنا ممن يبوحون الاسرار بخساً ؟
— إذاً يجب أن تعلم أني سأرحل إلى بلاد بعيدة تاركا باريس وما فيها لأن التي اعتقدت فيها الاخلاص قد خانتني وهتكت عرضي لأجل المال

نهض توماس وقد اعتراه الاندهال مما سمعه فاتى بكأسين وزجاجة من الكونياك ووضعها على الخوان وسكب كأساً وقدمه لجون قائلا : فلنشرب نخب صحتك . . . لا أنسى قط الجميل الذي صنعه والدك لنا . . .

بعد هنيهة قال جون : ألا ترى أن مرافقتك لي في رحلتي أفضل من الاقامة في هذا الكوخ الحقير ؟

— أنا لا أترك بلادي وموطن آبائي ...

— عجباً . ! ظني أنك تلبي طلبي بلا تردد...

— إن أمراً جوهرياً يحول دون تلبيتي

— إذا كان لك خليلة فاصطحبها

— كان لي خليلة من قرية شوفان . أنت تعلم أن شوفان بيعت لأحد المليونيين. وكانت كاترين (خليلتي) ابنة أحد باعة الجرائد الذين يؤمون القصر وهي بارعة في الجمال . وقد عشقها أحد الحراس واستمالها فقطعت العلائق بيني وبينها مع أنها وعدتني بالاقتران بها ... يالها من وعود باطلة ... لن أمس شعرة من رأسها مادمت حياً . فلتتزوج من تشاء ... إلا أن أمراً خطيراً يحول دون قبولي وهي ضغينة ...

— على من ؟

فلأ توماس كأساً من الكونياك وقال بعد تفكير عميق : بليز يقيم الآن في قرية فلين وهو يحترف قطع الأخشاب

— هل هو متزوج ؟

— نعم تزوج بامرأة بريطانية (من بريطانيا في فرنسا) لاتحسن التكلم بالافرنسية إلا قليلا وهي أرملة توفي زوجها على أثر حادثة

— ماذا تعمل هي؟

— تعتني بقرتين وليس لهما أولاد ...

— هل يحترف القنص خفية ؟

— نادراً لأن العيون عديدة

— لماذا ترك البلاد ؟

— في منتصف إحدى الليالي كنا في غابات شوفان جالسين تحت ضوء القمر وكان بليز بعيداً عني يبسط ياقاته المبتلة على العشب . اطلقت عياراً فجاءني حالا . فقلت له : فلنبرح المكان لأن نفسي تحدثني بسوء . فلم يصغ لقولي . فذهبت وحدي على جواد سار بي إلى المنزل ولم تأت الثالثة صباحاً حتى كنت في فراشي نائماً . صارت الثامنة وبليز لم يعد بعد فأوجست شراً وخشيت أن يكون قد دوهم في تلك الليلة

بعصبية فأخذت أبحث عنه فلم أجده . فساورتني الظنون وقلقت كثيراً عليه وكان كلي « فينو » يساعدني في البحث

« طال البحث ولم تمض ساعة حتى قفز الكلب بقرب حفرة وأخذ ينبح نباحاً مؤلماً فارتعدت فرائصي وتصبب العرق البارد من جبيني . فذهبت إلى حيث كان الكلب فوجدت بليز ملقى على الأرض بلا حراك . فاعتقدت أنه مات . فأخذت قليلا من الماء ورششته على وجهه فلم يتحرك فخفق فؤادي وأخذت زجاجة النبيذ التي كانت معي وأدنيتها من فمه فانتعش قليلا وفتح عينيه منذهلا وقد شابه الأموات

« والمسافة بين شوفان وبوتوشيان ثلاث ساعات على الأقدام . فأسرعت في العودة إلى قرية سوفاجير تاركا إياه بحراسة فينو . وهناك أعطاني الأب فوكار عربة فذهبت ومن لديه معي ونقلناه إلى الكوخ . ولما حانت الساعة العاشرة كان على فراشه وقد أنهك الألم قواه

« مضت ثلاثة أسابيع على تلك الحادثة وأنا أجهل السبب الذي جعله عرضة لخطر القتل . فكان يجيبني إذا سألته : أنت ستنتقم لي وأنا لا أريد فأقسمت أنه اذا مات أخي أداب على قطع دابر الاشقياء الذين اغتالوه »

توقف توماس عن الكلام وأخذ يلهث كمن أصابته نوبة عصبية ثم استمر في حديثه فقال :

وكان بليز لايحمل بندقية أو أي سلاح آخر . ولدى مغادرتي المكان جاءت قوة من الحراس وقبضوا عليه . فقال رئيسهم : انظروا إلى هذا الشقي فانه أحد أفراد رفين . ثم انقضوا على أخي وهو بدون سلاح يدافع به عن نفسه وأثخنوه بالجراح . فأخذ يصيح حتى أغمي عليه فتركوه لاعتقادهم بأنه مات

وبعد مدة أفاق من إغمائه وزحف إلى الحفرة حيث وجدته . والحقيقة أني لولم آت لنجدته لمات . أما الحراس فلم يصبهم أذى ولم ينزعج خاطرهم كأنهم لم يأتوا أمراً عظيما . فأخذت والدتي تعتني به حتى شفي

— والحراس ؟

— لم نعرف أسماءهم . ثم ليس لنا ما يثبت جريمتهم واعتداءهم

— ماذا سمعت عنهم بعد مرور الحادثة ؟

— لم يتأثروا وظلت جريمتهم تحت ستار الخفاء . وقد سمعت أن رئيسهم سيقترن

بكاترين في شهر يونيو المقبل . لقد ألحقوا ضرراً عظيما بأخي وسببوا وفاة والدتي فأنا على أثرهم لأعاقبهم على مااقترفت يداهم. هذا أيها العزيز مايحملني على الرفض

وقبل أن ينصرف جون قال لتوماس : اداً بليز يقيم في فلين ؟

— وهي بقرب شانتلي وعلى بعد فرسخين من سانلي

— هل هو راض بمعيشته ؟

— بدون شك لأن معيشة القرى لاتحتاج إلى الكثير من المال

— أودعك الآن

— الوداع ياعزيزي . . .

— متى أراك ؟

— لا أعلم

عندئذ ارتعدت فرائص جون لكنه أخفى تأثره . ثم صافحه وذهب في سبيله وعند الظهر وصل الى سونلي وكان الأب تونيايه في مزرعتـه جالسا على مقعد فقام متوكئاً على عصاه وذهب لمقابلة صهره وقال له معتذراً : لم أذهب لزيارتك لأني كنت مريضاً . . . .

— بلغ إليّ ذلك

— وزيز لمَ لم تأت معك ؟

— إنها تعتني بالأطفال كما تعلم . .

— انتظر هنا قليلا ريثما تبسط المائدة . لم تخبرني عن سبب بيع المزرعة؟ فهي حديث القوم اليوم ... ماذا حملك على بيعها ؟

— المعيشة في باريز

— الذي أراه وأسمعه أن باريس مدينة الاقتصاد

وفي نفس هذا المساء ذهب جون إلى محطة الشمال وركب في أول قطار إلى شانتلي وبدأ عند بزوغ الفجر يبحث عن منزل بليز المسكين . ولم تأت الخامسة صباحاً حتى قابل جون متنزهاً فسأله قائلا : هل تعلم الطريق المؤدي إلى فلين ؟

— أغريب أنت ؟

— أنا من باريس

— كيف تأت إلى هنا بدون دليل يرشدك لأن الغابات هنا كثيرة. سارافقك

إلى القرية المذكورة ... وماذا تبتغي فيها ؟
— أرغب مشاهدة صديق فيها يحترف قطع الأخشاب
— هل أنت من نيفر فإني على معرفة تامة بهذه البلاد ؟
— لعلك نشأت منها ؟
— إني أمتلك قطعة منها ؟
— أتسمح لي بالسؤال عن الجهة التي تمتلكها ؟
— في ضواحي بوسي وهو قصر تركته على أثر نكبة أصابتني فزهدت بالدنيا وكرهت الحياة ...

فتذكر جون الحادثة التي أشار إليها الرجل وقد قرأها في إحدى أعمدة الجرائد بأحرف كبيرة وهذا تحرير خبرها

مبارزة غريبة

فاجأ الكونت دى بوسي لابريل زوجته البارعة في الجمال مع ضابط حسن البزة وهو يغازلها ويخاطبها بأقوال شائنة فاعترض بينهما ودعا الضابط إلى مبارزته وكان ذلك في يوم صفا أديمه . وحضر إذ ذاك عشرة من الشهود فقام الكونت إلى مبارزة خصمه وكان ماهراً في ضرب الحسام فانطلق كالباشق على فريسته وضربه ضربة قاضية فخرج السيف يلمع من بين جنبيه وقضى الضابط نحبه ضحية الحب

(شاهد)

وتذكر فقرة قرأها في جريدة أخرى بعد مرور شهرين وهي بنصها :

انتحار غريب

نذكر القراء بالحادثة التي مرت عليهم في يوم . . . . وذكر المبارزة التي دارت رحاها بين الكونت دى بوسي والضابط . . . . . (رحمه الله)

ونأتي الآن على ذكر نبأ انتحار غريب وهو :

أثر في زوجة الكونت موت عشيقها وزهدت بالدنيا واعتزلت العالم إلى دير. ولكنها بعد شهر ونصف من إقامتها في الدير بعثت إلى زوجها تطلب الصفح فلم

يقبل فألحت في الأمر فرفض فتجرعت كمية من المورفين تجرعت معها غصص المنون ؟

حوادث محلية

كان جون يعلم جيداً قصر بوسي الفخم وقد أصبح الآن قفراً وانتشرت في حدائقه النباتات البرية

سببت هذه الحادثة المؤلمة انقلابا عظيما في حياة الكونت كما أن حادثة جون أعمت بصيرته

استولى السكون عليهما في سيرهما حتى وصلا إلى غابة شانتلي . فتوقف الكونت وقال : سأفترق عنك عند منعطف هذا الطريق وأنت تذهب من هذه الجهة تواً إلى فلين . . .

فقال جون : شكراً لك ياعزيزي الكونت وأتمنى لك راحة وطمأنينة

فانذهل الكونت وقال : كيف عرفت اسمي ؟

— أعتقد أنه كان لي الشرف من قبل بمقابلة الكونت بوسي السعيد

— بل قل ذلك الرجل التعس البائس . . .

ثم أسرع الخطى ليخفي مبلغ تأثره وترك جون ردون سائراً

في الساعة السابعة صباحاً وصل جون إلى فلين فأبصر بليز يخرج من منزله ومعه أدوات القطع فصاح فيه قائلا : بليز

فالتفت الرجل وقال منذهلا : كيف هذا ؟ أهنا أنت ياجون ؟

— جئت لزيارتك . . .

وكانت زوجة بليز تغسل ملابسها في حوض ماء قريب فتحادث الرجلان ردحاً من الزمن . ثم دخلت زوجة بليز فحاذر جون من تتمة الحديث لئلا تسمعه فقال له بليز :

— أتم حديثك. فانها لا تفقه الفرنسية جيداً

— يجب ألاّ يكون في العالم سواك يعلم بمنشأ وسر هذه الطفلة ؟ (يعني الطفلة ريموند التي ليستمنه)

— حسناً

— والمراسلة تكون باسم مستعار يحفظ في شباك البريد

— فليكن أمرك مطاعاً

— سأترك لك مئتي ألف فرنك

— إن المبلغ كبير جداً . . .

— أرغب أن تعتني بها كثيراً . . . هل فهمت ؟

— كن مطمئناً

— سأوافيك ببقية المعلومات عند ما استقر في أي بلدة

— حسناً

— لقد تقرر كل شيء في هذه الورقة ولا ينبغي أن يعلم بها أحد غيرك . وليكن أمرها مكتوماً حتى عن زوجتك

— سمعاً وطاعة

— الوداع الآن . ستجدني قبل الخامسة مساء في محطة الشمال

— سأكون في انتظارك هناك

ثم افترقا فسار جون في طريق شانتلي مخترقاً الغابة الشاسعة حتى وصل إلى المحطة فركب القطار السريع إلى باريس

وفي الساعة الحادية عشرة قدم حوالة (تشاكا) إلى مصرف فرنسا وقبض مائة ألف فرنك وهي كل ثروته الحالية . فذهب إلى مخازن اللوفر واشترى ملابس لطفلتيه أرسل إحداها إلى بليز والأخرى إلى جس رون (اسمه المستعار) وفي الساعة الثالثة كان جون قد استتم كل معدات الرحيل فقصد إلى منزله في شارع سان سيمون

وكانت عربة تنتظره خارجاً فتنفس الصعداء ودخل إلى منزله

الفصل العاشر

المفاجأة

كانت السكينة باسطة أجنحتها على المنزل . لأن الطفلتين قد ذهبتا مع الخادمة إلى النزهة كالمعتاد

فاقترب جون من غرفة زوجته ماشياً على أطراف أصابعه كي لا يسبب ازعاجها وكانت وقتئذ جالسة بقرب مكتبها تكتب رسالة وأخذت غلافاً وأرادت أن تكتب

عنوان المرسل إليه ففاجأها زوجها بغتة فقامت مذعورة وبأسرع من لمح البصر قبضت على الرسالة بشدة واقتربت من النافذة ثم أدارت وجهها نحو زوجها فتواجها وشخصت الأعين . وكانت عينا الزوجة ممزوجتين بالرعب وعينا الزوج بالاحتقار والأسف دون الحقد

لأن الجمال لا يحقد عليه

هدأ روع تريز بعد برهة ساد فيها السكون وثبت الزوج واقفاً كالتمثال الصامت فبادرته بقول يمازجه الألم : كيف تعود إلى باريس من غير أن تنبئني بقدومك؟..

— لا تلوميني يا حبيبتي وقد فرغت من عملي كله وأتيت في أول قطار وها قد وصلت فوجدت الأبواب مفتوحة فلم أحدث أي حركة لعلمي بخلو المكان... لقد سببت لك انزعاجاً أليس كذلك ؟

وكأن العناية الالهية قد حفظت في وجه ذلك الوحش البشري علائم الهدو مما طمأن فؤاد الزوجة فقالت : لقد زال الخوف والحمد لله

— لم يكن ما فعلته عمداً

تغاضى جون عن الرسالة التي أخفتها زوجته في يدها وقال بعد سكوت طويل : لا بد أنك توهمت لصاً باغتك

— وتوهمت أيضاً أنه سيجهز علي ...

— وصلت إلى سوفاجير متأخراً

— أظن أنها صالحة للاقامة فيها ؟

-- نعم ولا سيما في هذا الفصل

— ومزارعوها ؟

— رحبوا بي وقلوبهم ملأى من العواطف الحقة

— وأبي ؟

— يتمتع بصحة جيدة رغم آلامه التي يعانيها . وقد تناولنا الطعام معاً في المزرعة وأظهر تأثره لدى علمه ببيع المزرعة

— هل وجدت شارياً للمزرعه ؟

— نعم

— من هو يا ترى ؟

— صاحب المعامل الحريرية في ليون الذي تكلم عنه بوشين من عهد قريب وهو يرغب في شراء المزرعة بأغلى ثمن وقد رضخت إجابة لطلبك لأننا لن نعود إلى سوفاجير مرة أخرى

— لقد قضي الامر إذاً ؟ ؟ ؟

— نعم

— ألم تأسف على ذلك ؟

— أسفت ولكن أسفي زال برؤيتك . . .

— هل أنت تضحي بكل ذلك من أجلي ؟

— نعم لكي أشتري لك فيلا في تروفيل مثلا . . .

— أنت طيب القلب ...

— هنالك تنالين حريتك التامة ...

— لماذا تعرض بالحرية هل شكوت لك أمر حريتي

— لاأعلم ... أمر بسيط ... لاسيما والتنزه بين الأشجار والخضرة ميسور لامرأة جميلة مثلك فتصحب معها أطفالها ... وإذا كان في الخفاء مداعبة العشاق ...

— مداعبة عشاق ... أفصح في قولك . فانك ترعبني ...

— إلى متى تمكرين

— ماذا تعني ؟ والى م تشير

— لمن كنت تكتبين حين دخولي ؟

— لم أكن أتوقع منك سؤالا كهذا ؟

— لقد كنت أعتقد فيك شخصاً آخر فلاأتوقع منك تجافياً كهذا كأني غريب عنك ... هل فهمت الآن ؟

— ألست مخيرة أن أكتب لمن أشاء ؟ . . . ألم أطعك طاعة عمياء منذ اقترنت بي ؟ . .

— لقد أشبعتيني أباطيل وترهات

— ويلاه ! لقد ضاعت ثقتك بي . . . لم تعد الاقامة معك لتطيب

— سأفترق عنك في أقرب وقت . إنما لا بد في مثل هذه المدن الراقية من براهين ثابتة تؤيد خيانتك لي . . . أريني هذه الرسالة

— لاتلح عليّ في أخذها وإلا تنتهي كل صلة بيننا

عندئذ اقترب جون من زوجته ووضع يده على كاهلها وقال بحدة : هاتي الرسالة . . . حالا . . .

ولما لم تصدع بأمره قبض على ذراعها بعنف . فعلمت أن لافائدة من مقاومته ورمت بالرسالة على السجاد وقالت بازدراء : انك تغتصب مني الرسالة اغتصابا فهذا جبن

ثم استلقت على فوتيل وفقدت صوابها من فرط الانزعاج . فانحنى جون وأخذ الرسالة وقرأ ما فيها بصوت عال :

حبيبي العزيز

لقد فكرت في الأمر منذ تقابلنا أخيراً وألفيت نفسي غير قادرة على مغادرة طفلتي الأخرى التي هي فلذة كبدي . لأن الوالدة التي تترك إبنتها حديثة السن لا تعد والدة . . .

أحبك بل أعبدك

أحبك ولا أعبد سواك والنتيجة خير دليل

أحبك فوق نفسي وإرادتي وحواسي حتى فوق الحياة والشرف بل فوق طفلتي . ونبضات فؤادي متوقفة على وجودك بقربي فاذا افترقت عني توقفت حركتها . أهبك نفسي وفؤادي وعقلي وجسمي وكل ما أمتلكه رهن اشارتك ياحبيبي لنلقي نظرة إلى المستقبل فاني أخشى خفاياه . . .

وفي الختام تأكد أن ريموند التي تزداد جمالا من يوم لآخر قد أذكرتني بالليلة التي تقابلنا معاً وكنت أقبل ثغرك الشهي فاذا عانقتها تخيل لي أني أعانقك وأقبلك ايها الحبيب و . . . . . ؟

المفتونة بجمالك

تريز

أفاقت تريز وكانت قد سمعت الجملة الأخيرة التي حذفناها مراعاة للأدب الشرقي فأخفت وجهها بين يديها من فرط الخجل والحياء . أما جون فجعل يضحك كأنه أصيب بنوبة جنون وسألها : ما إسم عشيقك ؟

— ليس لي عشيق

— أعني اسم الرجل الذي كتبت إليه الرسالة

— لا أريد أن تعلمه . . .

— أعني بالأحرى والد ريموند الطبيعي ؟ . . . أليس هو ريمون ؟

فحملقت في زوجها وقالت : لقد علمت الأمر قبل الآن ؟

— علمت كل شيء . ألم تقابليه في شارع باك في النزل المعد لاجتماعكما ؟ وذلك يوم السبت في الساعة الثالثة بعد الظهر . . . لقد كنت هنالك وسمعت كل شيء . وكل كلمة تفوهت بها لم تزل منقوشة على صفحات صدري لقد كان يهواك نخذيه . . . ما اسمه ؟

— أقتلني فلا أبوح باسمه

— لم هذا العناد ؟ فلا بد أن أعلمه بعد حين . لأني لا أكترث بالرجل الذي أغواك . . .

— جون . أنك تمزق جوارحي . . .

— تكلمي إذا رغبت حميد العاقبة

— يدعى المركيز دي بورد

فأخذها جون من يدها وأجلسها على مقعد بقرب المكتب وقال لها بلهجة الآمر : أكتبي

— ماذا أكتب ؟

— الذي سأمليه عليك وهو : أشهد بأن سمو المركيز ريمون دى بورد هو عشيقي وقد مضى على ذلك عامان وهو بدون شك والد ريمون . وكان زوجي غائباً مدة ولادة الطفلة

تحريراً في باريس في ٢٣ يونيه سنة ١٨٧٦

كتبت تريز هذا الاقرار بيد مرتجفه . فقال لها جون : ضعي إمضائك الكريم فأطاعت وكتبت : تريز تونيليه زوجة جون ردون

— الآن الوداع . .

— إلى أين ؟

— إلى قرار التعساء

— متى أراك ؟

— لا أعلم

— وحدك

— لست على عزم أن . .

— والطفلتان ؟

— سآخذ طفلتي

— والأخرى ؟

— لا أعلم إلى أين آخذها . . .

— ستتركيني إذاً ؟

— أليس عشيقك كافياً . ألا تعلمين بأن ذكر غرامك هذا قد بلغ مسامع موظفي الوزارة فصار حديثهم دائماً عنك وعن عشيقك

— حقاً أني ارتكبت هفوة لا تغتفر . .

— ماذا يفيدني إقرارك أو توبتك ؟ الآن سأغادرك لأن باريس قد أفسدتك فأصبحت أنا الحائل امام مطامعك

فقامت تريز كأنها تمثلت شراً وهمت بالخروج فأوقفها جون قائلا : إلى أين ؟

— إلى حدائق التويلري لآخذ طفلتي قبل تنفيذ انتقامك

— وماذا تفعلين بعد ذلك ؟

— أدافع عنهما حتى الموت . . .

— هما لي ومن نسلي

— هما أيضاً من دمي . لن تأخذهما حتى أفارق هذه الحياة . . .

— بل أفعل رغماً عنك . . .

— أنك وحش ضار . . .

— إن الذي سأفعله إرواء لغلة انتقامي . . .

عندئذ دفع جون زوجته إلى داخل المنزل وخرج بعد أن أوصد الباب وراءه وانطلق بعربته إلى حدائق التويلري

لم تحن الساعة الرابعة ونصف حتى وقفت العربة أمام مدخل الحديقة المواجه لشارع كاستجليون وكانت الطفلتان تلعبان فأخذ جون من جيبه رسالة وأعطاها للخادمة قائلا : سلميها ليد أحد أصدقائي في سان أونوري بقرب الاليزه وانتظري منه رداً

— والطفلتان

— سأعتني بهما ريثما تعودين . . . .

فذهبت الخادمة وهي لاتدري ما يدور في خلده ولما عادت لم تجد جون فبحثت عن الطفلتين فلم تجدها فعادت إلى المنزل وطرقت الباب فلم يفتح ففتحته بعد الجهد وقصدت إلى غرفة سيدتها فوجدتها على أرض الغرفة تئن وقد أفاقت من إغمائها

في تلك اللحظة كان القطار السريع القائم من الهافر يقل جون دون مصحوبا بابنتيه

الفصل الحادى عشر

الفرار

ركب جون عربة ومعه طفلتاه فسارت بهم إلى محطة الشمال وقد عقد النية على عدم العودة إلى باريس ثانية واذا اضطر أن يعود إليها يجب أن يغير ملامحه حتى لا يعرفه أحد

وقفت العربة أمام المحطة فنزل جون وحده تاركا الطفلتين بعناية زوجة بليز وأخذ بليز على انفراد وقال له : يجب أن يبقى السر مكتوما ؟

— لاتخش بأساً فاني أحافظ عليه أكثر من محافظتي على حياتي

— لأني أخشى أن تعلم والدتها مقرها وتأتيك فتأخذها عنوة ؟ . .

— لا تخف

— سموها سوزان دائماً . . . هل تكفي النقود التي معك ؟

— تكفي أكثر من أربعة أعوام لأن معيشة القرى لا تستنفد كثيراً من النفقات.

— إذا احتجت مزيداً من المال أرسله اليك

ثم اقترب جون من العربة وسأل جان : هل تحبين شقيقتك يا جان ؟

فلم تجب إلا أنها قبضت على يد ريموند ولثمتها فشعر جون كأن سكيناً اخترق فؤاده فهو يسعى الآن بتفريق شقيقتين ليعذب زوجته ويؤنب العاشق على عمله.

ألم يفه المركيز بهذه العبارة : يجب أن آخذ هذه الطفلة (ريموند) التي هي من دمي. لقد عيل صبري بابتعادي عنها

جون ينتقم . . . ينتقم من الذين خدعوه . . . سيلقون جزاءهم شر ما يستحقون . . . جون لايترك ريموند لرحمة القضاء بل يضمها بعناية بليز الذي يعتني بها كابنة له حتى يحين الوقت للاجتماع بشقيقتها

جون لايريد لها الشقاء ولن يخبرها مطلقاً بسر ولادتها

مرت هذه التخيلات على جون دون أن ينثني عزمه فقال لجان : عانقي ريموند فانحنت نحوها وقبلتها مراراً وهي تذرف الدموع السخينة فأعطى جون الطفلة ريموند لزوجة بليز وركب العربة وقال للحوذي : إلى محطة سان لازار

هناك أسرع جون في ركوب القطار السريع لكنه ألقى نظرة أخيرة إلى جهة المنزل الذي في شارع سان سيمون وتمتم حزيناً : ألا أراها ثانية ؟

فكأنه بذلك ينسى الوصمة الشائنة التي ألصقتها به ويتمنى عودة الغرام ولياليه التي كان يقضيها مع معبودته تريز

ألم تخلد صورتها في فؤاده منذ أعوام مضت حتى رسخت في ذهنه ؟ ؟ ؟

في الساعة الحادية عشر و نصف كان جون يخطر مع ابنته على شاطىء البحر في ثغر الهافر

ركب جون سفينة الهافر بعد أن أودع حقائبه فيها وكانت جان لاتكف عن البكاء

ماذا يقول لهذه الطفلة الصغيرة وهي لاتدري شيئاً

بعد برهة من الزمان سمع صفيراً يؤذن باقلاع السفينة ثم ما لبثت أن مخرت عباب البحر قاصدة إلى الدنيا الجديدة فشعرت جان برعشة اعترت جميع أعصابها كأنها أحست بوحشة الفراق فقالت : أبتاه ! أين والدتي ؟ إني أريدها

فأجابها بصوت هادىء : تشجعي ياجان . . . لن تراها بعد الآن فقد توفاها الله

في صبيحة اليوم التالي كانت تريز جالسة على مقعد وقد أصابها ضعف شديد وهي تؤمل عودة زوجها أو أي نبأ يفيدها عن مركز إقامته . ولما طال انتظارها استعلمت إلى اليأس ثم انتبهت فجأة لدخول الخادمة ومعها إيصال بريدي لمراسلة

مسجلة وأمضت عليه وأخذت الرسالة وفتحتها فوجدت داخلها عشرة آلاف فرنك ورسالة قصيرة كتبها جون في بورس قبل مبارحته لها وهي :

تريز

لقد أحببتك حباً صادقا ولا زلت محافظاً على عهده الوثيق وهو السبب الذي حملني على الفرار والتغرب

اصطحب في رحلتي الطفلتين اللتين كانتا سبباً لسعادتك . ولكن لابد من أن تتألمي حتى يغفر الله هفوتك

كان يجب أن أحقد على إحدى الطفلتين ! ! !

لكن قلبي لم يخلق للحقد

إني ذاهب إلى عالم الراحة وخلو البال

إلى أي جهة ؟

من أجد هنالك ؟

الله (عز وجل) يعلم ما تكن صفحات القلوب

سأخبر طفلتيك أنك لست من سكان هذا العالم

الوداع إلى الأبد ياتريز

إني أحبك لأن الحب الحقيقي المغروس منذ الصبوبية لايزول بسهولة

حبيبك التعس

جون

بعد تلاوة هذه الرسالة صاحت تريز بصوت مرعب قائلة : جان . . . ريموند . . . طفلتاي . . . أينكما لأطوقكما بذراعي ؟ أنا البائسة التعسة . . .

ثم وهنت قواها وهوت إلى الأرض فاقدة الصواب

الفصل الثانى عشر

عاشق وخليلته

ساور اليأس تريز بعد رحيل زوجها واصابتها حمى متناوبة

وصرح دي بورد يقع بين الحدائق الواسعة في شارع بابلون وهو مبني

على طراز عصر لويس السادس عشر . ووالدة المركيز تبلغ الخمسين من العمر وهي تطلق لابنها حريته التامة

أما المركيز فيمتلك ثروة وافرة نالها بالوراثة من أبيه وعمة له توفيت قبل والده ببضعة أشهر . وهو طلق المحيا يوقر والدته ولا يخالف من أوامرها حرفاً واحداً وله قرابة بعيدة بالكونت بوسي . إنما الائتلاف بين العائلتين وثيق

ومن زوار الكونت في نسكه المركيز الذي يسعى في تسلية همومه بعد مصابه الأليم . وهو أصغر سناً من الكونت

بعد مرور يوم من مفارقة جون باريس كان المركيز عائداً من زيارة الكونت في منزله المنفرد ولدى وصوله الى صرحه أتاه الخادم برسالة تحتوي على هذه الكلمات : تعال فاني في وحدة

فوجم المركيز والتفت نحو خادمه مستفهماً وقال : متى جيء بهذه الرسالة؟

— في الساعة الثامنة

وكانت الساعة إذ ذاك حوالى الحادية عشر

— من جاء بها ؟

— خادمة شابة

— ألم تخبرك شيئاً ؟

— لا شيء يا سمو المركيز . إنما همست في أذني بضع كلمات

— أتعرف هذه الفتاة ؟

— جيداً

— متى تعرفت بها ؟

— كانت تعمل عند قاض وهي من نيفر بلادنا

— وهذا المصاب الذي تشير إليه ألم تخبرك عنه ؟

— كلا . وإنما أدركت أن زوج تريز قد هجرها يصحب طفلتيه . وقد أصابتها بعد ذلك نوبة عصبية شديدة . . .

فلم يتمهل المركيز دقيقة بل تدثر بردائه وأخذ عصاه وركب عربته فسارت به بمنتهى السرعة

لم يدر المركيز الحقيقة . وما السبب الذي أفضى إلى هذا النزاع بين جون وزوجته . . . ولماذا اصطحب الطفلتين اللتين لا تزالان في احتياج إلى عناية والدتهما ؟ وكيف تكون نتيجة هذا التصرف الغريب ؟ لا تزال الحقيقة أمام بصره تامة الغموض

ثم مد لويس (خادم المركيز) يده إلى آنية السيكار وأخذ سيكاراً وأشعله ثم تمتم في نفسه : هوذا السبب الذي جعل جون حزيناً مكتئباً منذ بضعة أيام

وصلت العربة إلى منزل جون فسأل المركيز البواب عن مكان إقامة تريز فأجاب :« في الطبقة الثالثة إلى اليمين» فصعد في سلم المنزل وطرق بابه ففتحت له الخادمة وملامحها تدل على الاضطراب والقلق فسألته قائلة : سعادة المركيز دي بورد ؟

— أنا هو

— أدخل فان سيدتي تنتظرك بفارغ الصبر

كانت تريز جالسة على مقعد بقرب النافذة تسترق خطوات المارة عسى أن ترى زوجها عائداً وقد زاده تبكيت الضمير حزناً على ألمه

انكبت تريز على عنق عشيقها وطوقته بذراعيها وتمتمت بقلب حزين : لقد علم كل شيء واصطحب الطفلتين معه . . . .

فأعطته رسالة زوجها وبعد تلاوتها جثا أمامها وقال بصوت عذب : لا فائدة من البكاء . قصي عليّ ما حدث

ولما لم تجبه طوقها بذراعيه وقال : إذا هجرك هو فأنا لاأزال لديك في كل حين . فقصت عليه ما حدث وما قاله لها زوجها من الكلام الجارح وأن لا وسيلة لاقتفاء أثره

لا وسيلة لاقامة المشاكل مع رجل أصبح غير منظور وقد هاجر إلى بلاد بعيدة فتاه بين طبقات البشر التي لاتحصى

* * *

مضي على هذا الحادث المؤلم خمسة عشر يوماً أصبحت تريز بعدها هزيلة

الجسم من جراء اليأس . وقد أظهر لها المركيز أخلص المودة والصداقة والهيام فكان لا يفارقها ليل نهار

وفي مساء يوم قالت تريز لعشيقها بلهجة المتوسل : رجائي أن تأخذني معك

— إلى أين ؟

— حينما تشاء . لا أريد الاقامة في هذا المكان

— لقد فكرت في ذلك الأمر من قبل . فهيا بنا . . .

فاستجمعت تريز قواها وركبت العربة مع المركيز إلى شارع باك

وكان في المنزل ذي الحديقة الغناء خادمة عاملة تهتم بشؤون المطبخ . أما خادمة تريز فتقوم بخدمتها أيضاً كي تتم راحتها وهناءها

بعد هنيهة قال المركيز : أنت هنا في منزلك فاذا لم تطب لك الاقامة فيه فلنذهب إلى مكان آخر

— سأكون مسرورة إذا أحببتني

فضمها المركيز إلى صدره وقال بحنو : إلى الأبد . إني أعبدك وأهواك ما دمت حياً . . . .

الفصل الثالث عشر

إنتقام الأنذال

ان غابات المورفان كما هو معلوم من أوسع البلاد الفرنسية فانها تحفظ رونق الوحدة بين أشجارها الباسقة التي تمتد إلى مسافات شاسعة . والانسان إذا تجوز في داخلها لابد أن يتوه لأنه لا يجد أمامه غير الآكام الجبلية والهضاب القليلة الارتفاع المرقطة بالصخور السوداء والمخططة بالطرق الوعرة والمجاري السريعة التي تتدفق أحياناً بسيول جارفة وقد نهضت فيها بضع أبراج مهجورة أناخ عليها الدهر بكلكله فباتت مأوى الزحافات السامة والطيور الجارحة والغربان الناعبة

ووصف أهلها بالعناد وإصالة الرأي وتصلبه والشجاعة وشراسة الخلق
أما توماس رفين فقد جمع بين الصفات الحسنة والمستهجنة . فهو جبار وقنوع وشجاع لا يذلل جدير بالاعمال الشاقة ومخلص لاصدقائه يحقد على من سبب له أي شقاء

كان حقده على رئيس الحراس أعظم بكثير من حقده على بقية الحراس كما أن ولعه بالصيد كان أعظم من حبه لكاترين (خليلته)

وزادت الضغائن بينه وبين الحراس لأن الرئيس المنوه عنه سيقترن بحبيبته آجلا أو عاجلا . فاستولت عليه الغيرة وإن تكن ليست من أمهات طبعه كحب التشبع بأخذ الثار

ألم يقل ذلك السافل بعد أن انقض على بابز وألقاه صريعاً : لقد أراحنا هذا الرجل من سيئاته

— لقد أخطأ لأن لهذا الرجل أماً ودوداً آتياً لنجدته ولو حالت بينهما السبل الصعاب

لقد حان الوقت بل قد أذنت الساعة الرهيبة ليسفك دماً . . .

* * *

قيد توماس إلى السجن وهو ساكن الجأش وقد قال بعد هنيهة رداً على أسئلة القضاة : لن أبوح بشيء . . عليكم بأدلة قاطعة تثبت جريمتي

إن أحد الحراس الثلاثة قال وهو يلفظ الروح للذين كانوا يحتنون به مشيراً الى قاتله : إن قاتلي هو توماس رفين

بعد دخول المتهم إلى قاعة المحكمة في نيفر حدث أمر لم يكن بالحسبان وهو أن توماس رحل واتجه نحو مقعده . وبينما كان يخترق صفوف الجمهور اقترب منه رجل في الثلاثين من العمر ووضع في يده شيئاً لم ينظره حراس المتهم

قام للمدافعة عن هذا المجرم الشهير المتهم بثلاث جرائم قتل محام وقد وثق بنجاح مهمته

وبين الشهود شابة مرتدية بملابس الحداد ذات شعر أشقر قالت : لم أر شيئاً ولا أجزم بأنه هو القاتل

ولما ترددت الأسئلة على المتهم أجاب : من السهل أن يلقى على المرء عبء جريمة ولا سيما من شخص يبغضه . لا أدافع عن نفسي إلا إذا ثبت جلياً صحة ما يزعمون

عندئذ سأله الرئيس : هل لديك ما تدافع به أيها المتهم ؟

فنهض توماس بالرغم من إلحاح المحامي (الذي خشي أن تصدر من المتهم كلمة تفسد بهاخطته وتعود عليه بسوء العاقبة) وقال بكل جرأة : إن سكوتي لايفيدكم بل يزيدغموض القضية . لكن لابد أن تعلموا الحقيقة . أنا هو قاتل الحراس الثلاثة في غابات شفان . . .

ثم توقف قليلا كأنه يلتمس الراحة فتطاولت الأعناق لسماع بقية إقراره الهائل . فتابع توماس حديثه بثبات جأش وقال : لقد أطلقت عيارين ناريين على حارسين فأصبتهما وخنقت الثالث

فهمس المحامي في أذن القاتل قائلا : إنك ساع إلى حتفك بظلفك فتابع توماس كلامه : لن أخشى إن قلت أن عملي هذا لايعد جريمة بل هو عدل . أنتم تعلمون أن بليز لم يحمل سلاحا قط . وكثيراً ما كان يقبض عليه بريئاً ويقضي أشهراً في السجن من غير ذنب . ففي ليلة ما حين كان منفرداً انقض عليه الحراس الثلاثة (رحمهم الله) فجأةوأثخنوه بالجراح بل تركوه بين حي وميت مع اعتقادهم بموته . فبحثت عنهواحتملته أنا على عربة اكتريتها من جوار قريتنا سارت بنا إلى الكوخ . هناك أخذت والدي المسكينة تعتني به وقد يئسنا من شفائه . فأقسمت أن أنتقم لأخي وبعد مدة تحسنت صحته ولما شفي تماماً هجر البلاد ناسياًماحل بهولم يسع لينتقم أمام المحاكم إذ ليس لديه أدلة قاطعة تؤيد ما قد حدث له في الغابة ولا سيما أن لصاحب المزرعة اليد الطولى لدى المحاكم

بينما كان الحراس الثلاثة في حانة « الديك العامل » وقد ثملوا من فرط الشرب اذ قام رئيسهم وقال : فلنشرب نخب انتصارنا على ذلك النذل بليز رفين اللص . عليه أن يتوقى لنفسه حين مباغتة أعدائه له

فعلمت أنهم الجانون وتهيجت في نفسي عوامل الغضب ومع ذلك تمالكت طبعي فلم أتسرع بل انتظرت . . .

عظم حزن والدتي المسكينة في تلك المدة وانتقلت الى رحمة ربها . فأصبحت طليقاً . وفكرت في الانتقام . وما كان أحلاه . . . .

ففي ليلة ليلاء كنت في المكان الذي تعمدوا فيه الفتك بأخي وكان في بندقيتي عياران فأطلقتهما على اثنين من الحراس فصرعتهما وأراد الثالث أن يهرب فتمكنت من اللحاق به وقلت له : هنا ياشقي فتكتم بأخي

ثم خنقته ولم أتركه حتى تأكدت موته

عند ذلك كان توماس يلهث من شدة التأثر ثم تابع حديثه الى أن ختمه بهذه العبارة : هذه هي الحقيقة والآن أضع بين يديكم أمري فتقضون بما تشاؤن

بعد برهة انفض المجلس وذهب القضاة للمداولة بشأن هذه القضية التي انكشفت غوامضها . ثم عادوا وقال القاضي بصوت أجش : لاسبيل إلى الدفاع فقد ثبت عليك جرمك بأغلبية الأصوات . . . .

فتبسم توماس تبسم القنوط وقال : أحكموا بما يتراءى لكم فاني راض لكن اعلموا إني لم أنتقم إلا لأخي الذي لولا عنايتي به لمات ثم والدتي المسكينة التي . . . .

وهنا لم يتمكن من ضبط عواطفه فاجهش بالبكاء حتى جعل جميع الحاضرين يثبتون في مكانهم كأن على رؤوسهم الطير وقد تملكت في أفئدتهم روح الرحمة

عندئذ قرأ الرئيس الحكم بالاشغال الشاقة المؤبدة . فأحس توماس كأن صاعقة انقضت عليه فقال : أليس بكاف أن أعد مجرماً ؟ ؟

ثم أخرج من جيبه شيئاً لم يتبينه أحد وبأسرع من لمح البصر أفرغ مافيه في صدغه فخر للحال مضرجاً بدمائه

لقد سعى المتهم إلى حتفه والرجل الذي دس المسدس في يده هو بليز أخوه وكيف ذلك ؟

ان المتهم طلب من أخيه قبل إلقاء القبض عليه مسدساً فلم يسمه سوى

الاجابة وفيما كان المتهم يئن أنين الموت إقترب بليز منه وجثا لديه فأمسك رأسه وألقى عليه قبله الوداع إحتراماً لعمله المقدس . ثم افترق عنه دون أن يعير أحداً إلتفاتاً وعاد إلى منزله وقد تبدلت هيئته واعتراه صداع فجلس على مقعده واستسلم إلى تأملاته المخيفة

نشرت الجرائد ذكر حادثة شفان المريعة وذيلتها بحادثة انتحار المجرم الشهير توماس رفين فكان لها وقع في قلوب الناس ودوى خبرها في أنحاء البلدة

خلع بليز قبعته القديمة وذهب إلى قاعة الطعام وجلس مسنداً رأسه بقبضة يده وهو يصر بأسنانه حنقاً على القضاة . فسألته زوجته بلهجة عامية لا تكاد تفهم : ألم تجد شيئاً ؟

— لا شيء

— ينبغي أن نغادر هذا المكان

— إلى أين ؟

— إلى بريطانيا

— لنموت جوعاً ؟

— أفضل الموت جوعاً على الاقامة في هذه البلاد . . .

— فلنعد إذاً إلى مسكن أخي توماس ؟ . .

عندئذ قام بليز من مقعده وعانق امرأته وقال : إن وجودك يزيدني سعادة ولولاك لما أقمت برهة في المنزل . ثم التفت نحو الطفلة النائمة وقال : كيف صحتها ؟

— مثل عصفور في الجنة الرحبة

— لقد تعودت معيشة القرى

فقال بليز في نفسه : إني أخشى ألا تكون سعيدة المستقبل

فقالت الزوجة : ذهبت اليوم إلى الفسقية فقابلني هرمان (الحارس) وقال : هذه المرأة تعيش مع لص مجرم . . .

— يا له من سفيه وماذا قال أيضاً ؟

— قال : يخال لي أنها ستترمل مرة أخرى . . .

— قد يصح كلامه لأن الانسان زائل وإذا قضت الحكمة الربانية فلا بأس . . .

ثم فتح الباب بشدة وكانت العاصفة قد بدأت تهب فقال : بعد ساعة تدلهم السماء

فقالت الزوجة : هل تخرج الليلة ؟

— أنت تعلمين أنه قد مضي علينا زهاء شهر ونحن لا نأكل من لحم الطيور

— لكني أخشي عليك من مباغتة ذلك الألماني

— لا تتوهمي فاني أدافع عن نفسي . . .

— وإذا فتكوا بك ؟

— تعودين إلى بلادك وتنفقين من مال هذه الطفلة للعناية بها

— لنسافر كلانا إلى بريطانيا ولنصحب الطفلة معنا لان بالي لا يطمئن عليك مادمنا هنا

— أنا لا أعارضك في رأيك لأني أيضاً قد تضايقت من سكني هذه البلاد

— أتعدني إذاً ؟

— نعم

— وألا تعرض نفسك للأخطار ؟

— إطمئني بالاً

فتح بليز الباب وخرج فجلست زوجته تفكر في قول ذلك الألماني وتهديده فاستولى عليها القلق فقامت إلى الموقد فلم تجد فيه ناراً فعادت إلى فراشها وحاولت أن تنام فلم تتمكن فقامت وقالت معللة نفسها : لعله يعود . . .

ثم انتظرت طويلا وتحول صبرها إلي جزع شديد

بزغ الفجر ولم يأت بليز فقامت زوجته وفتحت الباب وألقت نظرة إلى المنازل المجاورة فلم تجد بليز بين العمال الذاهبين إلي الغابة لقطع الأخشاب فذعرت وحسبت لغيابه ألف حساب

وكأن نداء الطفلة قد أشغلها عن زوجها فأتتها وألبستها ثيابها العادية ودعتها سوزان وهي تبلغ عامين تقريباً

أرخى الليل سدوله ولم يعد بليز إلى مأواه . . . .

في صبيحة اليوم التالي ذهبت المرأة إلى المغسل كعادتها فسمعت امرأة تقول لجارتها : أنظري إلى مدام رفين فانها آتية . . . .

فاقتربت عمداً من التي ذكرت إسمها فسمعتها تقول : لماذا لم نر زوجها منذ يومين ؟

فرفعت رأسها وقالت لها : هل سمعت عنه شيئاً ياعزيزتي ؟

— سمعت أنه وجد في فلتومب رجل راقد على الاعشاب

— مائت ؟

— لا أؤكد القول ويقال أنه أصيب بطلق ناري في جسمه

فصاحت زوجة بليز واجفة : ويل لهم من أشقياء . . . لقد فتكوا به وعادت إلى منزلها وهي تولول وطار فؤادها من عظم المصاب

الفصل الرابع عشر

الرحيل

كان بليز هو القتيل ملقى على ظهره وقد أصابته الرصاصة في بطنه فبقرته وكان مشعاله منطفئا وإلى جانبه طريدة من الأرانب البرية

أسرعت الزوجة التعسة إلى «كروا دي بوج» وتركت الطفلة لعناية إحدى جاراتها . فلما وصلت وجدت حوذيا منتظراً بعربته تحت الاشجار الباسقة المجردة من الأوراق فذهبت إليه وقالت وهي تلهث : أين ؟

فلما رأى الحوذي وجه المرأة الشاحب علم أنها زوجة القتيل فبادرها مستفهماً : أأنت زوجته ؟

فأجابته باشارة رأسها لأن صوتها خفت لشدة التأثر فأشار إلى ناحية قريبة على بعد خمس وعشرين خطوة وقال : لايبعد أن الجاني أطلق رصاصه من هذه الجهة

فعدت نحو الأكمة التي جرت عليها الحادثة فسمعت لغطاً وضوضاء ولم تفهم منها شيئاً إلى أن تبينت صوت أحد رجال الشرطة يقول : ما رأيك ياهرمان ؟

— لاشك أن مشاجرة جرت بين القتيل وخصمه فدارت عليه الدائرة

— أفي هذا المكان أصيب ؟

— من المحتمل أن الجاني نقل قتيله من مكان الجناية إلى هنا دفعاً للشبهة وقد ساعدته المقادير لأن الليلة كانت ممطرة . . .

— ألم تسمع شيئاً عند إطلاق العيار ؟

— كلا فقد كانت العاصفة شديدة ؟

— لكن منزلك على مقربة من هذا المكان ؟

— وقد كنت وقتئذ نائماً

سمعت الأرملة هذا الحديث فوثبت نحو الجثة وجثت لديها وطوقتها بذراعيها وصاحت : مسكين ياحبيبي بليز . أردوك ونفثوا سمومهم في روحك الطاهرة

ثم التفتت نحو الالماني وصاحت في وجهه : مجرم . مجرم أنت . . .

وأشارت إليه بيدها وقالت للشرطي بحدة : أقسم لك أنه . . .

فشعر الحارس برعدة زلزلت حواسه لكنه تملك روعه وقال : هذه المرأة قد أختل شعورها . . . ما الفائدة من الفتك بصعلوك ؟ إذ لو فاجأته يرتكب جريمة لقبضت عليه وسلمته ليد العدالة لينال العقاب الذي يستحقه

هجم الليل بجيوشه الجرارة ولم يعثر الشرطة على الجاني

نقلت جثته على لوح من الخشب إلى منزله وتبعه جمع غفير من رجال الحي

وبعد ظهر ذلك اليوم شيعت جنازته فسارت زوجته وراء نعشه حتى المقبرة . وهنالك وضعت صليباً صغيراً وبعض الزهور وبكت بكاء يتفتت له الجلمود حزناً وأسًى على تلك المخلوقة التعسة

باعت كل ما لديها من أثاث وغيره وتركت منزلها ومضت بالطفلة سوزان الي محطة فلين وابتاعت تذكرة للدرجة الثالثة وركبت القطار الى محطة أوزي

فبلغت اليها بعد ثماني عشرة ساعة وركبت والطفلة على ذراعيها عربة سارت بها الى قريتها ومهبط آبائها تدعى « لندفن »

ولندفن هذه من أحقر قرى بريطانيا ويندر وجود الفنادق فيها فدخلت هذه المرأة الحزينة الى كوخ هناك فوجدت فيه ستة صيادين فسألها صاحب الكوخ : ماذا ترغبين

— غرفة يا أبتاه

فاندهل لوجز (الشيخ صاحب الكوخ) فقد عرف صاحبة الصوت وقال : أنت هنا يا أيفون ؟ ؟ ؟

— نعم

— أيفون تريفن ؟

— انا هي

وتقدمت لمعانقته فقال لها : ماسبب مجيئك إلى بريطانيا ؟

وكانت ملابس الحداد تنبئه ماحدث لها فسألها قائلا : هل هذه طفلتك ؟

فأجابت كما أوصاها زوجها المسكين : نعم

وقصت إيفون على لوجز الحوادث التي مرت على القراء

وانصرف الصيادون الواحد بعد الآخر وهم يحيون إيفون فقالت هذه للشيخ : هل سيدتي (تعني زوجته) في صحة جيدة ؟

— على ما يرام

وكانت السيدة المذكورة طاعنة في السن وهي أرملة أحد ضباط البحرية تقيم في قصر قديم هو عبارة عن آثار بالية تلاعبت بها أيدي الدهر ويسمى قصر كردانيل

ولمدام كردانيل (السيدة الآنف ذكرها) ابن حديث السن أدخلته في كلية كبير وخادم يقوم بزراعة الحقل وخادمة تهتم بشؤون المنزل وكانت تعتني كثيراً بالفقراء وتعطيهم ما يقيهم شر الطقس وتروي غلتهم فبالحقيقة كانت تبذل عليهم أكثر مما كانت تعتني بنفسها

جلست إيفون مستندة إلى الخوان وأتت الخادمة فقامت وجلست على

مقعد تجاه لوجز فقال لها : لابد ياإيفون أنك معتادة تناول الطعام البسيط كما كنت في طفولتك . . . . أتذكرين اليوم الذي توفيت فيه والدتك ؟

— نعم

— هل تعلمين يا أيفون أنك أصبحت جميلة ؟

ثقلت أجفان سوزان فأغمضت جفنيها مسندة رأسها إلى الخوان فقال لوجز لشاب كان واقفاً : احتمل يايوسف هذه الطفلة إلى فراشها

فأجابت ايفون مترددة : بل سأحملها بنفسي

بعد ذهاب ايفون بالطفلة استولى على لوجز بعض الارتياب عن صحة ما قالته هذه المرأة . . . .

من أين أتت هذه الطفلة ؟

ايفون تزوجت منذ عامين والطفلة أكبر من ذلك كما إن مظاهرها تدل على نبالة الأصل ونعومة بشرتها تدل على أنها نشأت في قصور الاغنياء . . .

عادت أيفون فسألها لوجز : هل وجدت مسكناً ؟

— كلا

— لي منزل في هذا الجوار محاط بحديقة صغيرة

— كم أجرنه ؟

— ثلاثون فرنكا في السنة

— حسناً

— غداً نذهب معاً فنراه . . لا تخفي عليّ أمر هذه الطفلة فقد رابني وجودها معك

وكانت إيفون تعلم أن لوجز أشتهر بالأمانة وهو يبيع الزجاج تحت رقابة مجلس البلدية فما خشيت أن تخبره بجميع ما حدث لها من مجيء جون فانتحار توماس فقتل زوجها

وفي صباح اليوم التالي ذهبا لمعاينة المنزل المذكور وهو بناء منخفض يشتمل على حجرتين مؤسس على أسفل صخرة . فكأن القضاء قد حكم على أبنة تريز أن تعيش في أحقر قرى فرنسا

الفصل الخامس عشر

ثلاث رسائل خطيرة

الاولى : رسالة جون إلى صديقه الدكتور ربول في ملي — نيفر :

عزيزي فابين

لاأعتقد بالرغم من البون الشاسع بيننا أنك نسيت الأيام اللذيذة التي قضيناها سوية في كلية نيفر ولا شك أنك علمت ماحل بي من المصائب

أريد أن أكلفك بمهمة لايمكنني القيام بها لضيق يدي ولا بد أن أقص عليك حالي ومآلي ثم أعود فأعرض عليك المهمة :

أبحرت مع ابنتي الكبيرة إلى نيويورك لكي أجد عملا أرتزق منه وأنتفع ببعض الدريهمات التي كانت معي . وكنت منذ خمسة أعوام مضت قد تعلمت الانجليزية فسهل علي أمر المعيشة وكانت جان (إبنتي) لاتنفك عن البكاء وعن سؤالي عن سبب تركي والدتها فكنت أجيبها والشرر يتطاير من عيني : لقد توفيت رحمها الله

ألم تمت حقيقة ؟ . . ميتة أدبية ؟ . . .

وعند الصباح ارتدت ثوب الحداد فزاد احمرار عينيها في جمالها فقالت : أبتاه : إلى أين نحن ذاهبون ؟

فأجبتها وقد تملكت بي عاطفة قوية : إلى حيث نسلوها . . .

وكان على ظهر الباخرة التي أبحرت بنا رجل واقف مسند يده إلى جدار وقد أخذ يحملق بالمسافرين ثم ألتفت نحونا وقال منذهلا : لي الشرف بالتعرف بأحد مواطني

— وأنا أيضاً كنت أفكر في هذا الأمر

— أنا من طرف نورمانديا من قرية برش

— وأنا من وسطها أي من نيفر

— إنها بلاد جميلة وهواؤها صحي

— إنما أنا من جهة رديئة منها
— لعلك من جهة غابات المورفان ؟
— نعم . . . الى أين تقصد ؟
— الى نيويورك ومنها إلى بلدة بعيدة . . . هل هذه الطفلة إبنتك ؟
— نعم
— وأنت بدون شك ذاهب لمقابلة بعض الأقارب ؟
— ليس لي أقارب ولا أصدقاء في أمريكا

وكأنه قد أدرك بعض ما في ضميري فقال : تريد بسفرك أن تسلو ؟ . .

فأجبته : نعم . فقد كنت متزوجاً بامرأة جميلة ففقدتها واأسفاه ! على أني لن أعود الى فرنسا ما لم يخط الشيب لحيتي

كان الرجل شاباً يبلغ الثلاثين من العمر ذا لحية شقراء ومحيا أثرت به محن الأيام وطوارىء الحدثان فقال : لا وسيلة للاثراء في أمريكا بغير رأس مال فكم يبلغ رأس مالك ؟

— مائة ألف فرنك تقريبا
— هل تربيت في الريف ؟
— تربيت فيه الى أن بلغت العشرين من عمري
— هل تحب ممارسة الزراعة وتربية المواشي والأغنام ؟
— نعم

لم يمض يومان حتى أصبحنا من أخلص الأصدقاء وهو يدعى الفيكونت برفيل وكان ذاهباً إلى أمريكا لاستعادة ثروته التي فقدها بطيشه

وللفيكونت هذا صديق في أمريكا يدعى البارون بيتل وهو ينتسب إلى سلالة رفيعة الشأن

لم نقم في نيويورك سوى يوم واحد . وفي صباح اليوم التالي ركبنا القطار إلى شيكاغو ثم سار بنا نحو ثماني ساعات الى حيث نقلنا أمنيبوس الى المدينة التي يقطن فيها صديق الفيكونت

وكان في انتظارنا شابان أدركت لأول وهلة أنهما أفرنسيان وأن أصغرهما سناً هو صديق الفيكونت أما رفيقه فمزارع

تعانق الفيكونت والبارون للصداقة القديمة الموطدة بينهما منذ الطفولة وقد تكون قرابة

شعرت كأن هذين الرجلين ينظران اليّ باندهال متسائلين عن سبب مجيئي الى هنا مع طفلة ؟ الا أن الفيكونت أخبرهما عن حقيقة حالي وقدمهما لي فتصافحنا. ومنزل صديقي يقع على بعد خمسة عشر ميلا من المحطة فأجتزنا سهلا فسيحاً ذا مرعى خصب للماشية

بعد مسير ثلاث ساعات طرقنا غابات الجبل الاسود

وصلنا عند المساء وكادت قواي تهن لولا مرافقتي للصديقين . وكانت طفلتي المسكينة قد أتعبها المشي فكانت تارة أحملها وتارة يحملها المزارع

وفي أثناء مناولة الطعام عرض عليّ البارون أمر الشراكة فرضيت وأصبحت بذلك مالكا لنصف مزرعة بايفل

ولم يبق لديّ الآن أيها الصديق الا أن أعرض عليك الغرض من كتابة هذه الرسالة المملة :

لقد علمت بلا شك أنه لم يبق لي غير طفلتي جان ولما كنت في فرنسا قصدت الى توماس رفين وعرضت عليه أن يصحبني فلم يقبل لضغينة شديدة بينه وبين أعدائه الذين فتكوا بأخيه ولولاه لذهب ضحية هؤلاء الحراس ...

فقصدت الى أخيه بلين وعهدت اليه بحراسة الطفلة ريموند وحمايتها مما يفاجئها من الأكدار ومعاملتها كابنة له فأشرت عليه أن يدعوها باسم سوزان وأن يخفي أمرها حتى عن امرأته . وقد أعطيته عنواني تحت اسم مستعار وهو : جمس برون بشباك البريد . نيويورك . كل ذلك لكي أفسد خطة زوجتي اذا أرادت أن تبحث عني . . .

تركت ريموند ولم أصطحبها لأنها طفلة صغيرة جداً لا تتحمل مشاق الأسفار ولم يكن بالي مطمئنا من جهتها فأنتظرت طويلا ولم أحظ برسالة منه

لا أفقه لهذا السكوت الطويل سبباً . . . هل أهمل المراسلة كعادة أهل القرى ؟ . . . أم هو لايحسن الكتابة ؟ ؟ ؟

اذا أمكنك القيام بخدمة لن أنساها لك أبد الدهر وهي أن تذهب الى باريس عند سنوح الفرص وتفيدني عن ريموند وعن بليز

تلوت معظم الجرائد التي تأتيني من فرنسا فاذا معظم أخبارها سياسية لاتفيد من مثلي يعاني ألم الذكرى القديمة التي لاتبرح مخيلته

اذا عدت يوماً فالى غابات المورفان حيث أقضي بقية أيامي بقربك فنجتمع معا كما أجتمعنا مدة الطفولة وقضينا أياما لذيذة

ألف شكر وتحية من صديقك التعس

جون ردون

نيويورك في ١٥ ابريل سنة ١٨٧٧

الثانية : رسالة من الدكتور ربول الي صديقه جون ردون :

عزيزي جون

استلمت رسالتك في ملي بينما كنت متأهباً للسفر الى باريس بمهمة صغيرة .

حدث في بلادنا بعد مبارحتك اياها أمور جليلة اختص بالذكر :

لم يقبل توماس مصاحبتك لأن عداوة قديمة بينه وبين حراس غابات شفان أشغلته عن تلبية اقتراحك وأفضت به الى اقتراف ثلاث جرائم . فسيق الى قاعة المحاكمة ولم يكن لدى القضاه أدلة كافية تثبت جريمته . لكنه أقر بعدئذ بجريمته وبسط السبب الذي حمله على ارتكابها وظنه سبباً عادلاً يسوغه جمهور الحاضرين ولكن خاب فاله فحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة

ولما لم يستطع احتمال هذا الحكم الشديد وعز عليه فراق بلاده الى الأبد انتضى مسدساً كان معه وأفرغه في دماغه فخر للحال صريعاً

وبعد بضعة أسابيع من هذه الحادثة وجد بليز قتيلا فى الغابة القريبة من فلين وكان معه طريدة من الطيور

أما زوجته فانها باعت كل ما لديها من الاثاث بأبخس الأثمان وابتاعت تذكرة للقطار الذاهب الى باريس ولا أعلم الى أين ذهبت بعدئذ

باريس واسعة ولا بد أن تكون قد تاهت بين أحيائها

زرت الأب تونيلييه فكان يذكرك آسفاً على ما حدث

الوداع يا عزيزي . أنتظر تعليماتك لاقوم بها خير قيام

صديقك القديم

فابين ربول

باريس في ١٤ مايو سنة ١٨٧٧

الثالثة : رسالة جون ردون الى الدكتور ربول :

صديقي العزيز

ان رسالتك قد أوقعتني في حزن أليم اذ لو قبل توماس مشروعي لما حدث ما أراده سبحانه وتعالى

لا يمكنني العودة الى باريس فقد دفعت آخر درهم لشريكي في المزرعة فبقي معي ألفا فرنك أرسلهما لك ضمن هذا لتنفقهما في البحث عن ريموند. لك اصدقاء عديدون في باريس فيمكنك أن تستعين بهم في أبحاثك

وفي الختام أقبل تحيات وشكر صديقك البائس

جون ردون

مزرعة بايندل في ١٠ يونيو سنة ١٨٧٧

الفصل الحادى عشر

الجزاء

بعد مضي ثمانية أيام كانت تريز منفردة في غرفتها وجالسة بازاء النافذ المطلة على الحديقة

أرخي الليل سدوله وجاءت الساعة العاشرة . وكانت الأوهام والهواجس المخيفة تتناوبها فتؤثر عليها

كان المركيز تعزيتها الوحيدة بعد المصائب التي حلت بها لما كان يظهر نحوها من الشفقة والحنو الممزوجين بالوجد والغرام

إلا أن أمراً أشغل باله وأقلق راحته وهو سر لا يفوه به لأحد ... حتى كنت تراه أحياناً جالساً مفكراً مضطرباً . . . .

عماذا يفكر ؟ . . . .

بعد برهة لمست تريز جرساً كهربائياً فأتتها الخادمة فبادرتها بقولها :

— هل وردت رسالة ؟

— كلا يا سيدتي

فأغمضت تريز جفنيها وعادت إلى التفكير فاقتربت منها ليوني وقالت : إن سيدتي تفكر دائماً ؟

— وا حسرتاه !

— لا يجب أن تأسى سيدتي لأن سيدي شفوق ويعتني بالطفلتين . ثم سمعتا قرع الباب فهرولت الخادمة وفتحته فوجدت المركيز دي بورد

دخل المركيز إلى غرفة عشيقته وقال لها : هل أنت في صحة جيدة ؟

— نعم وأنت ؟

فلم يجب بل أخذ يتخطر ذهاباً وإياباً في الغرفة وهو يعض شفتيه ثم جلس إلى جانبها وقال : سأسبب لك إزعاجاً يا حبيبتي . . . .

فلم تجبه بل ألقت عليه نظرة تدل على القلق وتجلدت فتابع حديثه وقال: إني أتألم منذ بضعة أيام . . .

فارتعدت فرائص تريز وتجلدت . ثم قال : يجب أن نفترق . . .

فشحب لون تريز وقالت : نفترق إلى الأبد

— إلى الأبد

فألقت تريز برأسها على صدر المركيز فطوقها بذراعيه وقال : أقسم لك بأني لم أعشق سواك وقد حلمت حلماً أردت أن أحققه لولا أمر هائل حال دون مطامعي . . .

وبصوت مختنق ولسان متلعثم قال : بيني وبين الآنسة جبريل لوسي قرابة بعيدة وعلاقة ودية وثيقة العرى . فعرض الدوق لوسي على والدتي إقتراني بحفيدته (جبريل) فقبلت أمي بدون تردد لعلمها بأني لا أرفض طلبها ما دام الأمر بسيطاً ولا شيء يحول دون القبول . . . . كان ذلك عند انتهاء فصل الشتاء حينما أخبرتني والدتي بمسألة الزواج فرفضت طلبها ففهمت وقالت : هل لك علاقة بأحد فأخبرتها بحبي لك فأجابتني : ألا تعلم أن رفضك جبريل قد يضر بها ؟ . . .

وحدث بعد مدة أن جبريل قطعت كل علاقة ودية بي

وفي تلك الاثناء أخبرتني والدتي أن جبريل ذاهبة إلى ميدي حيث تقضي هناك بضع أسابيع ولم تعرض عليّ مرافقتها وهو أمر مخالف لعادتها فندمت على الرفض لأني سأكون السبب لما قد يحدث

وهنا توقف المركيز عن الكلام واقترب من تريز وقال : أتذكرين سياحتي القصيرة في «كان» منذ ستة أسابيع حيث ذهبت لمقابلة والدتي التي دعتني برسالة منها وكانت تنتظرني على مقعد في المحطة فأخبرتني بأن جبريل مريضة جداً وتركتني أختار ما يحلو لي وما يرتاح إليه ضميري . وكانت تبكي بدموع سخينة ولم تكن تلك الدموع لتلين عزمي لأني لست أريد سواك بدلا في فؤادي . . . .

وتركتني تتنازعني عوامل شديدة بينما نحن سائران إلى أن وصلنا إلى

منزل فدخلت والدتي وتبعتها إلى غرفة في الطبقة الأولى فيها فراش وعليه شابة ناحلة الجسم قد علت وجهها صفرة الموت

عندئذ غادرت والدتي الغرفة وتركتنا وحدنا أما أنا فلما رأيتها على هذه الحال ندمت على الرفض لأني سأكون السبب في قتل نفس بريئة تحبني وهل يعد الحب جريمة ؟

فمدت المريضة يدها فتناولتها بلهف وقبلتها فشعرت بشدة حرارتها فرفعت رأسها كمن أنعشتها قبلة الغرام وقالت وكادت تخنقها العبرات : أنت هو يا ريمون . إن قدومك لعيادتي قد انعش قواي . . . .

هنا أشارت إلى مقعد قريب وقالت : أجلس على هذا المقعد لتستريح من مشقة السفر . . . .

فجلست وأنا بين متردد ومرتعب فقلت : هل تتألمين ؟

— منذ برهة

— والطبيب ؟ . . . هل يأتي أحياناً لعيادتك ؟

— كل يوم . . . . وأنا أعتقد أنه في ضلال . إني لست مريضة . .

— بما تشعرين إذاً ؟

فملأ وجهها الاحمرار ولم تجب : فشعرت ان ضميري يبكتني فقلت والدمع يترقرق من ماقيّ : جبريل . . . ألا تثقين بي ؟ . . . . من هو سبب آلامك ؟

فلم تجب . فصحت بصوت مختنق : لكني أحبك يا جبريل . . . أحبك من كل جوارحي . وحبي لك يقرب من العبادة

— تحبني محبة أخ . أليس كذلك ؟

— بل كعشيق وكزوج مفتون . . .

— ريمون . لقد انعشت فؤادي الآن ببريق من الأمل . . . ثق بأني مملوكتك ما دام في عروقي تجري دماء ذكية حية . لكني أراني مغالية في زعمي لأني لا أريد أن أقيد حريتك أو إن أكون حجر عثرة في سبيل مستقبلك لقد أحببتك حباً برح بي وذلك منذ مدة طويلة . . .

— ثق بوعدي . . .

عند هذه الكلمة تم حديث المركيز فقال خاتماً : أفهمت الآن ؟

— إذاً ستقترن بها ؟

— في خلال عشرة أسابيع على الأقل

— ماذا أفعل بعدك

— أهل تلوميني إذا أخفيت عنك الحقيقة ؟

— قل ولا تخف

— لن نجتمع ثانية

فتبسمت ابتسامة الألم لعلمها بأن وعده لها بالحب الأبدي لم يكن سوى أضغاث أحلام لا حقيقة لها

فقال المركيز : إني قاس وقساوتي إلى درجة الوحشية . . . لقد جعلتك مضغة في أفواه الناس وفرقت بينك وبين روجك وأطفالك الذين تحبينهم . . . إن فقدي إياك لهو مصيبة لا أتعزى بعدها

علمت تريز أنها صارت فدية لجبريل وغنى هـذه يعادل غنى المركيز فلا مانع من اقتران النسب الرفيع

هل تتهم عشيقها بالجفاء والكبرياء وهو الذي لايزال حتى الساعة خاضعاً لها . . .

عادت ذكرى مؤلمة أخذتها دواعي الترف وغفلان الحقيقة . . . .

باريس عن بعد تنادي تريز . . . باريس ذلك اللفظ العذب لايزال يطن صداه في أذني تريز . فضيحة وعار أبدي . . .

كم تحقد تريز على باريس لأنها تركتها تعاني شر الوحدة بلا معين بعد ان فقدت طفلتيها وحدث ما حدث . . . .

هل تعود إلى والدها ؟ وبأي وجه تقابله ؟

إتكأت تريز إلى النافذة واستنشقت بصعوبة نسيم الليل العليل

فقال المركيز بصوت ضعيف : تريز ! ! !

فانتبهت تريز كمن هب من رقاد واقتربت من عشيقها وقالت : ستتركني اذاً لرحمة الأقدار ؟

— كلا يا حبيبتي فان كاتب العقود سيأتي غداً ويسلمك حق امتلاك هذا المنزل بما فيه من الأثاث . أما أنا فسأرعاك من بعيد ...

— من بعيد ؟

— سأدوم لك صديقاً وفياً أطوع من بنانك

— ستتركني الآن ؟

فتأثر المركيز من هذا السؤال ولم يدر كيف يجيب . وبعد برهة نهض يريد الخروج فقال : الوداع يا حبيبتي ... الوداع . .

ثم انصرف وهو لا يلوي على شيء كمن أصيب بسهم قاتل

فجلست تريز على مقعد وقالت وهي تتألم : لم يبق لي أحد ...

الفصل السابع عشر

النصيحة

مضى على حادثة الكونت هوبير دي بوسي التي مر ذكرها على القراء زهاء الاثنى عشر عاماً وهو لا يزال سالكاً عيشة الوحدة والتنسك مع خدمة لا هم لهم سوى المطالعة والتنعم بمرأى جنان الطبيعة في هذه الأرجاء

كتم الكونت في نفسه الجرح الذي أدمى فؤاده ولم يكن ليفكر يوماً بتغيير حالته الانفرادية وكان يتغيب أحياناً عن منزل الزهد ويذهب إلى باريس ويقضي معظم لياليه في حدائق التويلري ثم يعود إلى منزله الواقع في ميدان مادلين

عند الساعة السادسة والنصف من غد اليوم الذي دارت فيه محادثة المركيز رعون مع تريز كان الكونت في القطار السريع الذاهب إلى باريس

في باريس ركب عربة أقلته إلى منزله وكانت خادمته في انتظاره خارج الدار لعلمها بمجيئه فحيته ورحبت به فدخل وتبعته الى غرفة مفروشة بأفخر الاثاث ومعدة لرجل يبتعد عن الملاذ الدنيوية

وكان على جدار الغرفة في صدرها صورة زوجته الراحلة وهي امرأة في الثالثة والعشرين من عمرها تشابه تريز حسماً وسناً وجمالاً

وقف الكونت أمام الرسم وتمتم هاتين الكلمتين المؤثرتين : آه لو عفوت . .

عند الثامنة من هذا المساء قصد الى حدائق التويلري وأقام حتى التاسعة ونصف ثم قفل راجعاً إلى منزله

ومر في طريقه بقهوة دوران في شارع رويال وجرع كأساً من النبيذ وفيما كان يتنقل بصره على المائدة تنبه لامرأة تشابه زوجته تمام المشابهة وكانت متجهة نحو ميدان الكونكورد وهيئتها تدل على القلق والاضطراب

فأراد أن يتبعها لكنه فطن الى ضرورة المروءة عاجلا إلى منزله فتابع سيره وهو لا يكاد يصدق ما رآه . ولما كان في غرفته بملابس النوم أسند ذراعيه الى نافذة الغرفة وأطل الى الشارع فأبصر على ضوء المصباح امرأة متشحة بالسواد واقفة وعيناها تتجهان نحو شارع رويال كأنها تنتظر مجيء أحد من تلك الجهة

وبعد خمس دقائق ارتدى الكونت ملابسه وخرج فلم يجد المرأة في مكانها فأخذ يتطلع هنا وهناك فرآها تسير إلى جهة الكنيسة اليمنى فتمكن من اقتفاء أثرها حتى صار على مقربة منها

سارت المرأة المتشحة في شارع رويال ووقفت قليلا أمام النادي الذي يؤمه عشيقها المركيز دي بورد . ولما لم يأت أحد استمرت في سيرها نحو نهر السين

وأدرك الكونت ما هي عازمة عليه فرجه لذلك حل اهتمامه . فلما وصلت عند جسر الكونكورد أطلت لتشاهد مياه السين وهي تجري في أحواضها ثم ارتدت الى الوراء لوقوع بصرها على حارسين يخطران بقربها فاستأنفت سيرها حتى مرسى القوارب في أورسي

فعدا الكونت نحوها واستوقفها وقال متأثراً : ماذا تعملين هنا في مثل هذه الساعة ؟

فارتعدت فرائص تريز والتفتت نحو مخاطبها وقالت : من تكون حتى تعترضني في سيري ؟

— من أكون ؟ صديق مجهول وإذا أردت زيادة الايضاح فقولي رسول السلام ... لقد كنت مطلاً من نافذة غرفتي وأبصرتك واقفة بقرب المصباح فأدركت أنك تكتمين سراً هائلا ينخر في عظامك الرقيقة وتسعين للتخلص منه بوسيلة بسيطة ...

— هو ما تقول

— إني لا عجب من شابة غضة تسعى للانتحار في ربيع حياتها

— لأني فقدت كل ما لي في هذا العالم

— أليس لك صديقات أو أصدقاء ؟

— كلا

— عيلة ؟

— فقدتها

— والد ؟

— لقد ألحقت به عاراً لا يمحى . . . ولا يمكنني إظهار مبلغ إمتناني لعطفك الزائد نحوي ... على أني سأخبرك بتفاصيل ما حدث لي كي لا تحول دون عزمي ...

ثم قصت عليه كل قصتها وختمتها قائلة : وتراني الآن قد فقدت كل شيء فاتركني أغادر هذه الحياة الدنيا لأجد الراحة الحقيقية هناك . . . هناك بين طيات مياه السين . . .

— ألست غنية ؟. تمتعي بالمال !..

— وهل يتمتع بلذة من كان جرح فؤاده قاتلا ؟

فسكت الكونت وأخذ يفكر كأنه يسترجع إلى ذاكرته أمراً نسيه ثم قال : أليس عشيقك هو المركيز دي بورد ؟

— من أخبرك عنه ؟

— هو صديقي . وقد أخبرني مراراً عنك فلم أشك أنك تلك المرأة التي

يدعوها تريز . والفضل للعناية الالهية التي أرسلتني إليك . . . أتيت لأفتح لك باباً آخر للآمال اللذيذة التي تنشدينها . .

— لقد تركني بعد أن كان يعبدني ويذكر لي مراراً أمر الحرب إلى بلاد بعيدة

— للحياة ظروف اضطرارية قاسية .. ألم يهبك ربعون شيئاً ؟

— ليته لم يهبني . . . لأني لست ممن يبعن غرامهن بمال

— ماذا ترك لك زوجك ؟

— عشرة آلاف فرنك تركها لي لأستعين بها ريثما يتيسر لي عمل في مستشفى أو في أحد منازل الاغنياء

— هل تعتقدين أن تعاطي الأعمال سهل ؟

— إذا اضطرني الامر أعمل

— إنك تتمسكين بالوسائل الصعبة التي قد تؤدي بك إلى المهالك . . .

ثم واصلا سيرهما حتى حدائق دي باري وهناك قال وهو يشير بيده إلى جهة نهر السين : أخشى أن يعاودك اليأس مرة أخرى فلا أكون حينذاك معك .. أريد أن أطلعك على أمر لكن الحياء يحول دون ذلك . . . تأكدي أني عند مرآك لأول مرة تراءى لي أني أرى امرأتي الراحلة في هيئتها وسنها وجمالها .. سوف أخبرك عن تفصيل نكبتي لتعلمي أن الانسان لم يخلق إلا ليسامح خصمه وعدوه ويتغاضى عن هفواته ولا أن يحمله اليأس على الانتحار أو المهاجرة أو اليأس أو الحداد الطويل الموهن للقوى أو التأثير المؤلم ... لأن حياة الانسان قصيرة ويجب أن يقضيها في وسائل خلاص نفسه كالبر والاحسان الخ ... هل تعديني باتباع نصائحي ... ألم يذكر لك المركيز عن صديقه الكونت هوبير دي بوسي ؟...

فاندهشت تريز لسماعها هذا الاسم فقال : أنا هو . فاعلمي ان عشيق امرأتي الذي كنت أعتقد فيه المودة والاخلاص قد هتك عرضي وأهانني فانتقمت منه لشرفي بسفك دمه طبق القانون ... أما تلك التي قضت نحو العامين ونيفاً في دير منقطعة الى الصلاة والعبادة ثم عادت تطلب مغفرتي بعد

أن غفر الله عن ذلتها فرفضت ... لقد قصت وارحمتاه على نفسها ... انها على شاكلتك . حتى ليتخيل لي أني أرى طيفها متجسما فيك ... لا تخيبي أملي بل اشمليني بكلمة رجاء ...

— ماذا تريد أن أفعل ؟

— أن تعرضي عن عزمك

— وبعد ذلك ؟

— أن تعودي إلى منزلك في شارع بالك كما أوعز إليك صديقي المركيز

سأفعل

أترغبين مرافقتي لك ؟

— بدون شك

— لا تسعي إذاً لرؤية المركيز ثانية

— سأطيعك بالحرف الواحد

— إذهبي الآن إلى نيفر وسأفكر أنا في العودة إلى قصري فأكون بجوارك ...

شعر الكونت كأن أمراً جديداً طرأ على حياته وشعرت تريز بأن عضداً متيناً أسند حياتها

بعد منتصف الليل بنصف ساعة وصلا إلى منزل شارع بالك فقال الكونت : إعلمي إنك غير مأسوره ما دام المنزل يخصك . . فلا تنسي قسمك لي ؟

— نعم . نعم

لم تمض الساعات القليلة من الليل حتى صارا صديقين وفيين وعند الافتراق سألته قائلة : متى أراك ؟

— متى شئت . ومتى تسافرين أنت ؟

— في أول فرصة أنتهزها .. قد أسافر غداً

— سيقوم القطار في التاسعة صباحاً فأكون في انتظارك ... ما هي علامة قبولك ؟

فمدت تريز يدها فصافحها الكونت رغم صوت غير مسموع : هي . هي التي اعتقدت انها آتية من عالم الأموات

بعد ساعة من الزمان كان الكونت في غرفته يتأمل رسم زوجته ويتعجب من عظم المشابهة

وفي صباح اليوم التالي كان الكونت في انتظار تريز فلما وصلت قال لها : ما أسعدني بمشاهدتك وما أعظم سعادتي حينما أكون الى جنبك ... فلا تهملي المراسلة ؟

— سأتبع نصائحك ما دمت على قيد الحياة

وفيما كان الكونت يفكر إذ صفر القطار مؤذناً بالرحيل فتمتم في نفسه بينما كانت تريز تودعه : لقد أدركت الآن أني سأعيش لسواي

عند السادسة مساء وصل القطار فترجلت تريز والمسافة التي يجب قطعها للوصول إلى منزل والدها هي كيلومتر واحد . فسارت حتى انتهت عند باب الحديقة فرآها والدها وقام لاستقبالها بوجه باش وذراعيه مبسوطتين فترامت على عنقه وتمتمت : أبتاه ! لم يبق لي أحد سواك

لكنها نسيت صديقاً مخلصاً وودوداً هو سبب نجاتها من مخالب الموت

الفصل الثامن عشر

وكالة فريبورج

لم يعتد الدكتور . بول القيام بمثل المهمات فتضايق من رسالة صديقه جون لكنه رأى أن يقوم بها عملا بواجب الأخوة والصداقة . فشرع في البحث في جميع أطراف القرية فلم تفده فاضطر للسفر إلى باريس حيث استعلم عن وكالة فريبورج وشريكه هوشار في شارع الانتصار فسار حتى وصل إلى أمام منزل عظيم قديم البنيان فأراد أن يدخل فأدركه البواب وسأله : ماذا يرغب سيدي ؟

— هل هنا وكالة فريبورج ؟
— في الطبقة السفلي والباب إلى اليسار

فلما وصل إلى الباب وجد لوحة من النحاس معلقة على الجدار ومنقوش عليها هذه الكلمات :

فريبورج وهوشار وشركاؤهما

ودخل الدكتور ربول إلى قاعة الانتظار فقابله خادم الغرفة وسأله . ماذا يرغب سيدي ؟

— مقابلة أحد الشريكين ؟
— لم يأت أحد بعد
— لكنني آت بمهمة ذات شأن

ففتح الخادم باب غرفة إلى اليمين وقال بصوت منخفض : من هنا يا سيدي تصل إلى غرفة فريبورج

وفريبورج هذا أحد الشريكين وهو ماهر في حرفة حذب الزبائن وتفريغ جيوبهم

مر الدكتور أمام بضعة من الموظفين وهم منهكمون في أشغالهم ودخل إلى غرفة الرئيس المنوه عنه وهو رجل تكاد تبلغ قامته خمسة أقدام فلم يره الدكتور لقصره فتقدم رافعاً قبعته وقال : سيدي فريبورج ؟

— أنا هو يا سيدي ... المعذرة ... بعد برهة أكون رهين إشارتك

بعد برهة وضع الشريك قلمه على المكتب وقال : لا بد أن سيدي آت بمهمة خطيرة حتى سمح لك البواب بالدخول ؟

— هو كذلك
— وهل تتعلق المسألة بشخص سيدي ؟
— كلا . إنما هي مهمة كلفت باداثها
— من حملك على قبولها
— نصرتي للانسانية وقيامي بواجب الصداقة ..

— حسناً . أمددني الآن بمعلوماتك العزيزة
— ألم يصل إلى مسامعك نبأ الاعتداء على رجل من فلين ؟
— لعلني أتذكر .. فل... جليز ... بل بلنز ...
— هو بعينه
— ما شأنه في المهمة ؟
— ستعلم الآن ...
— وكان متزوجاً . أليس كذلك ؟
— وامرأته من المورهبان . وقد باعت القليل من الأثاث وعادت إلى بلادها ؟
— أين منشأها ؟
— لقد نشأت في قرية من مقاطعة فان تدعى لموز ... وقد توفي والدها في ارلندا وتوفيت والدتها في قرية من مقاطعة لوريون
— ما اسمها ؟
— كوبوي
— ممن اتخذت هذه المعلومات ؟
— من بلدية فلين ...
— أهذا كل مالديك منها ؟
— بل عندي أمر آخر وهو أني راسلت مديري القريتين وسألتهما عن ايفون تريفن فأجاباني انها غير موجودة في هذه البلاد فقد غادرتها حديثة السن ولم تعد تظهر في مكان
— لقد كان لدينا بعض الرجاء في الاهتداء اليها في بادئ الأمر . . . أما الآن ؟ فقد ابتدأت المصاعب تبدو لنا ...
— هذا رأيي أيضاً
— سؤال آخر يا سيدي ... باسم من يجب أن نقيد مهمتنا ؟
— باسم جمس برون في نيويورك
كان فريبورج يكتب كل هذه المعلومات فقال : هل يكون أباً ؟

— لا أعتقد ذلك ولا يهمنا أصله

فتمتم فريبورج في نفسه : أسرار وتخمينات وأسماء مستمارة وطبيب في مهمة ثم قال : هل يمكنك أن تصف لي هذه الأرملة ؟

— نعم . فهي متوسطة القامة وفي الثلاثين من العمر

— سمراء . بيضاء ؟

— بل شقراء ... لقد سهوت من أن أذكر لك أمراً يتعلق بمهمتنا ...

— وما هو ؟

— ان ايفون تريفن التي ذكرتها لك كانت تصحب فتاة صغيرة أودعها معها صديقي جمس وهي تبلغ العام والنصف من العمر ، آية في الجمال ، وشقراء أيضاً . .

— ماذا تدعى

— سوزان . هذا كل ما أعلمه بهذا الشأن

— والآن كيف حالة جمس الاقتصادية ؟

ردیئة

— هل تعرفه شخصياً ؟

— نعم . لكنني لا أعلم من أموره شيئاً

— لا بد أن تعلم ما ستكلفه مهمتنا من نفقات السفر والبحث من أجل مهمتك

وأخذ الطبيب محفظته الجلدية وقال : كم يلزم لذلك من النفقة

— ألفا دونك

فمد الطبيب يده وأخرج ورقتين من مئة ألف وأعطاها لفريبورج فبش هذا في وجهه وأخذها ثم قال : هل لك من سؤال آخر ؟ ..

— كلا

— سوف يسرك نجاح مهمتنا

— هذا ما أتمناه

— الوداع

ولما أراد الدكتور الانصراف شيعه فريبورج حتى الباب وعاد إلى مقعده وجمع معلوماته كلها في طابور خاص (دوسيه) وكتب على ظاهره هاتين الكلمتين : « قضية سوزان »

الفصل التاسع عشر

المقابلة الأولى

رسالة الكونت لوسي ... ر ز ردون عن يد القبطان لونيلييه في سوفلي (نيفر)

سيدتي

حظوت برسالتك الكريمة وقدمت إلى باريس لأقوم بالمهمة التي طلبتها مني وقصدت بعض الخبراء واستعنت أيضاً بكاتب عقودنا ولي ملء الثقة به وقد أرشدني إلى شركة فريبورج . واستعنت أيضاً بوزير الداخلية للتقرب من رئيس الشرطة لبث العيون والأرصاد وقصدته مستعلماً أيضاً عن هذه الشركة فأجابني : هذه الشركة قد نالت شهرة واسعة في حل المشاكل العويصة

فسرت في شارع الاستعداد حتى بلغت بناء الشركة الفخم فقصدت غرفة الرئيس وهو رجل قصير القامة محدودب الظهر تدل ملامحه على المكر والرياء فشككت كثيراً في حقيقة هذه الشركة ...

فعرضت عليه مسألتنا فأظهر صعوبتها في بادئ الأمر ثم شرع يشرح لي الأسلوب للوصول إلى الغاية والذي زادني تذهالاً سرعة فهمه وغزارة مادته

إلى أي جهة قصدها زوجك ؟

هل إلى الهافر ومنها إلى مرسيليا ؟

هل إلى أمريكا أو إلى استراليا أو الى الترنسفال ؟

يصعب على الانسان أن يحل مشكلاً صعباً كهذا لغموضته ...

فتشجعي وكفكفي الدمع واصبري إذ يجب أن تعلمي أنك في الوجود غاية عنتها العزة الالهية وإلا لما سمحت بنفسها لنجاتك من يدي

الوداع يا صديقتي العزيزة ...

يخيل لي وأنا أكتب أني أرى في شخصك من انتحرت وتركتني بعدها في شقاء دائم

لا تمضي بضعة أيام حتى أكون بجوارك

تحية وسلام

المخلص

هوبير دي بوسي

بعد أن انصرف الكونت بوسي تنفس فريبورج الصعداء وأخذ يفكر في وسيلة لحل هذه المشكلة الجديدة . ولما لم يجد قرابة بين قضية جمس برون وجون ردون أخذ طاوراً وكتب عليه « قضية جون »

ثم قرع جرساً كهربائياً فأتى الخادم فقال له : ادع لي هوشار

بعد برهة دخل هوشار وأجال ببصره ثم اقترب من المكتب وحيا فريبورج تحية عسكرية وقال : ما وراءك ؟

— هذه خمس وريقات مالية تنفعنا عند الازوم ... لدي بضع معلومات خطيرة ...

— بأي شأن ؟

— بشأن الطفلة سوران التي نبحث عنها

— كان هذا رأيي قبل إبدائه إذ يبدو لي أن المبلغ الذي أتحفنا به جمس ون المتنكر بواسطة طبيبه لا يشبع مطامعنا ولا بد من مورد آخر ...

— وما هو

— أن نستولي على أرملة بليز رفين ... إذ لا بد أنها عادت إلى قريتها ...

— ثم نحتفظ بالسر لأنفسنا . فتنضج الثمرة على مرور الزمن ... والطفلة ضاً ... فلنسرع في إرسال خبير إلى هنالك ..

— من ترغب أن يكون الخبير ؟

— بوسكاري مثلاً . فهو خالي العمل على ما أظن ...

لم يحن الوقت بعد . . .

— أرسله لي الآن

— سمعاً وطاعة

بعد ثلاث دقائق دخل على فريبورج رجل ضخم الجثة أسمر اللون عريض الشاربين له لحية طويلة فقال له فريبورج متكلفاً الابتسام : لقد وجدت لك عملا . . . .

فابرقت أسرة بوسكاري وكاد يصفق من شدة الطرب فقال : تلذ لي هذه الأخبار السارة ياسيدي

— سأعلق عليك أمراً وهو البحث عن أرملة تدعى إيفون تريفين وهي فقيرة . . . .

— لا بأس

— إذهب إلى مقاطعة فان من غير أن تعلم أحداً أنك آت بخصوص هذه المهمة . وستكون نفقاتك اليومية سبعة فرنكات لأن نفقات المعيشة هنالك ليست كثيرة فهل أنت موافق على هذا الشرط ؟

— وافقت

— نسيت أمراً مهماً وهو أن الأرملة تصطحب طفلة صغيرة . . . لا تنسى . . . إيفون تريفين . . . متى تسافر ؟

— الأمر أمرك يامسيو فريبورج . أفضل السفر في أقرب وقت لأني هنا لا أكاد أسد رمقي . . .

— حسناً . غداً مساء أخبرك عن كل ما يلزم لمهمتك وأعطيك مائتي فرنك تحت الحساب . فاذا عدت رابحاً نلت مكافأة . . .

فظهرت على وجه بوسكاري ابتسامة سخرية كأنه يعلم قيمة المكافأة . وبوسكاري هذا من أهالي غسكونيا وكان عميلا لشركة التأمين ثم عزل فاندرج في سلك شركة فريبورج التي يدعوها بشركة اللصوصية

وكان يشغل أوقات الفراغ بالحفر والنقش على الخشب أو العاج فيصنع منه

قبضات العصي المزخرفة حتى أنه نال شهرة واسعة بهذه الحرفة

وقصارى القول أن شركة فريبوج كانت تبتز أموال زوارها مبتكرة لذلك جميع سبل الخداع

كانت تريز تكاتب الكونت كثيراً بشأن زوجها فلم تكن تلقى منه رداً نهائياً يفيدها عن محل إقامته

عند العاشرة من صباح يوم ١٦ اكتوبر كانت تريز في منزل أبيها منفردة تطالع في كتاب، إذ طرق الباب ودخل الساعي يحمل رسالة معنونة باسمها فأخذتها منه بلهفة وتلت ما فيها :

صديقتي العزيزة

إني ذاهب اليوم الى برسي فأكون بجوارك . هل يمكنني أن أراك فأحدثك على انفراد بعد الغد . إني أعرف جيداً تلك الغابات المجاورة لمنزلك فقد كنت في حداثة سني صياداً ماهراً حتى إني لم أترك غابة إلا طرقتها .. وعلى بعد خطوات قليلة من منزل والدك بقعة مظللة بالاشجار يمكننا أن نتقابل فيها جلسة

وهذه الجهة تدعى بالصخرة الدامية . . .

أنت تعرفين هذه الجهة فقد حدثتني عنها مراراً في رسائلك

ولي ملء الرجاء أن أراك هناك بعد غد اليوم . عند الثالثة بعد الظهر وثقي بشعوري نحوك

صديقك

هوبير دي بوسي

الفصل العشرون

المشورة

كانت تريز جالسة تفكر وقد غابت في بحار وجدانها المنتعش بماء الحياة وكانت تعيد تلاوة رسائل الكونت بانعام نظر فكانت تعزيتها بها لا تقدر

كان الكونت في رسائله يحيي في فؤاد تريز آمالا واسعة حتى أنها تعزت نوعاً ما ونسيت مصابها الأليم بفقد أولادها وزوجها الذي كانت تحبه بالرغم من هفوتها لان باريس أغوتها كما أغوت كثيرات من أمثالها

عند الثالثة بعد الظهر ارتدت تريز ملابسها وخرجت قاصدة الى الصخرة الدامية ومرت في سيرها أمام مزرعة زوجها وقد أصبح قصره أنيقاً تحيط به الحدائق الغناء . فتألمت نفسها لهذه الذكرى لأنها كانت تتمنى لو رضخت وعاشت ناعمة البال في هذه البقعة الهادئة

وصلت تريز إلى سفح الصخرة حيث يجري عليها ينبوع الماء الذي يكوّن جدولا يتجمع في الوادي

ألقت بصرها شجرة قد هبت عليها العاصفة وأوقعتها بين الأعشاب اليابسة . فوقفت تتأمل فيها لكنها لم تلبث ان عادت إلى الوراء مرعوبة لأنها أبصرت على جذعها آثار نقش أذكرتها بمقابلتها لجون لأول مرة

لم تكد تجلس على هذا الجذع حتى طرق أذنيها وقع حوافر جواد آت نحوها فالتفتت فاذا بالكونت قد أتى مرتدياً ملابسه السوداء فترجل وذهب نحوها وقال : لقد تأخرت عن الميعاد ياعزيزتي

ثم ربط عنان جواده إلى شجرة والتفت نحو تريز وقال : يتراءى لي أنك أرقت ليلة أمس ؟ . . .

ثم أمسك بيدها وقال وهو يحاول إخفاء اضطرابه تشجعي يا تريز . . .

فاختلج فؤاد تريز لكنها تجلدت وقالت : ما وراءك أيها الصديق ؟

فأخرج الكونت من جيبه رسالة وردت له من شركةفريبورج وأعطاها لتريز فأخذتها منه بلهفة وتلت ما يأتي :

سيدي الكونت

طي هذه الرسالة ما أقترحه علينا عميلنا في نيويورك الذي أوعزنا إليه أن يتولى مهمة البحث . وترى من خلاله صعوبةالمسألة وانه بالرغم من مجهوداتنا المبذولة لم نجد لضالتكم أثراً

وأقبل فائق احترامنا ؟

فريبورج وهوشار وشركاءهما

وإلى جانب هذه رسالة أخرى هذا نصها :

سادتي

أخبركم مع ابداء أسفي المظيم بأن أبحاثنا لم تجن فائدة بالرغم من سعينا لدى جميع رؤساءالمقاطعاتفي الولاياتالمتحدة للبحث عن رجل إسمه جوزردون والأرجح لدينا أن هذا الرجل قد تنكرخشية افتضاح أمره . فيصعب والحالة هذه ايجاد ذلك الرجل الموهوم بين طبقات سكان الولايات المتحدة الواسعة الارجاء

وثقوا باعتبارنا واخلاصنا نحوكم واقبلوا فائق احترامنا ؟

جورج نب

فما أتمت تريز تلاوة هـذه الرسالة حتى وهنت قواها ووقفت على جذع الشجرة وقد بلغ منها التأثير أشده فقال الكونت على سبيل التعزية : إن ابحاثي لم تكن بأكثر فائدة من أبحاث هذه الشركة فقدأرسلت مدةإقامتي فيباريس رسائل إلى جميع الجهات ولم أحظ بجواب سار . . . .

— كم من الزمن أقمت في باريس ؟

— ستةأسابيع

— لقد شعرت منذ فقدت أولادي وأعز ما لديّ كأني غريبة في هذه البلاد وكثيراً ما خشيت أن أظهر نفسي أمام الناس لئلا يقرصوني بقوارص الكلام لأنهم كانوا يوقرون زوجي كثيراً . . . ووالدي يحبني وإنما في

أعماق قلبه شجون وأحزان تزداد كلما ذهبت لزيارته . أكاد أجن وأخشى أن تقل شعوري . . . إلهي ! رأفة بي . . .

ثم اجهشت بالبكاء فتأثر الكونت تأثيراً بليغاً ولبث برهة يتأمل

فكفت تريز عن البكاء وطأطأت رأسها ثم رفعته ونظرت إليه وقالت له : لا يمكنني إبداء إمتناني لك لأنك أظهرت لي صداقة ومودة لا أستحقها وشاركتني في نكبتي مع أن لديك شجوناً أشد منها

— إعلمي ياتريز أني أحببتك وهذا الحب هو التعزية الحقيقية لشجوننا

فارتعدت فرائص تريز وقالت : أنت ؟

— نعم أنا . . . . فلا تعتقدي البتة أني أمزح لأني فكرت في الأمر طويلا قبل مفاتحتك به فقد تراءى لي عند رؤيتك في شارع رويال أن انقلاباً جديداً سيطرأ على حياتي . . . . ومنذ ذلك الحين تطورت فبعد أن أقسمت أن أبقى حيناً على عيشة الوحدة والتنسك بعيداً عن الدنيا وملاهيها ونبذت ما أراه ببصري نبذ النواة وذلك بعد انتحار زوجتي . . . رأيت أن أسألك أن تنعمي علي بقطرة من ماء الحياة فانتعش منها . . . . تريز . . . إني أهواك فهل تريدين أن ترتبطي معي بعرى الاتحاد المقدس فتمتزج شجوننا وتأخذ روح الحياة الجديدة في النمو إلى أن يفرق بيننا الردى

فتمتمت تريز وهي لا تتمالك من الاضطراب : مستحيل ما تقوله

— ولماذا ؟

— لأني أولا لست أهلة لك . . .

— لكنني راض بك . . .

— ثم أمراً آخر يحول دون غايتك

— ارتباطك بالرجل الخائن ؟

— نعم

— إنه لن يعود . وهذا خير علاج ناجع لشجونك . . .

فتأوهت تريز وقالت : كم أنت طيب القلب ياعزيزي

— لكني ضعيف . . . أنت جميلة وتذكرينني بالتي كنت أعبدها . . . إني أهواك حقيقة . . .

وأستولى السكوت عليهما برهة كأن على رأسيهما الطير فتأبط الكونت بذراع تريز وسارا في الطريق المؤدي إلى قمة الصخرة .

فأشار الكونت إلى قصره وقال : متى تطئين عتبة هذا القصر يخال لي أن شجوني قد زالت وابتدأت سعادتي الحقيقية التي كنت أحلم بها . . . أتقبلين ؟ . . . لقد عرفتك من قبل وكنت أحسد صديقي المركيز على سعادته بقربك . . . فهل تضربين صفحاً عما مضى وتفتحين أبواب المستقبل بيديك الكريمتين ؟

فزاد اضطراب تريز وقالت بصوت يمازجه الألم : ماذا تريد أن أفعل ؟

فأخذها بين ذراعيه وقال بلهجة الواله : كلمة قبول . . فتكونين سعادتي . .

رأى الكونت أن يتحصل على تقرير الطلاق وبذا يفوز بأمنيته ويحوز درة نادرة فقال : تشجعي فاني آخذ على عاتقي كل شيء يهمك أمره . فتدعين منذ الساعة بالكونتيس بومي صاحبة الأمر في قصري . . .

عندئذ حل الكونت عنان جواده واعتلى صهوته وودع تريز ثم سار في الطريق المؤدي إلى قصره فشملته تريز ببصرها ولما عادت إلى منزلها أوقفها القبطان منذهلا وقال : من أين أنت آتية ؟

— من الصخرة

— منفردة ؟

فلم تجب بل أطرقت برهة ثم ذهبت إلى غرفتها وقد تبدلت ملامحها فأظلمت الدنيا أمامها وشرعت في البكاء تقول : طفلاي . . . جان . . . ريموند . . . أينكما ؟

الفصل الحادى والعشرون

الطلاق

بعد مضي شهرين من زيارة الكونت لصديقته أعلنت المحكمة قراراً يتعلق بطلاق المدعوان جون دوون وتريز تونيليه لترك الأول الثانية بدون سبب يذكر

لم يكن لهذا التقرير ضجة في البلاد بل سر أهالي نيفر لعلمهم بأن الكونت سيعود إلى قصره وينعم على فقراء البلدة كما كان يفعل قبلا

أقام الكونت في قصره أياماً قليلة ثم أخذ معه بضعة من الخدم وقصد بنفسه أكواخ الفقراء والمعوزين وصار يوزع عليهم ما يلزم لكل منهم على قدر حاجته

ففي ذات يوم عانقت تريز والدها وأظهرت له عطفاً زائداً ورجته أن يسمح لها بالذهاب إلى باريس فقبل . . .

وبعد مضي عشرة أيام أراد الكونت أن يقترن بتريز فلم تقبل الكنيسة الجامعة فاضطر أن يعقده عند كاهن أمريكي وسر لحصوله بهذه الوسيلة على تلك المعبودة الجميلة . . . .

بعد حفلة الزواج بيوم قصد العروسان جبال لبنان المشهورة بنقاوة هواءها وقضيا شهر العسل تحت سمائها حتى فصل الخريف من عام ١٨٧٩ حيث عادا إلى قصر بوسي وعاشا مغبوطين بالراحة والطمأنينة

ومنذ ذلك الحين انتشر خبر زواج الكونت في هذه البلدة فوصل إلى مسامع الدكتور ربول الذي اندهل من هذا الانقلاب السريع فأخذ قلماً وكتب إلى صديقه الرسالة التالية :

عزيزي جون

طيه آخر رسالة تحتوي على الرد النهائي لشركة فريبورج . وتجد بعد تلاوتها أنه لم يبق لدينا رجاء بايجاد الطفلة التي نبحث عنها منذ عامين

تريز ليست طليقة فقد تحصلت على تقرير طلاق رسمي ثم تزوجت بالكونت بوسي لا بريل فتم لها بذلك قضاء مطامعها وهي تقطن الآن في قصر بوسي الفخم كان لزواجهما ضجة في البلدة ولم نعلم كيف تم العقد لأن الكنيسة لم تقبلهما

كانت تريز تسعى أن تنتحر فأنقذها الكونت من الانتحار وقد قص عليّ ذلك والدها فتأثرت لكني أخفيت تأثري . فسألني عنك فأخبرته أنك في أمريكا فحزن لأنه كان يحبك محبة عظيمة وألقى عبء الهفوة على إبنته لكنه قال بعد تفكر : فهي بالرغم من ذلك صافية النية

وتحدثنا أمس عنك وإذا بتريز قد دخلت علينا بملابس الخيالة فعانقت والدها فاعتقدت أن وجودي بينهما يعكر صفاءهما فأردت أن أنسحب فالتفتت نحوي وأشارت إليّ بعينيها الساحرتين فجمدت على مقعدي كأني أصبت بسلطة التيار المغناطيسي الفتان . . .

وما وقع بصرها عليّ حتى خلتها تعلم شيئاً مما يكنه فؤادي فتاقت نفسها لتسألني عنك لكن الحياء والانفة منعاها فشعرت بخطائها وكادت تجهش بالبكاء لكنها قامت مسرعة وتوارت لئلا تظهر أمامي مضطربة أو مكتئبة

تشجع ياجون لان ماضيك ظنون وحاضرك ظلمات فوطد عزيمتك على المستقبل

أصافحك عن بعد مصافحة الاخوة الصادقة . . . صديقك القديم

الدكتور ربول

وتليها رسالة من شركة شارع الانتصار الموقرة هذا نصها :

سيدي

لقد أرسلنا مندوبين من طرف شركتنا إلى بريطانيا أحدهما إلى أقصى جهة منها والآخر إلى أقرب جهة فجاباها طولا وعرضاً فلم يجدا امرأة تدعى بالاسم الذي نوهتم عنه . وقد ضاعفنا البحث فلم نجتن فائدة مما حملنا على إبداء أسفنا والاقرار بفشلنا وهذا لم يكن قط من عوائد شركتنا لان مساعينا تكلل دائماً بالنجاح

واقبلوا فائق احترامنا واعتبارنا لشخصكم الكريم ؟

عن شركة فريبورج وهوشار

فريبورج

عاد كل من فريبورج وهوشار وبوسكاري زعيم المهمة ولما استقروا في غرفة الاول قال هذا لبوسكاري : لابد أن بين القضيتين علاقة ؟

— وما الفائدة من هذا الاستنتاج ؟

— لا شيء سوى أن الدجاجة ستبيض أقراصاً من الذهب

— لكنها بعيدة عن مطامعك . . .

— هل بحثت جيداً ؟

— بحثت في جميع قرى بريطانيا وأكواخها حتى الضياع الحقيرة

— فلنختم إذاً على هذه القضية ؟

— فلنختم عليها كأنها لم تكن . . .

انصرف بوسكاري وهو يترنم بهذه الكلمات : سوف أتمكن بنفسي من هذه الاقراص لتكون لي

انتهى الجزء الأول

الجزء الثانى

إبنة ذات الملايين

الفصل الاول

بعد مرور خمسة عشر عاماً

في يوم ١٢ مايو سنة ١٨٩٤ وقفت عربة قديمة أمام كوخ في شاتلون وترجل منها مسافر فأسرع غلام لمقابلته وسأله : هل فوكار هنا ؟

فأجابه الغلام — نعم ياسيدي

— هل هو في صحة جيدة ؟

— على ما يرام

وكان فوكار صاحب الكوخ جالساً على مقعد من القش . أما الخادمة جيرارد فلم تزل على ما كانت عليه قبلاً من القوة والنشاط مجتهدة في عملها المنزلي

فتقدم المسافر الى صاحب الكوخ الذي كان يستنشق رائحة اللحم المشوي ووضع يده على كتفه وقال بصوت خافت : أنا هو ...

فالتفت الشيخ فوكار ونادى جيرارد فاقتربت منه فقال : هل أنا مخطئ ... أليس ضيفنا هو جون ردون ؟...

فقال المسافر : أنا هو جون ردون ابنكم المطيع

— لا أصدق ما تقوله

— هل نسيتني ؟

— مضي ردح من الزمن لم نسمع من أخبارك شيئاً يدلنا على وجودك ...

فمد الشيخ ذراعيه وعانق جون وقال : هل نجحت أعمالك ؟.. هل صرت سعيداً ؟..

— لقد نجحت بحمد الله ...

فقال الشيخ لجيرارد : أعدّي الطعام فاني جائع

فأعدت جيرارد المائدة وتركت الرجلين على انفراد . واستمر الشيخ في حديثه سائلاً : كم لك من الزمن هنا ؟

— ثمانية أيام فقط

— أين كنت قبلا ؟

— في مجاهل أمريكا

— هل كنت هناك كل مدة غيابك عن فرنسا

— نعم

— وشؤونك الداخلية

— ناجحة

— إلى أين أنت ذاهب الآن ؟

— إلى شاتوشينون

— من تقصد هناك ؟

— كاتب عقودنا المسيو بوشين

— هل كانت لك مكاتبات مع أحد في فرنسا في مدة هجرانك

— نعم

— لكن أنباءك لم تكن تصلنا ؟

— كان ربول يراسلني أربع مرات في العام

— من هو ربول ؟

— هو صديقي القديم في الكليه . فقد أخذ على عاتقه مهمة تتعلق بي فكانت تصلني أنباء منه ومن الأقرباء والأصدقاء . لم أراسلك لأني لم أرغب أن يعلم أحد أين مقري على اني ما فتئت أفتكر بك ...

— ولم أنت ذاهب إلى مكتب بوشين ؟

— لشغل بشأن مزرعة سوفاجير التي ستشهر غداً للمبيع

— ستشتريها أنت ؟

— إذا تيسر لي شراؤها

فأبرقت أسرة فوكار وقال : أنت غني إذاً ؟.. إنما اعلم إن مزرعة سوفاجير تساوي الآن أضعاف ما كانت تساويه قبلا ...

— لقد عاينت الاعلانات وفهمت ما تساويه تقريباً

— لقد كانت فائدتك من الرحلة جليلة على ما يظهر ... فهنيئاً لكما

— من تعني سواي ؟

— تريز ...

— لا تخاطبني بشأنها ...

— وماذا يضرك ذكرها وبينك وبينها مرحلة واسعة ؟..

— لأني لا أريد أن أسمع عنها شيئاً

— حسناً . ألا تعلم ان الأمور قد تطورت ... وقد تزوجت الكونت بوسي الذي توفى أثر حادثة وهي الآن أرملة ...

— نعم علمت انها ترملت منذ عامين.

— يسرني انك عالم بكل شيء ...

— كان للطبيب ربول حظ بمعاينة الجثة في القصر وإثبات حدوث الموت

— لقد زلت قدمه فهوى إلى الصخور حيث تحطم رأسه ومات لساعته . فكان لفقده وقع في نفوس أهل القرى المجاورة لحسناته العديدة

— سامحني إذا قلت بأن هذه الحوادث المحزنة لا يسرني سردها . . . فلنبدأ بالأكل . لقد أقسمت ألا أهتم بشأن تريز ورجوت ربول أن يكتم ذكرها في رسائله . تلك المرأة المدهشة التي تعلق بأذيالها ثلاثة أضحى أحدهم محتاراً وهو أنا والثاني شهيداً وهو الكونت بوسي والثالث حزيناً وهو المركيز دي بورد ..

— من أبلغك هذه المعلومات ؟

— لويس روبول الذي قابلته في باريس ..

— ألا يزال في خدمة المركيز ؟

— بلى

— ألا تزال حاقداً على تريز ؟
— أجل . إلى آخر نسمة من حياتي ...
— كيف يقال إنك رجل صالح إذاً ؟
— وا أسفاه . لقد كنت قبلاً صالحاً . أما الآن فلست ذاك الرجل ...
— لا أعتقد ذلك
— لأنك لم تحط البتة بكروب الحياة مثلي ... دعنا من هذا الحديث المؤلم ...
— مادمت مقيماً هنا فلا بد أن تعود إليك الذكرى ؟ وقد تقابل تريز يوماً
— شوقي إلى بلادي حملني على العودة إليها . لكني سأغادرها آسفاً متى انقضت شؤوني منها
— وطفلتاك ؟.. لم تحدثني عنهما ؟ لا بد انهما أصبحتا شابتين جميلتين مثل تريز ... أين هما الآن ؟
— جان عند أحد الأصدقاء في باريس
— والأخرى
— لا تسألني عنها
— هل توفيت ؟
— لست على يقين
أحضرت الخادمة القهوة فأخذ جون نصيبه
بعد خمس دقائق بينما كان جون يتأهب للقيام أوقفه فوكار قائلا : اصغ إليّ يا جون ولا تفكر في الرحيل . اختر لك زوجة تقاسمك بقية أيامك فتقضيها بعيداً عن الكروب ... وتكون هي والدة لابنتيك وتسعفك في محو الماضي وتأسيس المستقبل
— لا أريد زواجاً آخر
— إذاً عد إلى البلاد التي أتيت منها ولا تتمنَّ أن تعود يوماً أو يكون المفرق بينك وبين تريز الموت
— تريز غريبة عني على كل حال ... فالوداع . الوداع

فيما كان جون يتأهب لركوب العربة قال فوكار لجيرارد : تذكري ما قلته لك . إنه لا يزال يصبو إلى امرأته بالرغم من اشتداد الحقد بينهما . ومن يعش ير

الفصل الثانى

سوفاجير

كان بوسين قد انتهى من تناول الطعام بعيد الظهر فقصد إلى مكتبه وأخذ ينظر إلى المارة من نافذة غرفته

لم تمض خمس دقائق حتى وقفت عربة فخمة أمام داره وترجلت منها امرأة حديثة السن بثياب الحداد

فاستعد بوشين لاستقبال زائرته ولما دخلت قال : سيدتي الكونتيس

فدخلت وجلست على كرسي فخم . فقال بوشين متأدباً : لم أعتقد أني سأتشرف اليوم بمشاهدة سيدتي .. ما ترغبه سيدتي الكونتيس أقضيه بدون تردد ...

— لقد اشتهرت سوفاجير ؟

— نعم . وهل ترغبين شراءها

— بدون شك

— ألا يؤلمك ذكراها ؟

— لقد جف جرحي ...

— يدهشني أن تشتري مزرعة حقيرة وأنت مالكة قصراً فخماً

— إني مدينة لسخاء زوجي الراحل

ثم مسحت دمعة كادت تسقط من مقلتها فقالت : أريد سوفاجير ... لتقطن بنتاي فيها بعدي ...

— ألا تزالين تفكرين بهما ؟
— نعم . فما هو السعر المتفق عليه ؟
— سأكون لديك بعد برهة

دخل بوشين إلى غرفة مجاورة كان فيها جمع غفير من الهواة فأخذ يشرح لهم أوصاف عن القرية ومزاياها . وكانت تريز في الغرفة الأخرى تسترق النظر من خلال الباب . وعند ما ذكر اسم ردون أثناء الحديث ارتعدت فرائصها . وانتظرت حتى بلغ ثمن المزرعة ثمانمائة ألف فرنك ...

بعد عشرين دقيقة بلغ ثمنها تسعمائة ألف فرنك وكانت صاحبة القول الأخير الكونتيس بوسي (تريز)

وفيما كان الجمع صامتاً إذا بقادم جانبي لم يعره الجمع التفاتاً لكنه أشار بيده لايقاف المبيع وقال : أزيد على الثمن الأخير خمسمائة فرنك

عندئذ اهتزت أعصاب تريز لسماعها هذا الصوت وخرجت من الغرفة فصادفت جون وجهاً لوجه فأخفى كل منهما اضطرابه

احترق بوشين الجمع واقترب من الكونتيس وقال :ألا تزايدين هذا الرجل ؟
— كلا
— إني أجهل إسم هذا المنافس ... فهل في إمكانه دفع القيمة المتفق عليها ؟
— أما أنا فأعرفه وأضمن دفع المبلغ ...

هنا انتهى الحديث فقال بوشين مخاطباً جون : إتبعني إلى مكتبي

فدخل جون وراء بوشين فصادف تريز واقفة فاعترته رعشة وتصبب العرق على جبينه . فقالت الكونتيس ببرود : سأنتظرك حتى الخامسة في فندق الأسد الذهبي ...

فلم يجب جون بل اقترب من مكتب بوشين الذي قال له : سأعطيك نسخة العقد بعد برهة . فهل تتشرف باسمك الكريم ؟
— ألم تعرفني بعد ؟
— بل لم أرك قط ... بل ... ألست المسيو جون ؟
— أنا هو جون من سوفلي ...

— فهمت الآن . يظهر أن أشغالك نجحت في أمريكا ؟

— وأحمد الله على ذلك

دخل بوشين إلى غرفته الخصوصية وترك جون على انفراد

ولا بد ان القارئ يتساءل فيقول : لماذا أتى جون إلى فرنسا ؟

لماذا أراد أن يشتري مزرعة سوفاجير ؟

لماذا لم تقوَ تريز على مقاومته ؟

لماذا صعد الدم إلى رأسه حين قابلها وجهاً لوجه ؟

فأجيب : أتى إلى فرنسا ليرتشف كأس الانتقام ويروي غليله ... لماذا لم يفكر بذلك من قبل ؟.. خمسة عشر عاماً مضت وهو صابر على حقده حتى أذنت الساعة الرهيبة وحانت ساعة الكونت بوسي الأخيرة فأسفت تريز لفراقه وتأهب جون للعودة إلى وطنه العزيز

إحتمت تريز طول هذه المدة بظل الكونت بوسي وشريعة الزوجية فلم يتمكن جون من العودة لمناقشتها الحساب

بعد خمس دقائق ظهر بوشين ثانية فأخذ جون قلماً وأمضى العقد ثم أعطاه حوالة على بنك فرنسا بثمن المزرعة مضافاً إليها الفوائد وانصرف إلى فندق الأسد الذهبي ولما وصل إليه استدل عن غرفة الكونتيس بوسي

طرق باب الغرفة نمرة ٣ فخرجت له خادمة فسألها جون : أين سيدتك ؟

— في غرفتها

— هل تسمح لي بالدخول ؟

— بل هي تنتظرك بفارغ الصبر

دخل جون فقالت الكونتيس لخادمتها : إذهبي إلى الحوذي ومريه بأن يهيئ العربة . فأطاعت الخادمة وانصرفت

الفصل الثالث

الإيضاح

كانت روز واقفة أمام نافذة فأغلقتها وقالت : لقد دعوتك لأمر يختص بي دون سواي . أجهل سبب عودتك إلى هذه البلاد . ولا يهمني ذلك و أدعك الآن إلا لتجيبني على أمر واحد ...

— وما هو ؟

— إعلم أن حقي بالوالدية لم يضع ما دمت في قيد الحياة . لم تكتف بأنك هجرتني بل أخذت الطفلتين اللتين أودعت فيهما فؤادي وأحببتهما الحب الجم . . لقد عانيت طول هذه المدة ألم الفراق وتجرعت كأساً من العذاب ، تذقها امرأة قط ... أكلمك عن ابنتي . فأين هما

فأجاب حنا وهو رابط الجأش لا يذهلني عدم تحدثك عني وسؤالك عن أعمالي فقد أصبحت طليقة مغمورة بثروة الأميرات بعد أن اشتهرت بالفضيلة والعفاف ... ولا يسوءك ما تحملته من المكروب بعد أن ألحقت بي عاراً لا يمحى . فجعلت بينك وبين الرجل الذي طردته من منزله حائلاً منيعاً ... لا تنذهلي لأن أعمالي نجحت فالمقادير لا تسمح لكل شقي تعس مثلي أن يثري في بلاد الغربة . . . أسفت لتفريقي بين طفلتين ووالدتهما لكن أسفي زال بزوال الأعوام . عدت إلى فرنسا لأقيم فيها مدة قصيرة لاشاهد عاقبة إنتقامي الذي زاد سعيره على كرّ الاعوام

— إذاً أنت عائد لمدة قصيرة

— نعم . ثم أعود إلى أمريكا

— متى تعود ؟

— ما فائدتك من هذه الاسئلة .. وبيني وبينك مرحلة . . .

— لا تعتقد إني أريد الفتاتين لنفسي إنما أريد أن أستعلم عن صحتهما .. فبالله عليك لا تبخل عليّ بهذه المنة

— إذ كتم هذا الامر عنك أحد .. وإذا أصررت على عزمك أجيبك
— إني صاغية فتكلم ...
— لا تنتظري مني كرماً أو نبالة . لست إلا ابن ملاح يرعى الاغنام وأصبحت بعد هفوتك شقياً طريداً آوي إلى المغاور النائية ويقتات من لحوم الحيوانات البرية ... سألتني عن ابنتيك فأجيبك : الاولى مي وهي جان وقد استوحشت لوجودها معي بدونك مذ غادرنا ثغر الهافر فسألتني عنك فأجبتها : لن نراها بعد اليوم فقد توفاها الله .. إنها الآن في ربيع حياتها
— يا لله . هل قلت لها هكذا
— أجل . وهل كان يمكنني أن أقول غير ذلك ؟ هل كنت تظنين إني أطلعها على الحقيقة وأخبرها إني تركتك مع خليلك . فماذا يكون تأثير ذلك في نفسها وأخلاقها وهي كالشمعة ينطبع فيها أقل أثر
— أنت عديم الشفقة
— هل كان في فؤادك ذرة من الشفقة قبلاً ؟
— لقد كفرت عن ذنوبي بعد مرور تلك الاعوام الطويلة
— لقد زادت ذنوبك في لوعتي وشجوني
— هل يقضى عليَّ بعدم مشاهدة بنتي
— بدون شك
— لن أصبر طويلا تحت لواء هذه الشريعة
— تصبرين مرغمة
— أتعلم ماذا أفعل إذا ضاق ذرعي ؟
— لا أعلم ولا يهمني أن أعلم
— أستعين بالقضاء فيحكم لي بالفتاتين
— لم يحن الوقت بعد لتتمتعي بمشاهدة بنتيك ... تلك الساعة الرهيبة — أعني ساعة القضاء — تكون ساعة نزال عنيف بيني وبين المرأة التي خدعتني .. حينئذ تخير الفتاة بين والدها الذي انتشلها حديثة السن من وهدة الفساد وبين والدتها التي ألحقت بأسرتها عاراً لا يمحى ... وخصوصاً ...

ثم أخذ من محفظته ورقة رثة لقدميتها وأتم كلامه : هذا هو الاقرار المخيف ... سر ولادة الطفلة الاخرى ... طفلة سفاح ... سر زلة لا تمحى ... متى وقع نظر القضاة عليها وعلى الامضاء بخط يدك فبماذا يحكمون ؟

عادت ذكرى الماضي إلى مخيلة الكونتيس فاظلمت الدنيا في وجهها وقالت: وجان ؟ ألا تزال تجهل الأمر

— ما دمت لا تطالبين ولا تلحين عليّ في طلبها تبقى جاهلة

— لم تخاطبني بشأن ريموند

— إحذري أن يسمعنا أحد

— لا يروعني شيء ولا أعتقد أنك أضررت بها . نعم أنت تكرهها لكن ذلك لا يحملك على ارتكاب جريمة ... تكلم . لماذا هذا السكوت ؟

فلم يجب بل ظل شاخصاً في ذلك التمثال الفتان الذي لم تؤثر عليه طوارئ الحدثان . فلما ضاق ذرعها تمتمت بحزن : لقد صدق ظني فانك شقي تعس

فقبض على يدها بعنف وقال لا تفوهي بمثل هذا الكلام لأنك لا تفقهين الحقيقة

— أخبرني إذاً عن كل شيء

— إعلمي إذاً اني بعد مغادرة حدائق التويلري قصدت منزل آل رفين وأودعت عند أحدهم المدعو بليز طفلتك . حدث أن توماس أخاه ارتكب جريمة فقبض عليه وأصدر الحكم عليه فانتحر برصاصة من مسدسه . ثم قتل بليز في غابات شفان . وكان القتيل زوجاً . فتركت أرملته البلاد قاصدة مسقط رأسها في المورهبان في بريطانيا والطفلة معها (طبعاً) ...

وتوقف جون عن الكلام فتشوقت تريز لمعرفة تتمة الحديث فقال جون : لم أقصد الاضرار بها إلا أن المقادر أرادت أن تفقد ... لقد أذنبت بيد أني مستعد لبذل نصف ثروتي في سبيل البحث عنها ... فلا بد من البحث عنها . أما جان فهي لي ولن ينازع أحدنا الآخر . . . ريموند لك ...

ثم أراد الانصراف بعد أن فاه آخر كلمة كانت خاتمة الحديث : الوداع فوقعت الكونتيس خائرة القوى وأخذت تناجي نفسها بهذه الكلمات

المؤثرة : ريموند . أين أنت أيتها الملاك الطاهر ؟... إلهي أرشدني إلى الطريق المظلل بنعمتك المرجوة ... أأكون سبب شقائها وأتنعم في بحبوحة الرفاهية ذلك لا يكون أبداً ...

الفصل الرابع

الرابطة الوثيقة

ركبت تريز العربة فسارت تجد في سيرها حتى وصلت إلى قصر بوسي الفخم نحو الساعة السادسة

كانت ليوني تنتظر سيدتها بفارغ الصبر فلما قابلتها قالت : يظهر أن سيدتي مكتئبة

— نعم . ولكل أمر سبب

— عسى أن تكوني قد توفقت إلى مقر الابنتين !

— واأسفاه ...

دخلت تريز إلى غرفتها وجلست على مقعد بقرب خوان واستسلمت لتأملاتها المقلقة

بعد خمس دقائق قامت تريز والتفتت إلى خادمتها وقالت : ليوني . أأثق باخلاصك ؟

— أترك الحكم لسيدتي في هذا الأمر

— إني في حاجة إلى مساعدتك ... وإلى شخص آخر ...

— بماذا تأمرني سيدتي ؟

— أن تتأهبي للسفر إلى باريس

— متى ؟

— في قطار هذا المساء فتصلين إلى باريس في الساعة الخامسة صباحاً

— سمعاً وطاعة

— ألا يزال روبول في خدمة المركيز دي بورد ؟

— نعم

— قصر المركيز في شارع فيزاندري ... ستلتقين بلويس وتسلمينه رسالة ليدفعها إلى المركيز سراً . سأنسخ الرسالة بينما تتأهبين للسفر ... لا يجب أن تعلم زوجته شيئاً ...

— حسناً

شرعت تريز تخط الرسالة التالية وهذا نصها : —

صديقي

دعني أدعوك هذه المرة بالصديق . اعلم ان زوجي الأول قد عاد من رحلته الطويلة . دعوته إلى مقابلتي وسألته عن ابنتي . فقال إن إحداهما وهي جان معه والأخرى وهي ريموند أودعها عند حطاب يدعي بليز رفين وقد قتل في غابات شافان ومنذ ذلك اليوم لم يسمع عن أرملته (وكانت تجهل أصل الفتاة) خبراً وقد مضى الآن أكثر من خمسة عشر عاماً وأصبحت المسألة نسياً منسياً . هذا ما قاله زوجي ومنذ ذلك الحين أخذ زوجي الأول في البحث عن ريموند إلا إن أتعابه ذهبت سدى إذ لم يعثر عليها

تكاد تدرك مبلغ حزني لدى سماعي هذا النبأ المزعج وقد كتمت ما في نفسي من لواعج الشجون . ولم يتأثر جون ولن أعتقد انه هو السبب في فقدها كما انه ليس برجل وحشي . إلا إن العاقبة ستعود علينا بمرارة الأسى . كيف لا وهي نتيجة صلاتنا اللذيذة ... فلربما ذهبت ضحية أحكام القضاء ... أو هي الآن عائشة تحت ظلال الفقر المدقع ... تعيسة بلا معول ...

كان جون يراسل بليز في حياته مستتراً باسم مستعار لكيلا تلقى عليه الشبهة . وبموت بليز عادت الأرملة إلى مسقط رأسها في المورهبان ومعها الطفلة ريموند والمبلغ الزهيد الذي أعطاه جون لبليز . لا أظنه يسد العوز

لم يتمكن جون من مراسلة الأرملة لأنها تجهل الكتابة ... ولم يبق لعزائي بعد فقد زوجي الأخير غير ابنتي . جان التي تجهلني تماماً وقد أخبرها

جون حينما استوحشت لوجودها بدون والدتها بأني انتقلت للعالم الآخر . فيا لهول الانتقام الذي بدا من جون

وإذا سمحت للتفرس منها هددني أن يطلعها على الذنب الذي اقترفته منذ خمسة عشر عاماً . وتنفر مني نموراً أبدياً

تعزيتي بها أن أراها متمتعة بتمام الصحة وسعيدة راغدة

أما الثانية التعسة فما علمنا بأنها لرحمة السماء .. لا بد من طريقة نسير عليها . أنت صاحب الأمر وأنا القائمة بتنفيذه

غداً اذهب إلى باريس تجدني عند الساعة التاسعة خلف كنيسة مادلين فلا تخيب الأمل كما خيبته منذ نيف وخمسة عشر عاماً ...

صديقتك إلى الأبد

تريز

ختمت تريز الرسالة ودعت خادمها فقالت لها : لا تنسي ما أوصيتك به

— اطمئني

بعد انصراف الخادمة أخذت تريز تناجي نفسها بهذه الكلمات : سأراه غداً وأتمتع بألفاظه العذبة

الفصل الخامس

هناك

في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي بينما كانت الكونتيس دي بوسي تتأهب للذهاب إلى باريس كانت فتاة في الثامنة عشر من العمر مرتدية ثياب القرويات وخارجة من كوخ حقير في قرية لسمون وقفت أمام نافذة هذا الكوخ وقالت : اطمئني يا والدتي وسأعود باكراً . نامي بسلام

مرت الفتاة بجانب البحر المتلاطمة أمواجه على الجبال وبينما كانت تمتع

بصرها بجمال الطبيعة الهادئة قابلها فتى أشقر اللون فقال : أسعدت صباحاً أيتها الآنسة الجميلة . فردت الفتاة عليه التحية وقالت : أين أنت ذاهب يا جيرك ؟

— لأقضي حاجتكم

— ماذا تعمل اليوم يا جيرك

— أصطاد كالمعتاد

— لا تقنط من رحمة الله أيها الصديق . الوداع

— إلى الملتقى

سار كل في طريقه وكان صديق سوزان يدعى جيرك كركافن وهو فتى شجاع لا يهاب أخطار البحار وأمواجه عاري الرأس والقدمين مرتد ثياباً رثة . فأخذ يناجي نفسه قائلاً : « ما أسعدني في هذا اليوم » . وما زالت سوزان سائرة حتى وصلت إلى كوخ الآب كرحوز فقام ذلك الشيخ وقال طرباً : سوزان . أهذا أنت

— نعم . وأعتقد إن إقامتي هنا لا تطول

— لا ريب في ذلك . وسيأتي اليوم الذي فيه تفكرين

— لا أعلم كيف يكون مصيري في رحلتي المتيدة

— الخير دائماً ... ان فضل الملازم بيير لا يقدر لأنه اعتنى بتثقيفك فأصبحت تتكلمين الافرنسية جيداً ...

— وا أسفاه . لم يقم بيير هنا غير ثلاثة أشهر ونصف تقريباً بعد أن غاب نيفاً وسبع سنين

— من أخبرك بذلك ؟

— مدام كردانيل وهي تحب ابنها حباً يقرب من العبادة

— هي امرأة صالحة نقية القلب

— ولكن قد مضى الآن أكثر من عامين وهو بعيد عنا

— كم مرتبك الآن . أظن فرنكين في اليوم

— بل زادت لي نصف فرنك منذ سنتين

— هل والدتك بصحة جيدة

— لم تزل كما كانت قبلا من حيث فقد الذاكرة والغيبوبة

— الفقر المدقع آفة تحيط بنا إحاطة السوار بالمعصم ... ما أحلى الجنة وكم أود أن أنتقل اليها ...

— لا بد لنيل ضالتنا المنشودة من خوض معامع البؤس والفاقة

— هل قابلت جيرك هذا الصباح ؟

— نعم

— جيرك طيب الأخلاق حسن السيرة ومثال الشبان الأدباء

أدركت الفتاة انها قد تأخرت عن الميعاد المعتاد فانسحبت وهي تقول : لقد تأخرت إذ يجب أن أصل الساعة الثامنة

— إلى الملتقى هذا المساء يا بنية

أشمل الآب كرجوز غليونه . . وأخذ يتمتم قائلا : الجميع هنا يعتقدون ان سوزان ابنة ايفون تريفن وأنا أعتقد خلاف ذلك ... لقد مضى على هذه الحادثة خمسة عشر عاماً ... ربما كانت ابنتها حقيقة ولدتها سراً وأخفت أمرها خشية الفضيحة

سارت سوزان بين الصخور المتجمعة على شاطئ البحر والتي تكون جبلاً اصطناعياً حتى وصلت إلى كردانيل ذات البناء القديم المشيد من حجر الجرانيت ويرجع عهده إلى القائد الشهير والبطل الصنديد دوجكلان وقيل إن عائلة كردانيل من سلالة ذلك القائد

يبلغ عمر الملازم كردانيل تسعة وعشرين عاماً وهو قائد فرقة وملازم في تونكين أما والدته فتقضي أوقات الفراغ في الصلوات والتضرعات

دخلت سوزان وقالت مخاطبة إمرأة طاعنة في السن جالسة على مقعد من الخشب : لقد انشغلت بحادثة الآب كرجوز فتأخرت قليلا

— بماذا حدثك لعلها أمور تسرك

— لا شيء مهم

كانت مدام كردانيل ترعى سوزان بنظراتها المملوءة حنواً وعطفاً وكانت هذه تقوم بعملها المعتاد . فقالت تلك السيدة العجوز : وصلتني أنباء من صديقتي التي في باريس

— مدام رامل ؟

— نعم . وهي التي كانت قبلاً لا تملك شيئاً أما الآن فقد أصبحت من شهيرات صانعات الأزياء النسائية في باريس ... لقد اقترضت مني مئة فرنك كانت في احتياج اليها فأرجعتها إليّ وهي حافظة الجميل في كل وقت ... لا يغرب عن بالك إنك إذا احتجت يوماً إلى مساعدة فاطلبيها منها وهي لا تتأخر ... إنها تقطن في شارع السلام في باريس ...

كانت مدام كردانيل تفكر في عودة ابنها لأنه كان تعزيتها الوحيدة بعد فقد زوجها الذي أصيب بحمى في جزائر المارتينيك فقضت عليه بعد ساعتين وذلك منذ أربعون عاماً ونيماً

في الساعة الحادية عشر أعدت المائدة وإذ ذاك طرق الباب وكان الطارق نسيس القرية وهو طاعن في السن ذو لحية بيضاء ومرتد ملابساً قديمة وقبعة غشاها الغبار وفي يده عصا . فصاحت سوزان لرؤيته : لقد أتى راهبنا ...

جلست سوزان إلى جانب الراهب مواجهة لمدام كردانيل . وفيما هم يتناولون الطعام إذا ساعي البريد دخل وحياهم بلطف ثم أخرج من محفظته رسالة مطبوعاً عليها إسم وزارة الحربية

أخذت مدام كردانيل الرسالة وفحصتها بإمعان ثم فضت الغلاف ولم تكد تأتي على بضع كلمات من الرسالة حتى اهتزت أعصابها وامتقع لونها فوضعت يدها على رأسها وقالت بتأوه : إلهي . .

وضعت الرسالة أمام الراهب وقالت : اقرأ . . . لا يمكنني ... لا أرى شيئاً . .

أخذ الراهب الرسالة وقرأ ما يأتي :

سيدتي

نخبرك بمزيد الأسف والحزن نص رسالة برقية وصلتنا من تونكين : ان نجلك الملازم بطرس كردانيل أصيب بجروح بليغة بينما كان يطارد الأعداء في ضواحي لاوباج

لذا أقيم لمعالجته نطس الأطباء فنرجو أن يعود إلى الصحة وسنبلغك عن حالته لدى أي تغيير

نأمل أن تثق أيضاً بشعورنا وواجبنا نحوه ؟

عن الوزير

امضاء ملتبس

كان لهذا النبأ وقع في فؤاد الأرملة الثاكلة وعبثاً كان الراهب يحاول تسكين روعها بكل كلمات التعزية المرجوة لشفائه

فما كان منها إلا أن تحسب : إن نفسي حدثتني بوقوع المصاب ولا فائدة من التعليل . لقد اشتممت رائحة الموت من خلال هذه الرسالة المفجعة

جمد الدم في عروقها فثبتت مكانها وهام بصرها في الفضاء وطنت أذنها ونبض قلبها بغير انتظام وتوتر ذراعاها

فصاح الراهب بيأس : لقد أصيبت بشلل ... أسرعوا بالطبيب ...

فتبسمت تبسم القانطة وقالت : ما فائدة الطبيب . أليطيل أيام حياتي أم يقصر مدى آلامي

وعند الساعة الثالثة فتحت الأرملة عينيها وأشارت لسوزان بأن تقترب منها وقالت بصوت متهدج : ستصبحين بلا معين . ولن تلذ لك الاقامة في هذه البلاد ...

وأومأت إلى الراهب مشيرة إلى خزانة ففتحها وأخرج بعض أوراق مالية بقيمة ستمائة فرنك فقالت : هذه لك يا سوزان . ليتني أمتلك سواها

ثم ظهر التأثير على محياها فانقلبت على فراشها واهية القوى

عند الرابعة استيقظت ولكنها يقظة الاحتضار الأخير فقالت بصوت متقطع : كارو ... لين .. اقصديها ... في باريس ... من قبلي ... فلا تردك خائبة ...

رقدت الأرملة رقادها الأبدي . وذهبت روحها إلى خالقها ...

وظهرت هيبة الموت على محيا المائتة فلم يتغير وجهها بل ظل محافظاً لرونقه كما كان في الحياة

في غد اليوم التالي سار جماعة من القرويين فواروها التراب في مقبرة كردانيل آسفين

عادت سوزان بعد أن بكت بكاء مراً وشرعت تكتب رسالة إلى بيير كردانيل

وبعد يومين خرجت من المنزل حيث كانت عاملة أكثر من ستة عشر عاماً

فسارت إلى كوخ أرملة بليز وحالما وصلت التفتت نحوها وقالت : إلى أين ذاهبة ؟ فعانقتها سوزان وصعدت الزفرات وقالت : الوداع يا أماه . . .

— ستعودين ولا شك ؟...

— نعم

تركتها سوزان وذهبت إلى لندفن حيث قابلت الآب كرجوز في كوخه الخاص بالقرويين فقالت له : أريد أن أحدثك شيئاً يتعلق بوالدتي

ثم وضعت مائة فرنك على الطاولة وقالت : ستعتني بها وتقوم بما يلزم لها

— أعدك بذلك

— ويسرني أن تواصلني بأنبائها

— حسناً

فتأوهت سوزان وقالت : لقد أدركت الآن إني لم أخلق لأكون سعيدة

— من يعلم ؟ الرجاء خير علاج

— إني خائفة

— أقيمي بيننا إذاً ودعي عنك أهوال ومشاق الأسفار

— أنت تعلم جيداً أن الاقامة هنا أصبحت لا تليق بي

— اذهبي بسلام ولتصحبك العناية الالهية. ولا تقاطعينا

— سأواظب على ودادكم

— إن لم تطب لك الاقامة فهل تعودين ؟!

— بدون شك

— إن المسافة بين لندفن ومحطة أوري ستة فراسخ

— سأقطعها ماشية

ودعت سوزان الآب كرجوز وسارت حتى قمة الصخور المجتمعة على شاطئ البحر فسرحت بصرها لآخر مرة إلى القرية والبحر . ولما تذكرت والدتها (أرملة بليز) سكبت العبرات وبلغ منها التأثير منتهاه فحولت بصرها ودهشت إذ رأت صديقها القديم وقالت بصوت خافت : جيرك . . . ماذا تصنع هنا

— جئت لوداعك

— كيف علمت إني مسافرة ؟

— تبين لي إنك ضجرت من الاقامة في لندفن

— لماذا ؟

— لأن المعيشة هنا لا تليق بك ... أنت ذاهبة إلى أوري ؟

— نعم

— إلى أين تقصدين ؟

— إن مدام كردانيل أوصتني أن ألجأ إلى إحدى صديقاتها لتعتني بي...

— أتودي أن أرافقك إلى مسافة من الطريق

— والصيد ؟

— لقد أبلغت سيدي بأني لن أعمل اليوم ... إن أفكاري مشتتة

— ما سبب تشتيتها

— شجون ...

— أتشكو ألماً ؟

— منذ زمن يسير ... لقد حان الوقت لأقدم نفسي إلى الجندية

— أيكدرك أن تكون جندياً مدافعاً عن بلادك ضد غزوات الأعداء

— كلا . إلا أني أفكر فيما إذا كنت تحتاجين إلى مساعدتي يوماً ولا أكون لديك ...

— فتبسمت سوزان وقالت : إن صداقتك نادرة بين الشبان أمثالك

تذكرت سوزان الملازم بير وكيف كان شفوقاً عليها فلم يهمل تربيتها

وتثقيفها فذرفت الدموع بحرارة . فقال جيرك عطماً : لا تبكي لأن البكاء يوهن قواك

كفكفت سوزان دموعها وقالت : يجب أن نفترق ولا ترافقني إلى أوري

— الحق أقول لك انه لا تمكنني الاقامة في لندن بدونك

— وبعد ؟

— جمعت كل مالديّ من الدراهم وهي تبلغ اثنين وثلاثين فرنكاً لنفقات السفر وحيث أصل أبحث عن عمل ...

— وإذا لم تجد ماذا تفعل ؟

— أعود متى رأيتك سعيدة ... أتودي أن أكون لك رفيقاً سميراً في رحلتك ؟

— لم لا ... لكني أفضل أن تبقى في لندن

— فسكت قليلا وما زالا سائرين حتى وصلا إلى أوري فاقترب جيرك من نافذة صغيرة وقال : تذكرة إلى باريس في الدرجة الثالثة ؟

— أربعة وعشرون فرنكا

— فطفح وجه جيرك سروراً ودفع القيمة المطلوبة

بعد ساعة من الزمان غادر القطار أوري وسار يقطع الغياض والترع والمستنقعات

كان الليل قد ذهب منه شطراً وكانت سوزان في سبات عميق

بقي جيرك طول الليل ساهراً ولم تغفل عينه لحظة لحراسة سوزان التي يحبها محبة عظيمة ولما بدت بشائر الصباح وضع يده على يدها فاستيقظت وقالت : لقد وصلنا

فلم يفه بل أخذ يمتع بصره في تلك المدينة العظيمة وأول ما تراءى له برج إيفل الحديدي المدعو بقوس النجم وأعالي موغارتر

بعد بضع دقائق نزلت من القطار يتبعها جيرك ولم يدريا كيف يتجهان

الفصل السادس

مفاجأة

دخل لويس روبول إلى غرفة المركيز دي بورد وكان جالساً بقرب مكتبه يتلو رسائله الواردة فالتفت نحوه وقال : ماذا تريد ؟

— وردت رسالة لسيدي

— من أتى بها ؟

— خادمة

— ما اسمها ؟

— إن لسيدي معرفة تامة بها ... فقد رآها مراراً عند الكونتيس دي بوسي

— أخذ المركيز الرسالة ولم يكد يطلع على أولها حتى احمر وجهه فقال : لا يجب أن أتلوها

— لا بد أنها مهمة وإلا فلم تكتب ...

— هل أنت مطلع على أنباء جديدة ؟

— نعم عاد ابن عمي وقابل الكونتيس عند كاتب العقود

— في شانوشينون

— نعم

لم يكد المركيز يتلو الأسطر الأولى من الرسالة حتى تغير لونه فسأله روبول قائلا : ماذا حدث لسيدي المركيز ؟

— خطب هائل

— وما هو ؟

فقال : لقد كان لديّ طفلة نشأت عن علاقاتي الغرامية بهذه المرأة التي أحببتها حباً مبرحاً

فقال لويس : لابد أن إبن عمي اعتنى بها مدة رحلتــه الطويلة وأتى بها إلى فرنسا

— كذا كان اعتقادي . ولم أعلم أن ذلك الرجل الذي ظننته حكيما عادلا قد أثقل عبء هفوة والدة على كاهل إبنتها

— ماذا فعل ؟

— ترك الابنة عند أرملة حطاب هاجرت بلادها بعد موت زوجها ولا نعلم إلى أين ذهبت وقد مضى على ذلك خمسة عشر عاماً . يا للهول

ظهر التأثر على محيا المركيز فوضع الرسالة داخل درج وأقفله بعنف وقال: بمن نستعين وما العمل فقد بحث غيرنا ولم يظفر بطائل

— لابد أن الأرملة لم تزل على قيد الحياة وإلا لذكر اسمها في سجل الوفيات

— سأفكر في الأمر ملياً . . . . مر باحضار الجواد فأتنزه لترويح النفس . . . .

وقف المركيز بعد انصراف خادمه امام رسم امرأته وقال : لم تخلف أولاداً

سار الجواد يمتطيه المركيز والناس تشيعه بنظراتها ولسان حالهم يقول : انظروا هوذا أسعد الخلق

في تلك البرهة برزت هيفاء معتــدلة ذات عينين ساحرتين من باب غرفة المركيز هي زوجته وقالت : لقد أبكر اليوم وربما كان في الحديقة . . .

عندئذ أطلت المركيزة من النافذة فوجدت روبول فسألته : أين المركيز ؟

— منذ هنيهة خرج والأرجح أنه قصد إلى الغابة كعادته

عادت إلى الغرفة فتمكنت من مناجاة رسم والدة المركيز التي كانت سبباً لسعادتها ونجاتها من الموت

إلا أن أمراً أدمى فؤادها فانها لم تخلف أولاداً طول هذه المدة

كان المركيز فيما مضى مهذار الجماعات وسمير المحافل في الليالي الراقصات أما الآن فقد تحول فرحه وسروره إلى سكينة دائمة فلا يبتسم إلا نادراً بل يعبس كثيراً

كانت هذه الزوجة التعسة تسائل نفسها مراراً عن سبب هـذا السكوت فلم تكن تدري هل انقلب حبه لها أو لم يزل محافظاً على عهوده مرغماً ؟

جلست أمام مكتب زوجها وفتحت درجاً وأخـذت تبحث بين أوراقه فوجدت رسالة حـديثة العهد . فخطر لها أن تتلوها وما اطلعت على الاسطر الأولى حتى اصفر لونها وتذكرت سبب رفض المركيز الاقتران بها أولا ثم قبوله مرغماً

فأخذت قلماً ونسخت الرسالة بحروفها ثم ردتها إلى مكانها وشرعت تفكر في وسيلة لمساعدة زوجها

قامت ومشت ولم تـكد تصل الى عتبة الباب حتى فتح الباب فجأة وبدا منه المركيز فقال مندهلا : أأنت هنا ؟

— نعم . من أين آت ؟

— تنزهت قليلا في الغابة وكانت مزدحمة بالجماهير

— هل شاهدت والدتك

— كلا إنما سوف نلتقي لتناول الطعام

— أين ؟

— حيث تطيب لنا الاقامة ونتحدث بأمور مختلفة

— وخطيرة

فسكت المركيز موجساً . فقالت المركيزة بعد سكوت ممل : أتدري لماذا مكثت زمناً في غرفتك ؟

— كلا ؟ هل كنت تبحثين عن كتاب للمطالعة ؟

— كلا

— هل كنت في انتظاري لحاجتك إلى بعض النقود

— لقد استفصلت من نفقاتك ما يغنيني عن مطالبتك

— أنت مبذرة . . . .

— انتظرتك لأتحدث معك بشأن

— وما هو ؟
— يتعذر عليّ التكلم عنه
— ترعبيني بكلامك هذا
— بل أن تغير ملامحك خلال هـذه المدة قد أرعبني أكثر
— أحقيق ما تقولين ؟
— لابد ان أمراً أقلق راحتك . . .
—والحقيقة !
— تكدرني أن لاتثق بي ولا تأنس إليّ والمرأة شريكة الرجل تشاطره أتراحه وأفراحه
— لا أخفي عليك أن الهرم قد أورثني حب الوحدة والانفراد
— ألا تدري أن مدام بروس أخبرتني بأن من يراك لايقدر لك أكثر من ثلاثين عاماً
— بل أكثر من الأربعين
— أتمدني منذ الآن بأن تستعين بي وقت الحاجة ؟

فلم يجب بل اقترب منها وعانقها بلطف وقال : لقد تجاوزت سن الصبا . . .

— ذلك يزيدني تعلقاً بك . . .
— لماذا !
— لأني لم أر رجلا أخلص لزوجته مثلك

استأذنت المركيزة وانصرفت وهي تبتسم عن نية سليمة فلم يرتب في عدم إهتمامها بمعرفة دخائله

أراد المركيز أن يقصد شركة فريمورج ليستعين بها في ايجاد ضالته لكنه رأى من الصواب أن يقابل الكونتس لعله يستفيد منها ببعض المعلومات

كانت المركيزة تراقب سكنات زوجها بينما كان يتناول طعام الغـذاء دون أن يشعر بها

وفي الساعة الرابعة مساء خرج المركيز مصطحباً زوجته للنزهة في الغابة ولما كانت الساعة السادسة تركته عند باب نادي شارع رويال وعادت إلى منزلها

في التاسعة سار المركيز في ميدان الكونكورد واجتاز شارع مالرب وسوق الزهور إلى أن وصل الى خلف كنيسة مادلين حيث كانت امرأة واقفة ملثمة بلثام ولابسة ملابس الحداد . فاقترب منها وقال وقد زلزلت الرعدة مفاصله : تريز

— نعم

— لقد رجوتني للحضور . .

فرفعت اللثام وظهر وجه الكونتس بأبهى رسم للجمال وخيل للمركيز أنه يرى وجه خليلته الآن كما كان يراها منذ ثمانيه عشر عاماً

فقال وهو يخفي اضطرابه : لقد تلوت رسالتك فشعرت كأن صاعقة انقضت عليّ . أتعلمين حقيقة أمر الذين استعنت بهم لايجاد الطفلة (يعني الفتاة)

— نعم . لأن المسيو ردون قد أرشدني اليهم

— شركة فريبورج . . . .

— نعم

— وماذا كانت نتيجة بحثهم

— لم يستقروا على شيء لكنهم يعللون بالآمال دائماً والقنوط يساورني دائماً

— لا تيأسي ولا يزال لنا بعض الرجاء

— ربما توفاها الله ؟

— لا ندري الآن شيئاً مما يخبئه الله عنا

في تلك اللحظة كانت عربة تسير الهوينا في شارع مادلين القفر في مثل تلك الساعـة وفيها امرأة متوشحة كانت تلاحظ خطوات المركيز وهو سائر الي جنب تريز ولما اقتربت منهما قليلا تبينت على ضوء المصباح الضئيل هيئة الكونتس دي بوسي وهذه المرأة الملثمة هي جبريل زوجة المركيز دي نورد

سارت العربة الى الأوبرا دون أن يحدث مايكدر صفاء الليلة . فترجلت جبريل وذهبت لمقابلة والدة المركيز في حلوتها

لو أصاخت إلى كلمات المركيز الأخيرة وهو يخاطب تريز لزادت شفقتها

عليهما وهي قوله : لقد انفصلنا إلى الأبد . إني أحب جبريل من كل جوارحي ولا تلوميني على ذلك لأنها ملاك الرحمة والمودة الخالصة . أما غرامنا فتوقف على محبة طفلتنا وعسى أن نجدها . الوداع ...

وأدنى المركيز يد تريز من شفتيه بسرعة ثم تركها تشفعه بنظراتها حتى انزوى في عطفة فوقفت ساكنة تسترجع إلى ذاكرتها الماضي

ركبت تريز العربة وقالت للحوذي : شارع فيزاندري

ودخل المركيز إلى خلوه الأوبرا فقالت زوجته : من أين أنت آت ؟

— كنت أتنزه في شارع مادلين

عند انتهاء التمثيل ركبوا العربة فسارت بهم إلى المنزل ولما اختلى المركيز بزوجته قالت : يظهر أنك مكتئب

— كلا

— لا تنس أن تستعين بي لايجاد دواء لدوائك

وبينما كان المركيز يتأمل في رسم ابنته رعوند كانت تريز تناجي نفس الرسم وهي تذرف الدموع ناجية : أين أنت يا مهجتي

الفصل السابع

السعادة المقبلة

عند السادسة من صباح اليوم استيقظ جيرك وسوزان وأخذا يفكران فيما يجب عمله

عند التاسعة سارا حتى شارع السلام فوقفا أمام منزل فقالت سوزان للبواب : أين تقطن مدام رامل

— في الطبقة الثانية والباب إلى جهة اليسار . ماذا تريدين منها؟

— محادثتها في أمر

— بصفة خادمة ؟

— كلا

— طلب مساعدتها

— نعم

— عبثاً تحاولين لأنها جافة الطباع

— إني آتية من قبل إحدى صديقاتها

صعدت سوزان وحدها إلى الطبقة الثانية من الجهة اليسرى وطرقت باباً ففتحه رجل طاعن في السن وقال : من تريدين؟

— مدام رامل

— هل لك معرفة بها ؟

— بل إني آتية بتوصية من إحدى صديقاتها

— هل معك رسالة منها ؟

— كلا ... فقد ماتت منذ مدة قريبة . وهي مدام دي كردانيل . فهي توصية شفهية منها

— والدة الضابط بيير ؟

— نعم

— سأذهب لابلاغ سيدتي

فذهب ثم عاد وقال : هل من زمن أنت مقيمة في باريس؟

— أمس أتيت من المورهبان في بريطانيا

دخلت سوزان وتبعها الشيخ إلى غرفة فجلست على مقعد فسألها : هل فقيرة أنت ؟

— نعم

— أتحسنين الخياطة والقراءة والكتابة ؟

— الفضل لمدام كردانيل في إتقاني كل ذلك

— هل لديك أنباء من الضابط ؟

— قيل إنه أصيب بجروح بليغة فلما تلقت والدته النبأ انفلجت ثم قضت إلى رحمة ربها

— اتبعيني وتشجعي

فتبعته إلى غرفة وكانت كارولين جالسه فقالت لها: اقتربي واخبريني عن سبب مجيئك

ثم فتحت خزانة وأخرجت أشياء كثيرة وأشارت إلى مقعد قريب منها وقالت: اجلسي هنا ياسوروان لنتحدث سوية

— لقد كنت أعتقد يا سيدتي إنك لا تقابلينني بمثل هذه المحبة

— أزيلي هذا الاعتقاد من مخيلتك واعلمي أنك تواجهين صديقة من أخلص أصدقاء مدام كردينيل وممن يقدرون الجميل حق قدره ... تقولين إن مدام كردانيل أوفدتك إلي

— نعم

لا أدري لمَ لم تكتب رسالة .. ألم تخبرك بأني مدينة لها

— كلا . بل أخبرتني بأنكما صديقتان منذ الحداثة

— مسكينة بريجيت ... لقد كانت فقيرة معدومة ولما احتجت إلى دراهم أعطتني كلما تمكنت جمعه . لقد توفيت ؟

فجأة

— لقد أخبرني بذلك جوزيف الخادم . اخبريني عن تفاصيل ما حدث

— كنت أذهب كعاملة كل يوم إلى منزلها . وذلك منذ عشر سنوات على التوالي

— لقد نشأت إذاً في لندفن ؟

— كلا . فقد نزحت إليها حديثة السن

— من هي والدتك

— الأرملة إيفون تريفن

— لنعد إلى مدام كردانيل . تممي حديثك

— كنا نتناول الطعام مع راهب القرية وإذا بساعي البريد أتى وفي يده رسالة من وزارة الحربية خلاصتها أن الملازم بيير أصيب بجروح بليغة ونرجو شفاءه الخ

— هذه كلمات تعزية

— وكانت تحب ابنها حباً عظيماً فانفلجت للحال وتوفيت بعد ساعتين . وكانت تريد أن تكتب رسالة لكنها لم تقو ...

هنا توقفت سوزان عن الكلام فكانت دموعها تنهمر بغزارة

فقالت كارولين : ما اسمك ؟

— سوزان

— إسم جميل . وما لقبك ؟

— لا أعلم

— كيف لا تعلمين وقد أخبرتني منذ برهة أن والدتك هي إيفون تريفن

— الحقيقة إنها ليست بوالدتي الحقيقية بل هي مربيتي ولم تخبرني شيئاً عن نسبي

— لله منها . أحق هذا ؟

— لا وإذا فقدت رشدها وأنا صغيرة ومنذ ذلك الحين لم أعلم شيئاً . وكنت أقوم بأودها من مأكل وملبس وخلافهما . ولولا مساعدة مدام كردانيل لنا لأصبحنا في حالة عسرة

— إعلمي إذاً إنك سترتاحين هنا أكثر

— إني واثقة بكرمك يا سيدتي

— كم معك من الدراهم ؟

— أعطتني مدام كردانيل ستمائة فرنك . أعطيت منها مائة لمن سيمتني بوالدتي وبقي معي أربعمائة وخمسين

— أنفقي مائة وخمسين لشراء ملابس جديدة لك

— والباقي ؟

— احتفظي به للمستقبل ولمساعدة والدتك ...

— لا يمكنني إظهار مبلغ إمتناني لك

— هل لك معرفة بأحد في باريس ؟

— شاب فقير من لندفن رافقني في سفرتي

— وما غرضه من المجيء إلى باريس ؟
— أتى مثلي ليبحث عن عمل أو ينخرط في سلك الجندية
— كم يبلغ من العمر؟
— حوالي العشرين
— أين يقيم الآن ؟
— ينتظر إشارتي في الشارع
— ماذا كان يعمل في لندن ؟
— صياد وهو صديقي منذ الطفولة كان يقوم بضروريات المنزل
كانت ملامح سوزان تدل على صدق الطوية فلم تشك مدام رامل في اخلاصها
قرعت كارولين جرساً كهربائياً وأتت شابة في الثامنة والعشرين من العمر ذات شعر أشقر وعينين رماديتين وأنف حاد ووجه طويل
فقالت كارولين : اعتني بهذه الشابة . واجعليها كعاملة مبتدئة . اذهبي إلى اللوفر واشتري لها ما يلزمها من الملابس وغيرها
— حسناً
— لا تشتري بأكثر من مائتي فرنك
— فهمت
ثم أخذت كارولين الآنسة على انفراد وقالت لها همساً : ادفعي ما يزيد على حاجتها من نفقتي الخاصة
ثم التفتت نحو سوزان وقالت : أعطني مائتي فرنك
فأفرغت سوزان القيمة من الكيس وأعطتها لكارولين . فأعطتها هذه لالكسندرين (إسم العاملة) وقالت : استدعي جوزيف إليّ
— سمعاً وطاعة
أتى جوزيف فقالت كارولين : اقترب من النافذة
فاقترب من النافذة فقالت : أترى ذلك البريطاني عند عتبة الباب ؟
— الفتى ذو القبعة الغليظة
— أدعوه إلي في الحال

— سمعاً وطاعة

عاد جوزيف بصحبة جيرك . فقالت كارولين : قالت لي سوزان إنك أتيت لتبحث عن عمل

— أكون سعيداً إن تيسر لي ذلك

— وإذا لم يتيسر

— أنخرط في الجندية

— ألا تأسف ...

— كلا مادمت معتقداً أن الآنسة سوزان لا تشكو حاجة

— ما اسمك

— جيرك

— ماذا تحسن من العمل

— أرتزق من أي عمل

— حسناً . اذهب الآن وعد غداً مع جوزيف

— ومن هو جوزيف ؟

— الخادم المسن الذي أتى بك إلى هنا . سيهتم بشأنك ...

— متى

— عند الثامنة صباحاً

— أشكرك من صميم قلبي

— هل تعرف الشابة ؟

— منذ إثني عشر عاماً

— ماذا تدعى ؟

— سوزان

— ولقبها ؟

— لا أدري !

— من كان يعيش معها

— أرملة تدعى إيفون تريفن أتت بها من ضواحي باريس

— وسوزان ابنتها بدون شك ؟
— البعض ينكر أمرها والبعض الآخر يعتقدون إنها ابنتها
— حسناً . هل معك ما يكفي لنفقاتك
— فرنكان
— فأعطته كارولين قطعة بعشرة فرنكات وقالت : سوزان تقيم هنا .. أين تقيم أنت ؟
— في فندق
— حسناً . إلى غد إذاً
— لم تمض بضع دقائق على انصراف جيرك حتى وقفت عربة أمام المنزل وترجلت منها شابتان تحملان أشياء مختلفة

دخلت الكسندرين إلى غرفتها وتبعتها سوزان : فقالت الأولى اخلعي ملابسك وابدليها بملابس جديدة فتصبحي موضع إعجاب سيدتك

— شكراً ياعزيزتي
— أتحسنين السباحة ؟
— وقد أقضي الساعات الطوال دون أن تكلّ ساعداي
— ألا تخشين بأس كلاب البحر ؟
— أنا التي ألقي الرعب فيهم ... آه لو تدركين جمال المياه الزرقاء وسكون الطبيعة المخيمة على ذلك المتسع الهائل ...

لبست سوزان ملابسها الجديدة واقتربت من مرآة وأخذت تنعم النظر في نفسها

— فقالت الكسندرين : هلمي معي

دخلت الكسندرين غرفة سيدتها وقالت : أقدم لسيدتي فتاة تطلب إعانتها

— من هي ومن أين ؟

ثم تأملتها هنيهة وقالت : يا لله : هذه سوزان إبنتنا

— هي بعينها
— فقالت كارولين لسوزان : لقد أصبحت جميلة . . . ستخبرك الكسندرين عما يجب أن تعمليه

ثم قالت لالكسندرين : هل يوجد في جوارك غرفة لسوزان

- في منزلنا غرفة

— والأجرة ؟

— ثلثمائة فرنك سنوياً

— سأرسل القيمة مع جوزيف وأزيد عليها أيضاً مبلغاً لشراء ما يلزم من الآثاث بحيث تصلح للسكن

— حسناً

ثم قالت لسوزان : لا تقلقي على جيرك فسيأتي غداً ويخدم عندنا

— ما أطيب قلبك ..

— إن ما فعلته كان واجباً واحتفاظاً بعهود الوداد والمودة القديمة

كانت عينا سوزان تفصح عن إخلاصها لكارولين لما فعلته معها من الجميل حتى إن كارولين تأثرت وظهر عليها بعض الحنو الذي تظهره والدة لابنتها فكانت تردد هذه الكلمات : كم يكون سروري عظيماً حينما أتمم فرضاً مقدساً عليّ ... فتسترح رفاتك يا بريجيت ولا تعتقدي إن كارولين تخلف وعداً يوماً ما

الفصل الثامن

الانحلال

كانت شركة فريبورج تضمحل تدريجياً بالرغم من بقاء شهرتها واستولى الضعف على هوشار

وكان الشريكان منذ تأسيس الشركة يحلمان ويرجوان بأن مناجم الذهب ستفتح لهما أبوابها وتجري كنوزها كالأنهار في خزائنهما

دقت الساعة وكان فريبورج جالساً مقطباً مفكراً وقد وضع يده على

جبينه . وفيما هو على هذه الحال دخل هوشار عليه وقال : الأمر ليس كما نروم والأقدار تعاكسنا

— مع إننا لا نعدم زبائن

— ألم تشر لي بأن عملنا سيعود بالأرباح اليسيرة ؟

— كان ذلك ... أتعلم ماذا يجب أن نعمل ؟

— كلا

— أمراً واحداً يكفي لثرائنا

— هل لك ملء الثقة ببوسكاري ؟

— وهل تشك باخلاصي

— أجل

— أنت لا تثق بأحد حتى ولا بنفسك

— أنا أعلم منك بما يجري من الأمور

— وما هو جار حولك يا سيدي

— ألا ترى إن مساعيه تهبط في كل مشروع ؟

— إذا كانت المسألة التي يقوم باعبائها صعبة المنال وغامضة فلا سبيل إلى حلها

واستخرج فريبورج دوسيه « سوزان » وقال أترى هذا ؟

— نعم . لقد خدعت أولاً وآخراً

— لماذا

— لأني شيدت عليها آمالاً واسعة

— بدون جدوى ؟

— طبعاً

— الا ذلك الأمريكي الذي زارنا منذ بضع أيام ...

— يظهر إنه لا يعلن أهمية على هذه المهمة ...

— لا بد إن الذين يعلمون عن الارملة وإبنتها يقطنون في طبقة الأرض السابعة

وانقطعت المحادثة بدخول كاتب يحمل بيده بطاقة

فأخذها فريبورج وقال : أين ذلك الزائر ؟

— في القاعة الاخرى ... ماذا أجيبه ؟

— دعه ينتظرني برهة ريثما أكون قد أنجزت شؤوني

فانصرف الكاتب وبقي الشريكان معاً . فقال فريبورج وهو يقدم البطاقة إلى شريكه أتعلم عنه شيئاً ؟

— فقرأ هوشار

المركيز ريموند دى بورد

ثم قال : أعرفه

— هل هو مثر ؟

— صاحب ملايين

— من عائلة نبيلة ؟

— نبالة قديمة العهد . وأعرق عائلة في سان جرمان

— هل هو متأهل ؟

— تزوج حفيدة الدوق دي بوسي

— كم يبلغ من العمر ؟

— الخمسين تقريباً

— ما بغيته منا

— اذهب اليه وسله عن مراده

ذهب فريبورج إلى القاعة الأخرى وكان المركيز مقطباً فقال : مسيو فريبورج

— نعم سيدي

— علقت منذ مدة طويلة بمسألة خطيرة ...

— بأي شأن ؟

— بشأن امرأة نشأت من المورهبان على ما أظن ...

فجمع الشريك أفكاره الشاردة وقال : أليس منذ خمسة عشر عاماً ؟
— نعم
— وهذه المرأة تدعى إيفون تريفن ؟
— حسناً : وقد اقترنت بيليز رفين الذي قتل بيد مجهولة في غابات قصر فلنتب في ضواحي شانتلي . لديّ جميع تفاصيل هذه الحادثة ... هل لك علاقة بهذه الامرأة
— أبحث عن الطفلة التي أخذت على عاتقها تربيتها والعناية بها . هل كانت من يبحث عنها ؟
— نعم . لكن ابحاثنا خابت ...
— أتعتقد إنه قد انقطع الرجاء ونلتجيء إلى اليأس ؟
— كلا . إذ ليس لدينا أدلة قاطعة بموت هذه الأرملة وابنتها
— ما العمل إذاً ؟
— العودة إلى البحث والاعلان في الجرائد والمحال وقلب باريس والمقاطعات عساعدة بعض الخبراء والاحصاء . ولكي نفوز بأمنيتنا وننشد ضالتنا يجب بذل المال ...
— كم يلزم ؟
حك الشريك رأسه وقد بدأ شيطان الطمع يدب في فؤاده فقال . نحتاج في بادىء الأمر إلى بضع عشرات الآلاف
فقال المركيز وقد شمله بعض الرجاء : لا أهمية للمال مادامت مسألتنا خطيرة . مرادنا نتيجة حسنة . هل لديك رسم للفتاة ؟
— كلا
— لقد استحصلت عليها ...
— أخذ المركيز محفظته الجديدة المكدسة بالأوراق المالية وأخرج منها ورقتين من فئة عشرة آلاف فرنك وأعطاها لفريبورج الذي قال : أتود أن أحرر لك وصلاً بالمبلغ ؟
— لا فائدة من الوصل بما دمت على ثقة من استقامة شركتكم

— على جناب المركيز أيضاً أن يثق بصدق مجهوداتنا التي سنجريها
— لا تبخل في هذا السبيل بل ابذل للغاية التي ننشدها
— حسناً . والصورة

فأخرج المركيز صورة وأعطاها لفريبورج فاندهش إذ رآها وقال : ما أجمل هذه الفتاة

— كان سنها في ذلك الوقت ثمانية عشر شهراً وقد تبلغ الآن ثمانية عشر عاماً

هنا قام المركيز وتأهب فريبورج لتوديعه بما يليق بمقامه فقال : هل تمكننا مراسلتك ؟ وما هو عنوان المراسلة ؟

— إلى النادي بشارع رويال
— حسناً

عاد فريبورج بعد انصراف المركيز وهو يصفق طرباً ويقول : هو والدها بلا ريب

ولم يكد يستوي على مقعده حتى أتاه كاتبه يقول : هنا سيدة تطلب مقابلتك

— ما اسمها ؟
— لم تقل
— ما هي أوصافها ؟
— شابة جميلة في مقتبل العمر
— دعها تدخل

دخلت تريز ورفعت اللثام عن وجهها فقال فريبورج : فلتتفضل سيدتي بالجلوس ولي الشرف بأن تتحفني باسمها الكريم

— فقالت تريز : أنا الكونتيس دي بوسي
— اخبريني عما ترغبين لعلني أساعدك
— لقد كلفت سابقاً للبحث عن امرأة وطفلة . والذي كلفك هو زوجي الأول الذي كان مقيماً في أميركا ...
— وهذه المرأة هي إيفون تريفن ؟

— هي بعينها

— وظلت ابحاثكم على ما أظن بلا ثمرة

— نعم . إذ لم نعلم مصير هذه المرأة ولا أين تقيم ...

— سأخبرك عن الحقيقة تحت ستر السر

— نحن معروفون بالأمانة على الأسرار وشركتنا مقبرة عميقة

— إعلم إن هذه الطفلة هي إبنتي

فقال فريبورج في نفسه : كنت عالماً بذلك قبل أن تخبريني به

— أخذها زوجي بعد هفوتي وبدلا من أن يصحبها في سفرته أودعه عند حطاب و ...

فقاطع حديثها قائلا: سمعت هذا القول من زائر جديد أتى قبل مجيئك بيرهة

— المركيز دي بورد ؟

— هو بعينه

— يجب أن تكتم ما تسارونا به الآن ... ولا تدخر وسعاً في سبيل البحث عن ضالتنا

— وكان بيد الكونتيس غلاف فأعطته لفريبورج وقالت : في هذ الغلاف عشرون ألف فرنك وهي مقدمة المكافأة على ابحاثكم ...

— لكن سيدتي ...

— سيدي ... لا ترفض ... أنفق عن سعة

— اطمأني واعلمي أننا نعد و نفي و ننس ما فهت به الآن

— شكراً لك . هل لك سؤال آخر ؟

— كلا

— ورسائلك تعنون باسمي : الفندق دي بوسي بشارع فيزاندري

— حسناً

— أستودعك الله

— تشجعي يا سيدتي الكونتيس ... وأملي

انصرفت الكونتيس فدعا فريبورج بوسكاري وقال له : هل تذكر سياحتك حول بريطانيا منذ ستة عشر عاماً

— نعم . وحيث أقمت ثلاثة أشهر متنعماً خالياً وجلت في خلالها طول البلاد وعرضها بدون فائدة

— لا أنكر ذلك أتذكر من كانت وجهة بحثنا ؟

— طفلة وأرملة حطاب . . .

— لم تفقد ذاكرتك بعد

— تحقق إني تعبت كثيراً في هذه الرحلة الشاقة . فكنت أكرر السؤال على كل عابر وكل مالك وكل مستأجر :(هل رأيت أو سمعت عن إمرأة حطاب قتل زوجها منذ مدة غير بعيدة ومع هذه الامرأة طفلة تدعى سوزان ؟)

— اعلم إن والدي الطفلة من الأغنياء

— فهي إذاً ؟ . . . إبنة ذات ملايين

— إن والديها يودان لقاءها ولو كلفهما الملايين

— هل لك معرفة بوالدي الفتاة ؟

— كلا . ولكن سيأتي يوم تنقشع فيه هذه السحابه

— ماذا عولت على فعله إزاء مهمة في غاية من الصعوبة ؟

— لا أعلم شيئاً

فمد بوسكاري يده وقال : تكرم علي بضعة من النقود

— فنفحه فريبورج بلويسين وقال بسماحة : خذ هذه النفقاتك وسوف نتحدث بهذا الشأن . . .

فشكره بوسكاري وانصرف وهو يقول في نفسه : ألا تعلم أن عيني لا تغفل لحظة عن مراقبتك

وبينما كان خارجاً قابله أحد زملاءه فقال له : اذا سئل عني فقل أني ذهبت لتناول الطعام

الفصل التاسع

السفر

كان بوسكاري صاحب دهاء وحيل (بحيث يقرد ابليس من ديله) وهو يتناول طعامه عادة في أسفل منزل يقع في منتصف شارع بروفنس

يتحدث العامة في هذه الأيام عن مناجم الذهب فاذا تحسنت حالة أحدهم اعتقد أن الله سيملىء خزائنه بالذهب وإذا وجد أحدهم قطعة من الذهب اعتقد أنه مفتاح كنوز مطموره رصدت باسمه إلى غير ذلك من التأويل المعزية لنفوس الفقراء

الصبر والرجاء هما آفة الفقر والفاقة في ذلك الزمن

بينما كان بوسكاري سائراً إذ وقف بجادة وقال : سأفتح بيدي منجم الذهب والثروة تكون لي فقط

هذا المنجم يتعلق بسور ... ولاستغلاله طريقتان : الأولى : ايجاده الشابة ونيله الجائزة التي تسميه شر العوز

والثانيه : ايجادها ومحاولة امتلاك فؤادها بأي الوسائل فتؤول إليه الملايين التي يأخذها بدون تعب

هل أمر صاحب صعب ؟ كلا . وخصوصاً مع شابة بائسة لا تملك الفرنك

وصل بوسكاري إلى المنزل المعهود ودخله فوجد المائدة معدة بجميع أنواع الأطعمه والأشربه وحولها إثنا عشر نفساً من نساء ورجال ورئيسة المنزل إمرأة خطيطة ذات شعر أصفر

قوبل بوسكاري بالتحية وقال أحدهم . أين كنت ؟ لقد تأخرت فأجاب وهو يضع سبابته على ساعته : خطأ . لقد وصلت بالدقيقة

جلست ربة المنزل وجلس هو بجانبها وأخذا بأطراف الحديث

وكانت شابة في الثامنة عشر من العمر نحيلة القوام وهي ترقص في مرسح أولمبيا وتأخذ مرتباً قدره ثمانون فرنكا شهريا

فقالت وقد تضايقت من انحباس الهواء الفاسد : أكاد أختنق هنا
فأجابتها المرأة الغليظة : أنت تعلمين أن من لا تطيب له الاقامة يرحل
— لست محتاجة إلى هذا الحد
— لو كنت تملكين مبلغاً صغيراً لما أقمت في هذا المنزل
من هو مارسيال الذي كانت تردد اسمه في كل لحظة ؟
مارسيال هو إبن صاحبة المنزل على زعم أكثرية الناس لكن الحقيقة الواقعة لا يعلمها أحد !
دخل مارسيال وتوجه نحو والدته فقبلته وقالت : لقد تأخرت
ثم أخذ يحيي كل واحد ولما وصل إلي فاني (الراقصة) قال بلطف : أخلي لي مكاناً بجانبك لأجلس
فلما جلس قالت له وقد علا وجهها الاحمرار : لقد غبت عنا مدة طويلة
— لقد أصبحت في حاجة الى العمل للارتزاق لأني لا أعتقد وقد بلغت الثلاثين ان ايراد هذا الكهف سيكفيني لتسديد نفقاتي وخصوصاً لشاب مثلي متأنق
— هل عزمت على العمل
— وباشرت العمل أيضاً
لقد قصدت الي غرفة سكناك
— لقد انتقلت منها . . . لا تعتقدي ان المرء لا يشغله إلا غرامه فان أمراً جوهرياً وهو المستقبل أشغل له . لأن السعادة الحقيقية تتعلق به
— قيل لي أنك تنزهت على دراجة منذ أربعة أيام
— وهل التنزه ممنوع ؟
— ولم تكن منفرداً بل مع إمرأة نحيلة بزي أنيق . . . .
— مسكينة أنت لأنك تعتقدين كلما يقال لك . . . إن صداقتي لك لا تجعلني أرتبط معك داعماً . . . تكلميني عن إمرأة لا أعرفها . . .
— أتقسم لي بذلك ؟
— أقسم إذا كان قسمي يسرك . . . لو كنا نريد أن نشعر بالغرام الحقيقي

لتركنا الأقدار تسير في مجراها وبحثنا عما يجعلنا سعداء . لأن الفقر آفة لا تتفق معه السعادة . . . هل تحوزين بعض المال ؟

— نعم . وأنت ؟

— جيبي أنظف من الصيني . . .

انصرف المدعوون فاراد مارسيال أن يحذو حذوهم فناداه بوسكاري قائلا: لا تخرج لأني أرغب في محادثتك لأمر ذي شأن

عندئذ توجه مارسيال نحو فاني وقال همساً : انتظريني عند زاوية شارع لافيت أمام البازار

فظهر على وجه الراقصة بريق أمل وابتسامة جميلة فقالت : تعد وتفي ؟

— نعم . ونتناول الطعام معاً

أقفل مارسيال الباب والتفت نحو بوسكاري وقال : اني لك آذان صاغية

جلس بقرب الخوان وجلست (الغليظة) الى جانبه وقالت : هل اكتشفت منجماً يا بوسكاري ؟

نعم ومنجم مشهور

ثم قال مخاطباً مارسيال : إني في حاجة الى لويسين أو ثلاثة

— وماذا تريد أن تفعل بها

— لأرشدك إلى الوسيلة لاكتساب ثروة . . .

— حسناً وبعد

— اعلم أيضاً أن الأمر يتعلق بشابة بائسة صاحبة ملايين

— كم تبلغ من العمر ؟

— ثمانية عشر عاما . . .

— هل هي جميلة

— ان شابة صاحبة ملايين لابد أن تكون جميلة ولو بالرغم من ظننا العكس

— ماذا يجب أن نفعل

— سأخبرك عند عودتي . . . خمس لويسات لنفقات السفر منها لويسان أخذتهما من فريبورج الشقي

— المسافة إذا بعيدة ؟

— بعيدة جداً . وسأخبرك بجميع تفاصيل سفرتي بعد يومين أو ثلاثة على الأقل

— هل أنت واثق من نجاح مسعانا ؟

— أن التيقظ والصبر هما اللذان سيفتحان أبواب الكنور . . . يجب أن أسافر في هذا المساء

فقالت ربة المنزل : فاني معها دراهم كافية . . .

— ممن علمت ذلك ؟

— سمعت رنين الدراهم في جيبها

فوثب مارسيال نحو الشارع حيث كانت فاني بانتظاره وعيناها شاخصتان نحو المنزل الذي خرج منه . فقال لها متمهلا : أعطني الدراهم التي في جيبك. فلم تتردد فاني لبذل هذه التضحية وأفرغت مافي جيبها فكان خمس لويسات فاخذ منها أربعة ورد الباقي وقال : الى الملتقى هذا المساء . . سأطلعك على الحقيقة فهي تتعلق بمسألة خطيرة الشأن . . .

عند الثامنة ركب بوسكاري القطار القاصد إلى بريطانيا

الفصل العاشر

التسار

بعد مرور خمسة عشر يوماً كان الدكتور ربول يفحص بدقة نمو الخضراوات في حقله الصغير . وقد أمطرت السماء في الليل فقال لخادمه الذي كان في انتظار أوامره : ضع قليلا من السماد في أشجار الفراولة

— سمعاً وطاعة

أخذ الدكتور يتأمل في القاصي من المروج الملأى بالبهائم السارحة والتلال النائئة المغشاة بالاشجار ذات الأوراق العريضة فتمنى أن يعيش في هذه الجهة التي كانت موطن آبائه وأجداده وعاشوا فيها أصحاء بقلوب لا تهاب الموت ولم يرضوا بهموم العالم منها بدلاً

منذ ابتاع جون ردون قرية سوفاجير لم يعد يراه ثانية

وبينما هو يتخيل هذه التخيلات اذا بفتاة في السادسة من العمر وقد تلطخت ملابسها ووجهها بالحلوى أتت تعدو وفي يدها رسالة فأخذها بين ذراعيه وقال : قذره . ألا يمكنك أن تأكلي بنظافة . . .

ثم وضعها على الأرض وقرأ الأسطر الأولى وقال منذهلاً :

إنها رسالة من نيويورك . فزق الغلاف وتلا ما يأتي :

عزيزي فابين

عذراً لعدم عودتي إلي ملي . قابلت ترر دون أن يكون لي علم بحضورها وقد أعلمتها عن إبنتها رعوبه المسكينة . ولكي لا تلومني قلت لها بأن تسألك مقدار مجهوداتنا واعتنائنا بايجادها والأدلة مؤيدة في مراسلاتنا المتبادلة في هذا الشأن

اخبرها بأني لاأزال أبغضها وأن الحادثة والمقابلة بيننا كانت سبباً في اشتعال نيران فؤادي الخامدة

أخبرها أيضاً بأني أتمنى لها نجاحا في مسعاها

لا أعلم متى أعود . فاني أتأثر وأتذكر ما حل بي في تلك البلاد العزيزة التي قضي علي بالتغرب منها

لا تشك في مبلغ مصابي ؟

صديقك

جون ردون

بينما كان الدكتور ربول يتلو الرسالة اذ سمع طرق بالباب . فذهبت الفتاة وعادت تقول : أبتاه إن امرأة تطلب مقابلتك

— من هي ؟

— لا أعلم . هي جميلة جداً . ومرتبة فخمة المظهر بانتظارها . . .
— وأين والدتك ؟
— لقد عادت إلى غرفتها مسرعة
— لماذا ؟
— لأنها لم تتبرج بعد
— ماذا فعلت اذاً
أنا استقبلتها وهي الآن في غرفتك الخصوصية
فأسرع لاستقبال هذه المرأة فكانت الكونتس بنفسها وقالت : قد ترتاب للغاية المؤلمة التي أتيت لأجلها
كلا . فقد وصلتني اليوم رسالة من جون يسمح لي بأن أقدم لك رسائل بخصوص رعوند ويذمني عدم طلبك لها ة لا
— لا أريد أن أكون مدينة له ما دمت على قيد الحياة
فتأود الدكتور د شمر بأن النفرة الكائنة بين صديقه جون والكونتس دي بوسي قد ازدادت تعمقاً . وقال بعد برهة : يظهر إن المقابلة التي حدثت في غرفة المسيو بوشين أزعجته كثيراً
— وكان تأثيري إذ ذاك أعظم بكثير من انزعاجه بعد أن اطلعني على النبأ المحزن فمنذ اليوم شرعت في البحث عن إبنتي رعوند التي هي من دمي . . . كنت أعتقد انها في أمان وتحت رعاية رجل يعجز عن فعل منكر بعد بالجبن وكنت آمنة مطمئنة أقاسي لوعة الفراق بعيدة عنها وتمنيت كثيراً لو أبذل كل مالدي في سبيل التقرب منها كي أشملها بنظراتي المملوءة بالعواطف والحنو الوالدي الذي يفوق وصف الأقلام آه لو تعلم أيها الطبيب العاقل كم قاسيت من الذل رغم هنائي وسعادتي فكنت أقدر نفسي بأشقى خلق العالم . . . آه من الدهر الخؤون آه من قساوته .
فلم تتمكن الكونتس عند هذه الكلمة المؤثرة عن إخفاء مبلغ تأثرها وأجهشت بالبكاء وأصبحت بحالة يتفتت لها الحجر الجلمود ويلين الصلب الذي لا يلان

فليتأمل القارىء حالة هــذه الوالدة الثاكلة كما تأمل الطبيب ووقف والاهتمام باد على وجهه . وليتسائل متطفلاً . . .

أهي مخطئة ؟ وهل كفرت عن ذنوبها ؟ وهل يؤدي بها الأمر إلى اليأس ؟

بعد مدة قصيرة تجلدت الكونتس وقالت : لقد عقدت النية على بذل ثروتي كلها في سبيل ايجادها بل أخاطر بحياتي لأجلها فتكون سلوتي الوحيدة بعد مصائبي الجمة التي ألحقت بي عاراً لا يمحى . . . لا أنكر اني مخطئة ولكن القضاء قد حكم ولا مرد لما أبرم والآن جئت راجية أن تصفح عن انفتي واعراضي عن مخاطبتك لأني لا بد أن أستعين بك لعلك تفيدني ببعض المعلومات وأنت أخبر مني بهذه المسألة التي مرت عليها أعوام طوال وأنا جاهلة شأنها

— تسأليني عن نتيجة ما عملته فرسائلي تجيب على ما تسأليني. لا تنسي نتيجة ابحاثي إلى اهمال مني بل اعلمي اني استعنت باناس يتسترون بثياب العمل وهم في الباطن منافقون ولصوص مخادعون يسعون لاكتساب الرزق بطرق غريبة ومهارة في الكلام فهم يمللون دائماً بلا نتيجة ؟

-- ومن هم الذين استعنت بهم ؟

-- شركة فريبورج وهوشار وشركاءهما . . . سيخلد ذكرهم في ذاكرتي ما دمت حياً . . .

فأظهرت الكونتس اندهاشها وقالت : وهل يصدق ما تقول ؟

— وهل يمكنني أن أكتم ما في نفسي بعد انتهاء علائقي بهــذه الشركة الخادعة . فمريبورج أحد الشريكين يضع الأموال التي يقبضها داخل خزانة حديدية ولا ينفق درهماً منها للاعمال التي يكلف بها . . .من يستعن بشركة كهذه عليه أن يقطع الرجاء . . .

— هل استعنت بهم ؟

— وكنت مخطئاً أيضاً

— هل لديك رسائل جون ؟

— نعم

— أيمكنك أن تقرضني اياها ؟

— بدون شك . . اعلمي أيضاً أنه لا يزال جون محافظاً على عهوده القديمة وهو يتمنى قلبياً أن تنشدي ضالتك . . .

— دعنا منه الآن . اذ أن ما أوجه اليه همتي هو ريموند . . لو تعلم جان بفقد شقيقتها لتأثرت كل التأثر

فأخذ الطبيب صرة الرسائل وسلمها للكونتس وقال : خذيها بشرط أن ترديها

— أردها هذا المساء

— لا داعي لهذه السرعة

— سأعود إلى باريس . . . لم تكن غاية سفرتي مقابلتك وسأكرس حياتي لايجادها ولا يزال الرجاء ينعش نفسي الى الآن . . .

— ان العناية الالهية تصغي الى ذاتك وندائك

— أشكرك من صميم قلبي . . . الوداع

— الوداع

والطريق الأقرب بين ملي وبوسي نحو خمسة وعشرين كيلو متراً

سارت عربة الكونتس وكانت تشغل الوقت بمطالعة الرسائل الواردة على الطبيب من جون ردون فوقع بصرها على إسم أدهشها وهو الفيكونت بريفل الذي قابله جون على الماخرة التي أقلته إلى أميركا

وهذا الكونت يقطن في شارع فيزاندري وقد ورث أملاكا عن أقرباء له بعيدين فلما أصبح من الاغنياء تزوج بمادلين دي برنشير إبنة أحد القواد وهي صديقة تريز منذ الحداثة في مدرسة سان دني وأصغر منها بثلاثة أعوام

فقالت في نفسها اذاً سارى مادلين

لم تصل العربة إلى بوسي حتى كانت تريز قد استوعبت محتويات الرسائل كلها

عقدت تريز النية على الذهاب إلى صديقتها عسى أن تستفيد منها عن ابنتها التي تجهل حقيقة وجود والدتها

في نفس ذلك المساء حسب الوعد أعادت تريز الرسائل إلى الدكتور ربول

وفي صباح اليوم التالي ركبت القطار إلى باريس ولما وصلت إلى منزلها كانت خادمتها في انتظارها وفي يدها رسالة واردة من المركيز دي بورد هذا فحواها:

لم يعثروا على شيء. لا موجب لليأس لأنهم في بدء بحثهم. هم يجهدون في سبيل ضالتنا. لا شيء يهمل ؟

ريمون

تدل هذه الرسالة على أن خطة سير هذه الشركة تنطبق على ما قاله الدكتور ربول من أنهم يعللون زبائنهم بالآمال الخيالية حتى اذا ما قرب الأجل المضروب يظهرون أسفهم العظيم

ابتدأت الشكوك تنتاب هذه الوالدة الملوعة فجثت على قدميها وتمتمت بصوت مختنق: الهي ساعدنا ... إلهي كن حاضراً هنا لترشدني ..

وكانت عينا الله عزوجل تراقبانها وأذناه تصغيان إلى تضرعاتها من أعالي السموات

الفصل الحادى عشر

في المروج

حاول جون عبثاً أن يتملص من حكم الغرام القاهر بأن يعيش منفرداً بعيداً عن الملاهي الدنيوية ...

هناك ما وراء البحار كانت صورة تريز تتمثل أمامه رغما عن أنه يريد إزالتها من مخيلته. فهي طيف مخيلته وشجونه ...

تتمثل له هذه المرأة المثلثة بشعرها الذهبي المجعد المتراسل على ظهرها وعيناها الجميلتان تمثلان آلهة الطهارة وعنقها الأبيض الناصع ... كل ذلك

يجعل هذا الرجل المتنسك التعس يبتسم لهذا الطيف ويحاول أن يقبل ثغره فلا يتمكن فيتحسر ويتأوه لانه يطاب الحقيقة ولا يتمكن منها فيرمي الاقدار بسهام غضبه لأنها تعانده . . .

اصطحب جون في سفرته ابنته جان ورسم زوجته . . .

ذبل رسم تريز وصار على حافة الزوال لكن رسم الحقيقة لم يتأثر

جون يحبها حباً يقرب من العبادة لكن الحقد وقف في طريق الحب

بلغت الساعة العاشرة من الصباح . وكان الشركاء قد تناولوا طعام الفطور باكراً . فقد عزموا على قضاء هذا اليوم في النزهة بين المروج الخضرة

من هو فرعون ؟

فرعون مزارع قديم في خدمة البارون بانيل وهو رجل شجاع شديد العضلات في الخامسة والأربعين من العمر وكان يفرغ كأسه فسأله البارون : ماذا تفعل اليوم ؟

-- نزهة حول المروج كما هو معلوم . أتصحبنا يا ردون ؟

-- سأبقى لأن لدي ما يشغلني عن الذهاب

فقال البارون : وأنت يا جان ؟

— كما تشاء افعل

ثم قالت لوالدها تلومه : ستتركنا نذهب وحدنا ؟

- نعم

- ماذا يشغلك

— مراجعة الحسابات

— هل تصر على عزمك

— نعم

فالتفتت نحو البارون وقالت بعزم : فلنذهب ياعزيزي

بعد بضع دقائق كانت جماعة مؤلفة من البارون بانيل (شريك جون في المزرعة) ومزارعه القديم وثلاثة من الكوبوي (رعاة الأغنام)

كان جواد البارون محاذيا لجواد الفتاة فقال : بما أعتري والدك حتى تغيرت

ملامحه بعد عودته . . . أتعلمين شيئاً عن دخائله ؟

— لا أعلم فهو كالحرباء يتلون كل يوم بلون ولا يهمني ما دمت معتقدة أنه يعتني بي إعتناء الوالد الحقيقي

— هذا أمر لاشك فيه

— ولا أهتم الآن إلا بشيء واحد

— وما هو ؟

— إنك لا تحدثني بشيء منذ عودتنا فقد استأت كثيراً

— اعلمي أنك أصبحت الآن كبيرة . . . . كم تبلغين من العمر ؟

— نحو العشرين

— دعينا من العتاب وأخبريني عن باريس وعن رحلتك وعما شاهدته هنالك

— فرنسا بلاد صغيرة

— لكن مناظرها عديدة وجميلة . أليس كذلك ؟

— نعم . أتحب فرنسا ؟

— كثيراً

— لماذا لا تفكر في العودة إليها

— لأن أرباحنا متوقفة على هذه المزرعة

— ستبقى هنا إذاً ؟

— لا أقيم طويلا

— فكر إذاً في العودة . . . ألست صاحب ثروة ؟

— من أعلمك بذلك ؟

— في المرة الأخيرة التي ذهبنا بها إلى فندق الكولونيل سكوت في نيوستي سمعت أحد الناس يقول : أترى ذلك البارون ؟ لقد كان عند قدومه إلى أميركا معدماً وقد أصبح الآن يمتلك ما يربو على المليون دولار . أي خمسة ملايين من الفرنكات . أصحيح أنك تحوز هذا المبلغ الجسيم

— ان والدك شريكي وله نصف القيمة

وبينما هما في الحديث اذا بالجواد قد أجفل فقالت حان : مايخيفك ياچيم
ثم صاحت مرتعبة : أنظر إلى هذا الثعبان ذي الأجراس
فسددت مسدسها نحو الثعبان وأطلقته عليـه فشطرته شطرتين وقالت كأن لم يحـدث شيء : في ذات مساء كنت وحدي في منزل صديقك بريفل وكان والدي قد تغيب لقضاء أمر في النيفر وعزم أن يشتري أرضاً جميلة . . .

— لم لم يصحبك معه ؟

— لا أعلم . قال ان في السفر مشقة عليّ وأنه سيعود بعد قليل . . .

فسألتني مدام بريفل : أتذكرين والدتك ؟ فقلت نعم وقد توفيت رحمها الله

— ألم يكن لك شقيقة ؟

— نعم

- وأين هي ؟

— لا أعلم . . .

ثم قلت مغيرة الموضوع : لقد طرأ لي خاطر . . .

— وما هو

— العودة إلى فرنسا

— لماذا ؟

— لأصلي وأبكي بحرارة على قبر والدتي وأسعى بنفسي لايجاد شقيقتي التي فقدتها وأنا طفلة . . . لكني أزعجك ياعزيزي بهذه الحادثات المؤلمة

— كلا . بل يسرني أن أراك غيورة تسعين وتجتهدين لايجاد شقيقتك المسكينة . وذلك الشعور قلما يوجد بين الشابات أمثالك

— أنك تطرىء كثيراً ياعزيزي . . . فاعلم اذاً أني أشتهي أن أعيش في الارض التي عاشت فيها والدتي (رحمها الله) وشقيقتي . . .

— إذاً ؟ . . .

— شعرت بأني مخطئة لأني نسيت طول مدة إقامتي في أمريكا أن أفكر فيهما وفي العودة . . .

— أنك رقيقة الشعور ياجان

— آه لو تعلم ياعزيزي كم كانت والدتي حنونة عليّ فكانت ترعاني بنظراتها وتسعى لراحتي

— والدك يقول أنك تشبهينها تمام الشبه

— لعل الامر كما يقول ولكني أذكر شقيقتي وشعرها الاشقر الناعم كالحرير

— مرت جماعة من الخيل فقال البارون : أنظري ياجان إلى هذه الخيول المطهمة

— الافضل أن نجد لها شاريا

— أتمزحين ؟

— بل أعني ما أقول. أظنك لا تريد ؟

— لماذا ؟

— لانك مؤسس هذه المزرعة ومدرب هذه الخيول فيصعب عليك أن تفترق عنها

فتبسم البارون وقال : نعم أحب عيشة الحرية في هذا الخلاء الواسع لكن إعلمي إني لست مؤسسها بل لوالدك اليد الطولى في هـذا العمل كما أن المزارع فريمون ومن معه قد قاموا بجل الاعمال ... أني أهوى هـذه البلاد رغما عن صفات أهلها المستهجنة وذلك لكونك بيننا ... لانك تلك الزهرة النامية التي تلطف مناخ هذه الارجاء .. .ولكن هناك أمراً لايخلو من الاهميـة لا سيما والشيخوخة أقبلت على الابواب وتراخت القوى ....

— وما هو ذلك الأمر ؟

— الفكرة في العودة إلى مسقط رأسي ومركز وجودي على هذا المعمور ويلخص بكلمة وطن

— أنت موافق إذا على بغيتي

— إني فاعل ما تودين

عندئذ شرعا في البحث لتنفيذ مقصدهما . فقالت جان : وأنت ياعزيزي ماذا تفعل متى عدنا إلى فرنسا ؟

— أسعى لأجد لك زوجاً صالحاً
— وبعد ؟
— أسكنه بجواري كي أتمتع بمشاهدتك كل يوم
— وبعد ؟
— أقضي بقية أيامي في منزل محاط بالبساتين الغضة . . . .
— وبعد ؟
فلم يدر البارون ماذا يجيب . فقالت جان : أتتزوج ؟
— ان الذي يسمعني أتحدث بهذا الشأن يسخر مني لأن من كان مثلي فهو على حافة الشيخوخة
ولكن البارون جواده فسار ينهب الأرض وتبعته جان

الفصل الثانى عشر

شيء من الحقيقة

لم يكن سير الكسندرين مستقيماً . توفي والدها وهي طفلة . فعاشت تحت نير الذل ولم تطمع إلا أن تكون يوماً صاحبة شأن بين الناس وهي عاملة مجتهدة وفطنة تحصل على مرتب شهري قدره أربعمائة فرنك وقد طاب لها العيش لأنها تعتقد إنها سعيدة

في العاشرة من صباح الأحد في شهر مايو الجميل (وقد مضى على ذلك عام) خرجت الكسندرين تسير بين شجر الدبخ المشهور في غابات بولونيا وكانت تسرح بصرها في أزياء الرجال ونسائهم وهم فرحون يمرحون ويضحكون

وفيما كانت تسير الهوينا بجانب الشلال إذا براكب دراجة تسير بسرعة البرق الخاطف تتجه نحوها فخشيت على نفسها واعتقدت إنها ستضحى فريسة هذا المتهور مأسوفاً على شبابها الغض . لكنه بأسرع من لمح البصر أدار

اتجاه سير الدراجة فلم تؤذها وسارت نحو مطحنة بوشان . ثم عاد إلى جهة السكسندرين وقال بلطف : أنت هنا يا مدموازيل السكسندرين

— لقد أزعجتني كثيراً

— أجل كنت سائراً بسرعة . فعفواً . لأني أفضل أن أتحطم على صخور الشلال من أمس جسمك الناعم اللطيف ..

فقالت السكسندرين أين رأيتني ؟

— شاهدتك مراراً لكنك لم تعيريني التفاتاً ... هل هدأ روعك ؟

فقالت وقد سحرتها ألفاظه العذبة : أجل يا حبيبي

— أتودين أن تستأنفي نزهتك ؟ وهل تسمحين لي بمرافقتك ؟

وهل ترفض طلبه وهي في السابعة والعشرين ولم تتزوج ولم تعشق ؟

فقالت : كما تشاء

فسارا وهما يتحدثان فقال متطفلاً : أتحبين ركوب الدراجة

— نعم وخصوصاً لأنها رفيقة السير

وهذا الشاب هو مارسيال ابن ربة المنزل الغليظة السابق ذكرها . وقد أحبت السكسندرين هذا الشاب منذ عام وكان يسعى في خلاله لاحراز رضاها وابتزاز جزء وافر مما جمعته مدة السنين الطوال من تعبها . حتى إنها حين أفاقت من غفلتها ندمت لتعرفها به . وقد علمت أنها إذا داومت على هذا الحب المتبادل استنفد آخر درهم معها

عند التاسعة والنصف من أحد مساء يوليو مرّ مارسيال أمام منزل كارولين رامل وكانت سوزان تقطن في الغرفة العليا الملاصقة لغرفة السكسندرين

بعد برهة دخلت سوزان فأطلت البوابة من نافذة كوخها وقالت : رسالة لسيدتي

فاحمر وجه الفتاة وقالت : رسالة لي ؟

— نعم . وهي واردة من بعيد . . من التونكين

فصعدت سوزان إلى غرفتها وكانت بسيطة المظهر تحتوي على فراش وكرسيين وطاولة وستارين

فاقتربت من النافذة وفتحتها ثم أخذت كرسياً وجلست فتلت الرسالة . وما كان أشد فرحها حينما علمت أن بيير كردانيل لا يزال على قيد الحياة. فجثت على ركبتيها وتضرعت إلى الله أن يوصله سالماً . وكانت تبكي من شدة الفرح أتمت تلاوة الرسالة وصوت خفي يطن في أذنها : لقد نجا من مخالب الموت وسيعود ويعيش لأجلك

سرحت بصرها في الحديقة وأفكارها شاردة نحو بلاد التونكين . إلا أن صوتاً عذباً قال : أيتها الآنسة . . . .

فارتعدت فرائص سوزان وأجالت ببصرها في الحديقة فوجدت شاباً جميلا متكئاً على جذع شجرة فلم تكترث له وعادت إلى غرفتها فاتضح الصوت يقول : أتسمحين لي بسؤال أيتها الآنسة ؟

— سل ما تشاء

— أنا إبن عم الآنسة الكسندرين . . . وقد رجتني بأن أنتظرها

— إذاً ؟

— لقد أخبرتني بأنك تقيمين في نفس المنزل الذي تقيم هي فيه . أي عند مدام كارولين رامل

— نعم

— أتعلمين سبب تأخرها ؟

— كلا

— كنت أود محادثتها بشأن خطير وقد تأخرت كثيراً . . .

لم تكن محادثة الشاب مارسيال لتؤثر في فؤاد سوزان . وكانت تود أن تقفل نافذتها لتعود إلى تأملاتها اللذيذة لكن مارسيال قاطع هذه الفكرة بقوله : هل لك مدة طويلة في باريس ؟

— كلا

— هل أقمت قبلا في إحدى مقاطعات فرنسا ؟

— نعم

— ماذا تدعى ؟

— لا تعرفها أنت لأنها بعيدة وحقيرة ومشرفة على البحر
— ألا تضجرين في باريس ؟
— كلا لأني أعمل دائماً
— وفي المساء ؟
— أتنزه . . .
— وحدك ؟
— أغلب الأوقات وحدي

كان جبيرك حارسها الأمين ينتظرها أحيانا عند عتبة المنزل فيخرجان سوية للتنزه حوالي حديقة التويلري

فقال مارسيال : ويوم الأحد ؟
— أذهب إلى الكنيسة ثم أعود . . . .
— أتحبين ركوب الدراجة ؟
— لم أفكر قط في ركوبها
— متى شئت أدربك على ركوبها وتكون إبنة عمي معي . لأني خبير ماهر
— شكراً لك

وبينما هما في الحديث إذ دخلت الكسندرين فقالت لمارسيال : أنت هنا لم أك بانتظارك هذا المساء

— لقد جئت على سبيل الصدفة... من هذه الفتاة التي في جوارك ؟
— الآنسة سوزان
— من أين قدمت؟
— وما يعنيك من أمرها ؟
— لا تحتدي علي هكذا فان سؤالي بسيط ..هل تقيم عند كارولين ؟
— وما غرضك من هذا السؤال ؟ . . هل ترغب في إغوائها ؟
— ولم لا

صعدت الكسندرين إلى غرفتها وتبعها مارسيال فارتمت على مقعد وتنهدت تعبة وقال مارسيال: لقد تغيرت طباعك هذه المدة

فقالت بحدة: أتتجاسر أن تخاطبني بهذه اللهجة؟

— لماذا تعامليني بهذا الجفاء؟

— لقد كنت مغرورة بك أما الآن فقد انتبهت من غفلتي

فاقترب مارسيال من الكسندرين وقال بلطف: أتذكرين ياحبيبتي الليالي الجميلة التي قضيناها بالسرور والحبور؟ . . .

— وآسفاه!

— أتذكرين رسائلك الشهوانية اللذيذة؟

— لقد أخطأت عند كتابتي لك . . . كنت طائشة . . .

— بحيث إذا أعلنتها وقرأتها صديقاتك حدث ما لا تحمد عقباه . . . ألم تكوني السبب في سقطتك؟ . . ألم تساعديني اذ كنت عاطلا بالمال الذي قد اقتصدته؟

— وقد سلبته مني لنفقاتك ولملذاتك

— ليس كله . . لا يزال معك نصفه بل أكثر . . ان ما أعطيته لي كان قرضاً أوفيه لك مع الأرباح . .

— أنت؟

— بدون شك . وهل تشكين في صحة كلامي؟

فلم تجب . فقال بلهجة الحنو: أهكذا تجاوبني وأنا آتيك بطلب مساعدة

— مساعدة مالية أليس كذلك؟

— وماذا تريدين أن تكون؟

— الاصوب أن تغادر هذه الغرفة حالا

وأشارت له بأصبعها نحو الباب فاستعطفها فقالت: لقد سلبت مني أكثر من ستة آلاف فرنك

— على ماذا عزمت؟

— ما فقدته لا أطلب عنه بدلا . على اني أود أن أحتفظ بالباقي

— ماذا تعنين ؟
— سأتركك وشأنك تسعى لرزقك بنفسك
— أترفضين مواجهة حبيبك مارسيال بعد اليوم ؟
— لقد انتهى الأمر بيننا
— لقد قررت الطلاق ؟
— إفعل ما يتراءى لك
— وإذا رفضت ؟
— أنا مليكة نفسي
— وخليلتي أيضاً
— لست بعد الآن . . .
— ستري إن لم تكوني في قبضة يدي . . . أعطيني الآن خمس لويسات فاني في حاجة قصوى إليها
— لا أعطيك درهما . . .
— غداً أنشر مثالا من رسائلك الفتانة
— أتفعل ذلك ؟
— بدون تردد
— إنك لنذل سافل ؟
— سامحك الله على هفواتك . . .
ثم مد يده وقال : أعطيني إذاً
فأخذت محفظتها وأسقطت المبلغ في يده وقالت : لا أسمح لك بالدخول الى هنا بعد اليوم ؟

فوضعه في جيبه وقال ضاحكا : أخطأت يا حبيبتي في حكمك . . . إن فؤادي يكتم سراً هائلا . . السعادة مقبلة نحوي . . . فلا تجزعي على ما أعطيتني إياه فهو لا يضاهي شيئاً من الثروة التي تنتظرني على الأبواب . . .
— بل لا يطول الزمن حتى تزج في أعماق السجون
— لا تستهزئي بي . فسوف أصل إلى ضالتي التي أحلم بها

— ضالتك مكر ورياء وخديعة . . .
— اصبري حتى يأتي اليوم الذي فيه تسمدين فترتاحين من عملك الشاق . .
— وما هي مهمتك أيها الثرثار ؟
— الأمر يتعلق بزواج !
— من ؟
— زواجي أنا . . . مهر جسيم وثروة الأمراء وملايين محققة . سأضاعف ما أخذته منك بل أضيف اليه أمثال الأمثال في سبيل ابتسامة من ثغرك الجميل الوضاح . . .
— لا أعتقد بكلمة مما تقول

فطوقها مارسيال بذراعيه وقال : حينذاك لا أهوى سواك . . . . أما الأخرى فلمالها فقط

بعد انصراف مارسيال جلست ألكسندرين وقد أخذ الحنق منها مأخذاً عظيماً وصاحت : إلهي . أرحني من هذا العدو اللئيم . . .

الفصل الثالث عشر

الصفقة الرابحة

عاد بوسكاري من سفره إلى بريطانيا وقد خابت آماله فقابله أهله وخلانه بالاستهزاء والسخرية

أصبح فريبورج منذ كلف بالبحث عن سوزان يهب بوسكاري بسخاء مايلزمه من النفقات توسلا للأمر الذي كان ينهال عليه مالئاً خزينته

نشر الاعلانات الضخمة ووزعها مجاناً على كل مار وفي كل جهة من مقاطعات فرنسا الواسعة فكان للقضية ضجة في البلاد ولكن من غير أن تأتي بفائدة تذكر

في هذه المرة كان سائح أمريكي نازلا في باريس فنظر فتاة تدعى

فاني في إحدى الشوارع العظيمة خلبه جمالها الفتان وتعلقها فسارت معه ثم أغواها أو احتظاها وغمرها بالمال الغزير ووهبها خاتمين مرصعين بالاحجار الكريمة وقرطين من اللؤلؤ النادر وأسكنها منزلا منفرداً في شارع فينيون

يقع هذا المنزل في الجنوب على شاطىء بحيرة ومحاط بحديقة غناء مزروعة بالاشجار البهية وتموج الروائح الذكية من أزهارها المختلفة الألوان

أراد مارسيال أن ينتهي من علاقته مع الكسندرين ويطلقها من شباكه لكي ينصب شركاً آخر لفاني هذه التي نحن بصددها

بعد أن خرج مارسيال من غرفة الكسندرين سار في شارع الأوبرا وتوجه نحو شارع بروفنس فتمثلت أمامه سوزان ذات الوجه الصبوح الفتان وقد تلألأ . وقد فهم أنها قدمت إلى باريس منذ أيام قليلة وتدعى سوزان

من أين قدمت ؟

صار من السهل عليه أن يدرك ماغمض من سؤاله

لم تكد تدق الحادية عشرة حتى وصل إلى الحانة فوجد جمعاً غفيراً يأكلون ويشربون ويتحدثون وقد علا ضجيجهم وهم يضحكون فسأل المرأة الغليظة : ماذا ونعلم اليوم

— حفلة قامت بنفقاتها فاني . . .

فأخذ مارسيال كرسياً وجلس منفرداً في زاوية لا يسامر أحداً كأنه غريب عن الحاضرين . ثم فتح الباب فجأة وبرز منه وجه صاحبة الحفلة فأخذت تحدق بالجمهور فوقع بصرها على مارسيال فالتمع وجهها سروراً وسارت نحوه وحيته وقالت : قل لماذا تأخرت هذه المرة ؟

عندئذ برز بوسكاري بوجها النحاسي من أعلا السلم فقال له أحد الجالسين : هل أنت مريض اليوم ؟

— كلا

وجرى الحديث بين مارسيال وفاني فقالت : آه لو كنت تعلم ياعزيزي كم خليلي ثقيل لزنوت لحالي . لقد فكرت مراراً في نقل أمتعتي ومغادرة المنزل

— إن فكرتك ضرب من الجنون

-- هل تعتقد أن الدولارات تؤثر عليّ ؟
-- بدون شك
-- يكذ ربي أن تفصل المال على كل شيء
-- لست واحداً من الذين يفضلون المال
فقالت همساً : لم لا تأتي لزيارتي ؟
-- اين تقطنين الآن ؟
-- في أنجيين . لا تخبر أحداً . نأمل في منزل أنيق أضلاعه الأمامية في الماء ومحاط بحديقة جميلة
-- هل هو منزلك
-- هو يقول ذلك فاعتقدت بصدق قوله
-- لم تمتلكي بعد أوراق العقد ؟
-- كلا
-- لست إذاً بامرأة مدربة
انتهى الحديث وقد تواعدا على ان يأتي مارسيال غداً لزيارتها بعد الخامسة
في الساعة الأولى ... لم يبق من المدعوين غير الراقصة التي كانت تحاسبهم وتضع قبضات النقود في جيبها
بعد انتهاء الحفلة تماماً ركبت عربة كانت بانتظارها خارجا وقالت لمارسيال : إلى الغد
وعاد مارسيال إلى الحانة . قال اموسكاري وكان جالساً مطرقاً : كلمتين أقولها لك. ولما ستوى بقربه همس في أذنه . ماذا كان عزمك أنه نفس حينما سافرت إلى بريطانيا
-- وهل هذا يعنيك ؟
-- إني لا أخلط الهزل بالجد بل أتكلم جدياً
-- لماذا تسأل هذا السؤال ؟
-- ربما قمت لك بخدمة جليلة
-- كيف ذلك ؟ أفصح

— إعلم أني على الأثر . . . . ألم تذهب إلى بريطانيا ؟
— نعم
— للبحث عن فتاة في نضارة الصبا ؟
— نعم
— هل تعلم عن ملامحها شيء ؟
— ليس الكثير
— شقراء أم سمراء ؟
— الأرجح أنها شقراء
— أليست تدعى سوزان ؟
— من أعلمك بذلك ؟
— لا يهمك أمري . وأحذر أن تنكر عليّ
— وماذا يفيدني الانكار ؟
— كم تبلغ من العمر ؟
— الثمانية عشر ربيعاً
— أتعرف أين كانت تقطن
— نعم . لكن العصفور طار منذ أيام قلائل ولا أعلم وجهته
— ربما وقفت أنا على بعض الحقيقة

الفصل الرابع عشر

افشاء الحقيقة

في نفس هذا المساء قام مرسح الأوبرا الهزلية بتمثيل رواية كارمن . وكان في إحدى الخلوات من الجهة اليمنى متفرجان منفردان بحيث لا يراهما أحد وهما رجل مسن في السبعين من العمر قوي البنية لم تظهر في ملامحه امائر الشيخوخة وشعر رأسه ناصع البياض ووجهه بشوش وهيبته تدل على نبالة رفيعة الشأن وكان يرمق رفيقته بحنوه الوالدي

أما رفيقته فامرأة أقل منه سناً بعشرين عاماً وتدعى كارولين . أما الشيخ المسن فهو الدوق دي لوسي وهو جد زوجة المركيز دي بورد ومساعد كارولين عند الشدائد منذ كانت في سلك الرهبنة في دير كمير ولم يكدر صفاء هنائهما مكدر وبالرغم من أنه أرمل فقد تعرف بكارولين وساعدها على إحراز الثروة وحافظ على شرفه من أن يمس بكلمة انتقاد لملائقه الودية مع هذه المرأة

وقد أتى في هذا المساء منفردا حيث قابلته كارولين في خلوته

وقبل انتهاء التمثيل قام الدوك وقال لرفيقته : فلنرحل بسرعة

وكانت عربة أنيقة المظهر في انتظارهما خارجا فركباها وسارت بهما إلى مطعم فخم في ميدان مادلين . فصعدا إلى الطبقة الأولى منه وانفردا في غرفة حيث أعد لهما طعام العشاء على طاولة صغيرة

فبادرت كارولين الدوك بالسؤال : لم تخبرني عن سبب مجيئك بعد

— كنت في لوسي منذ مدة يسيرة وبصحبتي العائلة . . .

— المركيز ووالدته وزوجته . . .

— نعم . ظهر لي أنهم في اضطراب وارتباك مزعج

— أتعلم سبب هذا الانقلاب ؟

— لقد عادوا إلى باريس . غداً أذهب إلى جبريل وأسألها بنفسي ولا أخالها تخفي عني شيئاً

— ألعل المركيز فقد أمواله ؟

— كلا

— ألعله وقع في ورطة يتعلق بشرف العائلة

— كلا . فان المركيز رجل متشرع وزوجته ملاك طاهر

— وهل سألت والدة المركيز ؟

— نعم . فقالت إنها لا تفقه شيئاً من كل هذه الاضطرابات . . . إن سحابا اسود يظلل سعادتهم . ولا بد أن ينقشع تدريجاً . الزوج محافظ على السكينة دائما والعبوسة لا تفارق محياه . والزوجة شاحبة وقد أصبحت فاقدة الصبر عصبية المزاج . فاجأتها مرارا محمرة العينين وقد تقضي ساعات طوالا

في التفكير العميق . ترسل الخطابات العديدة وتأتيها الأجوبة من كل صوب وحدب فاذا سألتها عن السبب كانت تجيبني إني أسعى وراء غاية شريفة وحميدة . لن يسوء ظني بجبريل واخلاصها نحو زوجها لكن يسوؤني اني أجهل هذه الغاية التي تسعى وراءها فلا بد أن أعرف الحقيقة غداً . . .

— فستعود إلى لوسي ؟

— بعد مشاهدة حفيدتي جبريل

— هل تمر بمنزلي قبل سفرك ؟

— كلا . لأن أصدقاء لي سيأتون لزيارتي نهاراً ؛ يجب أن أصل قبلهم. سأغادر باريس غداً

— أتتغيب طويلا ؟

— كلا . وأنت تعلمين أني لا أكون سعيداً إلا بقربك

— سأريك شيئاً غريباً عند سفرك العاجل

— وما هو ؟

— إبنة فقيرة (تعي سوزان) أوصتني بها إحدى صديقاتي وهي على فراش الموت . وقد جاءت الفتاة إلي بحالة يرثى لها

— إني أعرف شيئاً عن هذه الصديقة فقد ذكرتها لي

— وقد أخذتها إلي احتراماً للصداقة المعهودة بيني وبين تلك الصديقة

— ونجلها ماذا آلت حالته ؟

— هو آخذ في التحسن . كان شفاء جروحه البليغة أعجوبة . وسيعود إلى فرنسا قريباً

— هل الفتاة جميلة

— في غاية من الجمال والبرهان في المشاهدة

بعد نصف الليل بثلاث أرباع الساعة كان الدوك يودع كارولين عند عتبة منزلها ويقول لها . إلى الملتقى لا تهملي المراسلة . وسارت عربة الدوك نحو شارع ليل

وفي صباح اليوم التالي خرج الدوك مبكراً إلى منزل دي بورد وسأل

البواب : أهنا حفيدتي ؟

– سيدتي المركيزة في غرفتها

– وحدها ؟

– كذا أظن

– رريعون ؟

– خرج من المنزل

– ووالده المركيز ؟

– ذهبت لحضور القداس

– حسناً

وسار الدوك في صحن الدار وهو يناجي نفسه قائلا : عجباً جبريل وحدها لا بد من اقناعها على الاقرار . . .

فتح الدوك الباب الخارجي ودخل ثم فتح باب غرفه المركيزة بدون استئذان . وكانت وقتئذ جالسة إلى مكتبها ومكبة على كتابة رسالة فلم ترفع رأسها واعتقدت أن خادمتها أتت فقالت . هو أنت يا أنطوانيت

– لست بانطوانيت أنا الدوك

حملقت به مندهلة من قدومه غير المنتظر وقالت : كنت أعتقد أنك لا تزال في لوسي

وقامت وعانقته . فقال : جئت لمشاهدتك . أوحدك أنت ؟

– نعم

– اخبريني إذاً عن كل شيء

– ماذا تود أن تعلم ؟

– مايحدث عندكم . ظهر لي أن الحداد عم المنزل وأخبريني عن السبب لأنك أدرى من غيرك بمكنوناته

جلس الدوك فقالت له : علم إذا أن زوجي تطور في خلال الايام الأخيرة فبعد ان كان بشوشاً أصبح عابساً لا يبتسم لاحد

فلا بد أن أمراً خارق العادة سبب له هذا الانقلاب . . .

– إعلم أيضاً أني فاجأت زوجي يوماً ما . . .

— ماذا يصنع ؟
— يتلو رسالة . فلم أدعه ينتبه إلى تطفلي . . .
— وماذا حدث بعد ذلك ؟
— بعد أن خرج تفقدت الرسالة . . .
— ما فحواها ؟
— سر هائل
— وما هو ؟

فذرفت المركيزة دمعة حارة وقالت : كان زوجي قبل اقترانه بي متعلقاً بامرأة

— يا للفضيحة . وماذا تدعى هذه الامرأة ؟
— تريز ردون أو الكونتس دي بوسي
— وهل هذا ما يدعوه إلى الاستياء
— بل سبب آخر . . .
— وما هو ؟

— إن زوجي قد رزق منها طفلة بالخفاء وتدعى رعون باسم زوجي ولما علم زوجها بالأمر تركها وسافر إلى أمريكا مصطحباً طفلته الحقيقية وأودع الأخرى عند حطاب يدعى بليزرفين وكان له أعداء يسمون للايقاع به فقتلوه في غابة بينما كان يتصيد الطيور . فعادت أرملته إلى بلادها ومعها الطفلة التي تجهل حقيقة أمرها

— أين كانت تقطن ؟

— في مقاطعة المورهبان . وقد أدرك زوج تريز خطاءه العظيم . فاستعان بشركة خبيرة لايجادها وبذل المال فلم يظفر بطائل . . . وقد مضى على ذلك خمسة عشر عاماً . . .

— يا لطول المدة . . .

— فلما عاد الزوج من أمريكا قابل الكونتس (زوجته) مباغتاً لها فقص عليها واقعة الأمر وقال : « ما يمكنني فعله هو بذل نصف ثروتي في سبيل

ايجادها . ان الدهر قد حكم ولا مرد لقضائه. أما الآن وقد علمت سبب هذا الانقلاب فقد تعلم أيضاً سبب مراسلاتي العديدة

— وهل زوجك رعون يدري انك مطلعة على سره ؟

— كلا

وسقطت دمعة من مقلة الدوك فأخذ رأس حفيدته بين يديه وقبل شعرها الأشقر الجميل وقال : أدركت الآن أنك بارة ومنذ هذه الدقيقة سأكون عوناً لك . . .

الفصل الخامس عشر

القنوط

اشتد الحر في فصل تلك السنة فهجر معظم السكان منازلهم إلى الحدائق الظليلة والمروج . حتى أن الانسان لا يكاد يرى في المنازل غير المسنين والمقعدين الذين لا يقوون على المشي

كانت تريز في منزلها تكتب إلى وكالة دريبورج تحثهم على مداومة البحث بدون كلل . وهي تعتقد أنها إذا غادرت باريس فترت همـة مساعديها الذين لم يتوصلوا إلى نتيجة مرضية حتى الآن . إذ الحقيقة أن بوسكاري كان يخفي بين طيات فؤاده سراً يرى أن الاباحة به لم يحن وقتها . أما سوزان فيتعذر عليها الاطلاع على حقيقة الماضي وخلاصـة ما تعرفه أن أرملة لندفن هي والدتها وأن الفضل في تثقيفها وتربيتها راجع إلى المرحومة مدام كردانيل وولدها وقد تقدم نحو الصحة . وهو يكتب رسالة كل أسبوع يقص فيها كيفية شفائه من جروحه البليغة بفضل العناية الالهية

وتريز في قصرها الفاخر تتألم لفقد ابنها وسوزان لا مطمع لها غير عودة بيير سالماً وهو غاية ما تتمناه في هذه الحياة

بعد أن انتهت تريز من كتابة الرسالة شرعت في كتابة رسالة أخرى إلى

والدها تبث له للمرة الأولى سبب شجونها وبقائها في باريس

أما القبطان تونيليه فقد زادت وطأة الأمراض عليه تدريجياً بحيث أصبح لا تمكنه مغادرة منزله في سوفلي

وعنونت تريز الرسالة وماهمت أن تدعو الخادمة حتى جاءت هذه وقالت: لقد أتى المركيز دي نورد

فألقت تريز بصرها في رسم زوجها الكونت الراحل وقالت آسفة : فليدخل

دخل المركيز ومد يده إلى الكونتس مصافحاً فقالت بتردد : مررت . . . وددت أن أراك . . . إن رسائلك أنشأت الحسرة في فؤادي . . .

— أخشى أن يؤدي بك الأمر إلى القنوط

— فهمت إذاً . . . .

— أجل : لقد خاب أملنا وضاعت ثقتنا . . . ولكن لابد أن أمراً يحول دون الحقيقة . فاصبري وتشجعي ...

— نفد الصبر ووهنت القوى ولم يعد لي مطمع في هذه الحياة . خلت في بادىء الأمر أن الدراهم علاج ناجع لكن أملي خاب وقد مرت أسابيع وأشهر . . .

— لا تدعي اليأس يساورك . فمن يعلم اذ يفرج الله كربنا وتأتينا أنباء عن ريمون

— لا أخطىء فان صوتاً داخلياً يحدثني بأننا لن نجدها البتة

جذبها المركيز نحوه وضمها وبصوت عذب قال : لنشارك بعضنا بعضاً على احتمال هذا الخطب . . . لأن الاتحاد يولد القوة . سأضاعف مجهوداتي واستعمل جميع الوسائل لاكتشاف الحقيقة مهما كلفني الأمر فلنصبر . . .

— خير لي أن أسمع بوفاة إبنتي من أن تقاسي العذاب تحت ظل الشقاء والفاقة إذا كانت لاتزال حية ...ان اضطرابك ولاشك أيقظ أعين أهل منزلك ؟

— كلا . ولا عون لي غير لويس روبول

— ووالدتك ؟

— ليس لها علم بشيء

— وزوجتك ؟

— لقد ذهبت إلى تورين . . .

— لم لم تذهب لمرافقتها ؟

— لفقت لها عذراً مداعي إني مشغول وسأقيم في باريس يومين أو ثلاثة ثم ألحق بها . . .

فقالت تريز متأوهة : ألا تزال تهواني ؟

— بل أن الصلة التي بيننا تزداد وثوقاً كلما طال العهد . . . وغاية ما أتمناه أن أكون عوناً متيناً لك تستندين إليه عند الحاجة . . . لا تمر الدقيقة والثانية دون أن أسمي وأعمل للابنة التي شغلت موضعاً خالياً في فؤادي . . . ويجب منذ الان أن نعيش لأجل ريمون لا نجعل اليأس يتسلط علينا إذ كيف تؤول حالتنا بدونها . . . لنساعد بعضنا فيساعدنا سبحانه عز وجل . . .

أخذ المركيز يد تريز وأدناها من فمه وقال : تشجعي

انصرف المركيز وهو يضمن كلامه معنى التعليل والأمل

وقالت الكونتس في نفسها : لقد فقدت ريمون إلى الابد . . . جان تعتقد أني أثقة بها إذا علمت أني على قيد الحياة تحتقرني

ألقت بصرها في رسم الكونت الراحل وتمتمت بحزن : لقد رحل وكم أتمنى أن ألحق به

بينما كانت تريز في مثل هذه التأملات إذ دخلت الخادمة تقول : أتت إمرأة ترغب في مقابلتك

وكانت الزائرة الفيكونتس دي بريفل فقامت لها تريز ورحبت بها وقالت مستغربة : مادلين

فأظهرت الفيكونتيس إندهاشاً لهذا الترحيب فقالت تريز : أنسيت صديقتك تريز تونيليه ؟

— نعم

— أنا هي

— كيف نكون متجاورتين ولا ندري ؟

— لم أذهب قط إلى باريس وإذا ذهبت فلا أقيم فيها أكثر من بضع ساعات

— أين كنت قبلا ؟

— في نيفر في منزل محاط بالغابات

— إن ما أعلم هو أن في جوارنا الكونتس دي بومي الواسعة الثروة فلم يخطر ببالي أنها صديقتي تريز

— ألا تعلمين أن صديق الفيكونت هو الكونت الراحل ؟

— لا أفقه ما تقولين

— زوجي الأول هو جون ردون . . .

— شريك البارون بانيل في أمريكا ؟

— نعم

— كنا نعتقده أرملا

— لقد تحصلت على تقرير الطلاق في غيابه فتمكنت إذ ذاك من الاقتران بالكونت

— هل لك أولاد ؟

— إبنتان . . .

— أين هما ؟

— أحداهما مع والدها . .

— والأخرى ؟

فسكتت تريز قليلا ثم قالت : سأخبرك عن الحقيقة . . .

فقصت عليها تاريخها وكيفيــة زواجها بجون ومجيئها إلى باريس ونتيجه هفوتها ورحلة زوجها وفقد ريمون مما مر ذكره على القراء

وحدث قبلا أن تريز زارت صديقتها هذه مادلين بلانشى (الفيكونتيس) زيارة جوار . ولما لم تجدها تركت رقعة باسمها

قالت الفيكونتيس : كنت في نورمانديا وعــدت إلى باريس للاقامة فيها يومين وجئت لرد زيارتك وأنا أعتقد أني سأقابل إمرأة لا معرفة لي بها

فقالت تريز: هل يمكنك أن تقصي علي مارأيته في جان . . .

— إنها بديعة في الجمال

— كم يوماً أقامت عندكم ؟

— أسبوعاً . أما جون فقد تغيب أربعة أيام وبعد عودته رأيته وقد تغير لونه واعتذر ثم سافر معها . . .

— اخبريني عن ملامحها . . .

— هي تشابهك تمام المشابهة ويتراوح عمرها بين الثامنة عشر والعشرين . أما طباعها وعوائدها فمزيج من الحرية الامريكانية والآداب الفرنسية الراقية

— هل تشك جان بوتي

— كلا . والدليل أنها سألت والدها أمامي بالانجليزية : ارغب أن أري قبر والدتي

— وماذا أجاب ؟

— أجاب مضطرباً : ليس الآن . . .

— هل عندك رسمها ؟

— كلا اذ لم يتيسر لي أن أحصل عليه بسبب سفر والدها الفجائي

ثم استطردت الفيكو نتيس خاتمة الحديث وقالت: ماذا ترغبين مني ان أفعل

— اذا عادت أبنتي من أمريكا تسعين في وسيلة تمكنني من مشاهدتها ومخاطبتها . . .

— لا بأس . ومتى يعود جان

— لا أعلم . رجائي أن تحققي لي هذا الأمل

— إني والدة وأنا أعلم منك بالحنو الوالدي

— وليكن كل ذلك تحت ستر الخفاء لا تخبري أحداً ولا زوجك . . .

— حسناً

انصرفت الفيكو نتيس وهي تتعجب من قصة صديقتها المفجعة

الفصل السادس عشر

في محل الأزياء

— مدموازيل سوزان

— سيدتي

— تعالي إلى غرفتي . أريد أن أتحدث معك

دخلت سوزان إلى غرفة سيدتها وأغلقت الباب وراءها فأشارت كارولين إلى مقعد قريب وقالت : أجلسي هنا . هذا اليوم يقل فيه العمل . . . وقصي عليّ شؤونك الصغيرة لأن الجميع راضون عنك . . . هل تعودت الاقامة بيننا ؟

— نعم

— ألا تأسفين لمغادرتك بريطانيا ؟

— كلا

— لقد تقدمت في العمل تقدماً مدهشاً حتى لقد يقال أنك مقيمة منذ أكثر من سنتين . هل أرسلت نفقة إلى والدتك ؟

— نعم . البارحة مساء أرسلت خمسين فرنكاً إلى الأب كرجوز

— من هو كرجوز ؟

— معين والدتي وله الفضل الأكبر في العناية بها فأصبحت لاتحتاج إلى شيء

— هل استقل القيمة ؟

— بل قال بأنها تكفي أكثر من شهرين

— كم بقي معك ؟

— مائة فرنك تقريباً

— أنت مقتصدة ومدبرة . . . هل دفعت رسم الغرفة ؟

— خمسة وسبعين فرنكا

— ان الخادم قد أعطاك الوصل خطأ بدلا من أن يقدمه لي

— لكنه ممنون باسمي . والقيمة زهيدة

— لا أريد أن تتكلفي الدفع . وسأجعل مرتبك منذ الآن أربعين فرنكا شهريا

— شكراً لك

— أما الخمسة والسبعون فها هي

ثم وضعت المبلغ على المنضدة وقالت : هذا لك . . . جوزيف يهتم بدفع القيمة . . . . قيل لي أنك تحسنين ركوب الدراجة

فاحمر وجه الشابة خجلا ولم تجب فقالت كارولين ضاحكة : هل ركوب الدراجة يعتبر جريمة ؟

— كلا . لكني مبتدئة . . .

— يوم الأحد . . . احذري المرافقة الخطرة . . . . وصلتني رسالة هذا الصباح

— ماذا تحتوي ؟

— ان بيير كردانيل سيبحر قبل آخر الشهر . . . لعله الآن في الطريق

— هل يمكنه احتمال مشاق السفر ؟

— لقد كفل له الأطباء السفر من غير أن يؤثر على صحته . . . اقد أخبرني شيئاً آخر

— وماذا عسى أن يكون ؟

— لقد نال وسام الشرف

— ما كان أشد فرح والدته لو بقيت على قيد الحياة

— دعي الكلام في ما لا فائدة منه

هل السرور الشامل فؤاد سوزان ناتج عن حبها لبيير كردانيل ؟ كلا . بل عن حنو وعطف عميق وإخلاص . لأن آل كردانيل كانوا سندها الوحيد مدة حداثة سنها . لذا كانت أفكارها متجهة نحوهم فتشاطرهم أفراحهم كأتراحهم

دخلت الكسندرين وقالت : هل يجب أن أذهب الى المركيزة دي بورد
— لماذا ؟
— لأنها أمرتني بصنع قبعات الريف وقد أعددتها
— إن البارونة مويس ستأتي هـذا اليوم وقد كتبت لي بأنها ترغب في مقابلتك خاصة

ثم نظرت كارولين إلى سوزان وقالت : سوزان تذهب بالقبعات
— لم تعتد ذلك
— إن هذه المهمة لفي غاية البساطة . جيرك يحمل العلب وهي تسير معه . نزهة جميلة في الصباح

فتكدرت الكسندرين ولاحظت كارولين ذلك من ملامحها فقالت: يمكنك أن تفتخري بتلميذتك و بعملك النافع . . سمعت أنكما تحسنان ركوب الدراجة ؟

فقالت الكسندرين : نعم . وسوزان لا تزال في الابتداء . . .
— حسناً . لكني أخشى عليها كثيراً من أعين السوء لأنها جميلة جداً فماذا تقولين ؟
— أنا طوع ارادة سيدتي . . .

ثم قالت سوزان قبل أن تخرج : هل تشير سيدتي عليّ بشيء آخر ؟
— نعم . إن تكوني خفيفة الروح لطيفة المعاملة

سار جيرك وسوزان وهما يتحدثان . ولما وصلا إلى حدائق التويلري قال جيرك : إن سيدتك تثق بك ثقة تدل على أنك تتقدمين سريعاً
— إني أعمل وأريد أن أقتصد شيئاً يكفل لوالدتي الهناء ولي السعادة
— نجح الله مقاصدك وجعلك أسعد الفتيات
— أتذكر يوم تقابلنا عند جبال لندفن المشرفة على البحر ؟
— أذكر ذلك
— هل كنا نعتقد أننا سنصبح هكذا ناعمي البال فلا تحلق التعاسة فوق رؤوسنا ؟ . . .
— كلا

دخلت سوزان إلى فسحة منزل المركيز دي بورد فكانت النوافذ العليا مقفلة فقالت سوزان في نفسها : يظهر أن المنزل فارغ

وبينما هما واقفان إذ بروبول أتى نحوهما يقول : كيف حالك أيتها الآنسة فأجابته وهي تراعي الاحتشام : الحمد لله

— من تريدين أن تقابلي ؟

— سيدتي المركيزة

— مدام ريمون ؟

— نعم

— ليست هنا الآن

— سأعود إذاً مرة أخرى

وأرادت سوزان أن تنسحب فقال وهو يريد أن يحظى بها بضع ثوان أيضاً : بعد برهة يأتي المركيز ويرشدك إلى ما يجب عمله . وسيدتي المركيزة ستعود في هذا الأسبوع

وفيما هما في الحديث ولويس مسرور جداً من محادثته ذات الجمال الطاهر دخل المركيز على صهوة جواده وقال له : ماذا حدث ؟

— هذه الشابة تعمل في محل الأزياء وقد أتت بقبعات سيدتي المركيزة

فقال المركيز لسوزان : كانت المركيزة قد عزمت على الحضور اليوم كما وعدت ثم عدلت اذ شعرت بانحراف طفيف . . . فعودي بعد بضع أيام . . .

كان لوجه سوزان تأثير في فؤاد المركيز فأخذ يفكر ويقول : إن إبنتي ريموند تساويها سناً ومن يعلم هل هي تعمل عند بيوت الاغنياء . مسكينة أين تكونين . . .

اذا فرضنا أن المركيزة كانت حاضرة وأخذها التطفل فتسأل الفتاة عن اسمها وعن أصلها فيسطع إذ ذاك نور الحقيقة الغامضة

ودع روبول سوزان وهو يقول: سأسعد رؤيتك ثانية ؟

سنتلو للقارىء خلاصة ما حدث في نفس اليوم في مزرعة بانيل

الفصل السابع عشر

إرادة المرأة

أقبل المساء يز- ف بجيوشه الجرارة

وكان البارون بانيـل وجون ردون وفرعون المزارع القديم وجان إبنة الثاني يتناولون طعام العشاء على مائدة أعدت لهم

بقي الاتفاق بين البارون وجان مكتوماً وقد عزما في الصباح على الاباحة طبق الخطة التي رسماها

فلما كان الميعاد المضروب كان جون جالساً عابساً فدخلت عليـه جان ثم البارون . فقالت جان : إني أراك يا أبي عابساً دائماً . . لا تبتسم لي قط

— لقد بلغت يا ابنتي سن الشيخوخة

فقال البارون : لكني أرى محياك يزيد عبوساً وجسمك نحولا ولا أدري لذلك سبباً

— لقد سئمت سكنى هذه البـلاد . وغاية ما أتمناه أن ترقد رفاتي في الارض المنعشة التي رقد فيها أجدادي فأكون في جوارهم

— وأنا أيضاً شعرت بضرورة العودة إلى الوطن الذي نفتديه بأرواحنا لكني كنت أخشى أن يكون رأيي مضاداً لرأيك

فقالت جان : أما أنا فحيث يقطن أبي وأحبائي أقطن وأكون مسرورة على أن سكنى باريس أفضل من السكنى بين الرجال المتوحشين والوحوش الضارية

فقال جون للبارون : لقد صممت إذاً على العودة

— ما ترتأيه أنت استحسنه

— لا بأس من العودة

— نعم لا بأس من العودة فامضي بقية أيامي ناعم البال . . .

ثم اقترب منه وقال همساً : يجب أن تهتم بالمسألة أكثر مني . . .

— لماذا ؟

- لأن عندك داعياً مهماً

- - وما هو ؟

فأشار البارون بيده إلى جان وقال : هذه . . .

— لم أفهم قصدك

- - أعني أنك لن تجد لها زوجاً موافقاً هنا . وقد أصبحت شابة في مقتبل العمر . إني أهتم بها لأني أعدها كابنة لي

— الحق معك ياعزيزي

— اعلم أيضاً أن فرعون وأنا لن نفارقك مطلقاً وقد مضى أكثر من خمسة عشر عاماً ونحن متحدون نعمل كاخوة بقلب واحد وسريرة واحدة . إذا غادرت هذه البلاد فنحن معك وأين تسير نتبعك . . . أفضل أن تصفي ممتلكاتنا ومواشينا

فطار جون من الفرح والتفت نحو جان : وقال ما رأيك أنت ؟

— إني أوافق على قراركما معاً

كان فرعون يرقص من شدة طربه وهو لا يكاد يصدق بأنه سينجو من هذه البلاد المتوحشة وفي اليوم التالي انتشر أمر تصفية مزرعة بانيل ومواشيه فأقبل الناس هاتفين من كل جهة

بعد ثلاثة أيام وفد ثلاثة من المثرين من شيكاغو وعاينوا المزرعة وفحصوا المواشي . فأظهروا ارتياحهم لشرائها

وفي نفس هذا المساء أمضي عقد البيع بشروط اتفقوا عليها جميعاً

وفي أول سبتمبر قصد الأربعة (البارون وجون وجان وفرعون) مدينة نيويورك حيث أقاموا فيها إلى يوم إبحار الباخرة « بريطانيا » وكان ذلك في اليوم الثالث

كان جون قبل مبارحته الثغر قد أرسل خطاباً إلى الكونتيس دي بوسي يقول فيه ما يأتي :

سيدتي

كان شوقي إلى بلادي أشد تأثيراً عليّ من الحقد الذي دام بيننا طول هذه

الأعوام . فبناء على ذلك قد عولت على مغادرة أمريكا عائداً إلى فرنسا حيث أقيم في مزرعتي التي نشأت منها . وبذا نكون متجاورين

أجهل نتيجة مسماك وما بذلته من الجهد في سبيل البحث عن الفتاة التي أفقدنا القدر آثارها ...

إعلمي إني أسعى داعياً لأجل الغاية التي تنشديها إلى أن يكلل مسماك بالنجاح فلك إبنتك ولي إبنتي

لا أدرك ما يخبئه المستقبل لجان اذا تزوجت . . . . .

إذ ذاك تخير بيني وبينك إذ لابد أن تعلم يوماً أن الكونتيس دي بوسي كانت قبلا مدام ردون

أسعي منذ أول خطوة في أرض فرنسا لفصل العلائق بينكما . واذا حملك التطفل على التقرب منها ومباحثتها تجمليني في أشد الاضطرار إلى إفشاء السر الذي كتمته نيفاً وخمسة عشر عاماً

لم تكن غايتي العودة إلى البلاد التي خرجت منها والعار نصب عيني والموت في نفسي . إلا أن القضاء المحتم أراد فأنفذ . جعل الله بيننا حائلا وستاراً كي لا نتقابل البتة ؟ جون ردون

نيويورك في أول سبتمبر سنة ١٨٩٤

وصلت الرسالة إلى الكونتيس وهي في منزلها في شارع فيزاندري وبعد تلاوتها شعرت بانحلال في أعصابها وأدركت أن الحقد قد زادت نيرانه اشتعالا بمرور الزمن

شعرت تريز أنها ضعيفة وأنها تقاوم خصماً عنيداً ذا إرادة حديدية لكنها تجلدت وقالت في نفسها : مادلين تحبني وهي لا تدخر وسعاً في سبيل راحتي. جان حية سأتقرب منها مهما كلفني الأمر . ومن يعلم هل تغض الطرف عن هفوتي وتسامحني . أنا والدتها وسلطتي عليها تفوق حنوي لها . . .

أما الأخرى (ريموند) من يردها إليّ . . .

ثم ذرفت دمعة حارة ووقعت خائرة القوى لا تعي شيئاً . . .

انتهى الجزء الثاني

الجزء الثالث

ارادة الرجل

الفصل الاول

كتم السر

كانت الباخرة بريطانيا تقترب من شواطىء فرنسا وكانت السادسة حين أقبل المساء . عندئذ سمع صفيراً يصم الآذان فاقترب البارون بانيل من جان وقال لها متردداً : سنفترق يا عزيزتي بعد قليل

— لم يحن الوقت بعد فان صديقك بريفيل ينتظرنا لملاقاتنا وسنقيم عنده ثمانية أيام على الأقل

— وبعد ذلك ؟

— نفترق فتذهب أنت إلى نورمانديا لترى أحباءك وأقاربك وأعود أنا إلى النيفر . . .

— لمشاهدة أصدقائك أليس كذلك ؟

— وا أسفاه . ليس لي أصدقاء سواكما (تعني البارون والمزارع) ...
وكان فريعون حاضراً فقال لجان : يظهر أن السفر أثر في صحة والدك . . . .

— كيف لحظت هذا الأمر ؟

— ظهر لي من خلال احاديثه ومجالساته

كان البارون كلما اقتربت الباخرة من الثغر يزداد سكينة وتقل محادثته . ويظهر من ملامحه السآمة والقلق . . .

أما جون فقد استولت عليه السوداء وضيق النفس لكنه كان يخفي ذلك الشعور أمام أصدقائه لكيلا يهتموا بشأنه ويسألوه متطفلين لأن ذكر هذا الأمر يزيد مصابه ويقربه من الحقيقة التي يسعى في نسيانها

أرخى الليل سدوله فتلألأت النجوم في كبد الزرقاء وسطع نورها . ولم تمض بضع دقائق حتى ظهر في الأفق آثار قمم الجبال النائية والقصور الشامخة . فصاحت جان بهجة تخاطب قبطان الباخرة : لقد وصلنا ياعزيزي

— أجل . وقد حانت ساعة الافتراق . . . لم تر عيني وجهاً جميلا مثل وجهك

لم يخطئ القبطان في مدحه جان فانها انموذج لتمثال والدتها مذ كانت في سن العشرين . . .

سمع جون هذا الاطناب المستحسن فأخذ يفكر في تلك المرأة التي لقبت باسمه وقال وهو يصر أسنانه حنقاً : من النساء من يستحققن القتل . . . إلهي : من حملني على العودة إلى هذه البلاد التي نبذتني وطردتني بعد أن الصقت بي عاراً لايمحى . . .

كان جون يشغل الوقت غارقاً في بحار التأملات المقلقة وقد تبدل وجهه حينما انقشعت غيوم الأفق وظهرت الارض المبتذلة . . . . إذ بجان قد وضعت يدها على كاهله وقالت : أبتاه أطلعني بما تخفيه في نفسك

فالتفت نحوها ولم يجب فقالت وهي تنظر اليه ببصرها الثاقب : لقد نغصت عيشتنا

— وكيف يكون ذلك ؟

— لأن من يراك بهذه الهيئة يعتقد أنك أسوأ العالم حظاً

— لايكن اغترارك ايتها الحبيبة بهيئة الانسان الظاهرية وليكن بحثك مقتصراً على الجوهر وهو خلاصة خلقه ومجموع شعوره . فاذا رأيت في محفل رجلا يمازح من حوله فلا تعتقدي إنه سعيد . . . فاذا أردت أن تطلعي على حقيقة حاله راقبي سكناته حينما يكون منفرداً في منزله وحينما يتبدل ذلك الشعور الوقتي الذي غشيه مرغماً فتنجلي اذ ذاك الحقيقة لك وتسمعيه يتأوه من ألم أو يتفجع على فقيد له وفي هذه الحالة يصدق فيه قول الشاعر :

لاتحسبوا ان رقصي بينكم طرباً فالطير يرقص مذبوحاً من الألم

— فهمت مغزى كلامك . . . لكن أتعلم ماذا قيل لي عنك ؟

— كلا

— يظهر أن السفر أثر على صحتك

— من قال لك ذلك ؟

— فرعون

— ليهتم بصحته أولا ولا يتحدث بما ليس من شؤونه . . .

ولما هدأ روع جون قال : حقاً يابنية أن ملامحي تغيرت وأصبحت رجلا غريب الاطوار

— وما سبب ذلك ؟

— لذلك اسباب شتى لامحل لذكرها الآن . . . ألا تزلين تحبينني ياجان ؟

— وهل يزول حب ابنة لوالدها ؟

— لقد سألتني عن سبب التغيير الذي طرأ علي ؟

— بدون شك

— إن في الامر سر كتمته عنك طول هذه المدة . . .

— لقد أرعبتني حقيقة

— سر هائل . . . إن حادثة تميت العواطف طرأت علي وأنت لاتزالين في مهد الطفولة حملتني على مغادرة فرنسا فاصطحبتك وأراد الله أن اعيش لأجلك بعد أن تمنيت الموت . . .

— وهذا السر ؟

— لافائدة من الاباحة به لك . الأيام المقبلة تطلعك عليه . . . فاذا خامرك شيء من هذا القبيل فأخبريني عنه فأحلو لك الحقيقة . أتعدينني بذلك ؟

— بشرط أن تكون مسروراً

— قبلت بهذا الشرط

— وعدني أن تكون في المستقبل بشوشاً

— اعدك . .

عند السابعة ونصف رست الباخرة في مرفأ الهافر . فأسرعت الزوارق لتقل الركاب إلى الشاطئ . فنزل البارون وجان في زورق . وأما جون وفرعون فاخذا يهتمان بنقل الأمتعة

وقرر جون أن يمضوا هذه الليلة في إحدى فنادق فراسكاتي . وقال البارون لجان : ألا تأسفين على مهاجرة امريكا،

— لا أرى داعياً للاسف ما دمت بيننا

— أما أنا فآسف على ليالي الشتاء اللذيذة التي قضيناها بقرب الموقد نصطلي وآسف أيضاً على تنزهاتنا في الصباح بين المروج المخضرة نمتع بصرنا بجمال الطبيعة الهادئة

— دعنا من هذه الأحاديث ولنملأ جوفنا . . .

وكان جون طلق المحيا منشرح الصدر ولم يخف ذلك على البارون فاخذ فرعون يستنشق الهواء بملء فيه ويقول : ما اطيب هواء الوطن المحبوب

أما البارون فكان يتظاهر بالسكينة لكن اضطرابه لم يكن ليخفى على جان فقالت في نفسها : سوف أعلم سبب هذا الاضطراب واصف العلاج

رفعت جان كأس الشمبانيا وقالت : فلنشرب ايها الأحباء نخب وصولنا سالمين . . .

في الثامنة من صباح اليوم التالي ركبوا القطار السريع إلى باريس

الفصل الثاني

كشف السر

كانت المائدة التي اعدت في قصر الفيكونت دي بريفيل اكراماً لعودة البارون وأصحابه مزينة بالاطباق الملونة والاطعمة اللذيذة والأشربة المنعشة . وكان الفيكونت يبش في وجه ضيوفه ويقص عليهم اللطائف الأدبية ويهنئهم بوصولهم وقد قال في هذه الأثناء : لم أقم بواجبي كما يجب نحوكم . . . .

ولما انتهوا من تناول الطعام ذهب الفيكونت ومدعووه إلى قاعة التدخين وذهبت الفيكونتيس مع مدعواتها إلى قاعة كبيرة مزخرفة ومفروشة

بأفخر الرياش تستطع الانوار الكهربائية في وسطها . وهناك عزفت أحداهن على البيانو . وقالت أخرى لرفيقتها : قصي علينا ما حدث أمس في جواركم ...

وانصت الجميع لحديث جان ومن ضمنه : كل ما أسمعه وأشاهده هنا يتباين عن معيشة أهالي امريكا ألا وهي الهمجية الهادئة . هناك نقضي النهار كله على صهوة الجواد نطارد الوحوش الضارية ونطلق عليها رصاص مسدساتنا . . .

هناك الحرية المطلقة بين المروج المخضرة والهواء العليل المفرج للكروب..

هناك قوة المرأة تعادل شجاعة الرجل . تخوض ساحات الوغى وتخترق صفوف المقاتلين غير هيابة الموت ولو كان نصب عينيها . . .

وأرجو أن تتلطف فى نفسي هذه الطباع والعادات الامريكية بفضل ما سأقتبسه هنا بين الطبقات النبيلة من الآداب الراقية

***

(سهونا عن أن نذكر للقراء انه فى العاشرة من ذلك الصباح ذهبت الفيكونتيس مع جان الى محل الأزياء لشراء قبعة وكانت سوازن هى التي تبيعهما)

ومن غريب الأتفاق أن الخدمة فتحوا باباً بين القاعتين فأجال جون ببصره في ما حوله فلم يجد لاجان ولا الفيكونتيس فاشتعلت نيران الغيرة في فؤاده

وقال الفيكونت للبارون: ساعرفك ياعزيزي بأصدقاء لنا فى مقاطعة (السين والمارن)

— من هم ؟

— الدوك دى لوسي وحفيدته وزوجها . . .

— أليس المركيز دي بورد ؟ إني أعرفه تمام المعرفة وأعرف والدته التي تقيم في نزل مواجه لي وهي تستشيرني دائماً وتعتقد في أخلاصي

فقال فرعون معترضاً متطفلاً : هل هم اغنياء ؟

— واصحاب ملايين إلا أن السعادة لاتتم في كل منزل قطنت فيه الملايين فان أمرأ قلب افراحهم إلى شجون . . .

— وما هو ؟

— هو انهم لم يخلفوا ذرية ترثهم . . .

— أن المركيزة لاتزال في ربيع حياتها ؟

فقال جون في نفسه : لقد ثأرت لي الاقدار

***

وقفت الفيكونتيس وجان أمام ممشى مظلل بالاشجار فأبصرت عن بعد خطوات قليلة باباً مفتوحاً قد برزت منه إمرأة بلباس الحداد . وهذه المرأة هي الكونتيس دي بوسي وقد اخذت تمتع بصرها في ابنتها التي غادرتها في مهدها وراها الآن شابة بارعة في الجمال . قالت جان في خلال حديثها مع الفيكونتيس : لابد أن اجدها ووالدي لايحنو علي بماله ولايرفض طلبي . . مسكينة انت ياريموند . .

اخذت الفيكونتيس بيد جان وذهبت معها وهي تنظر إلى المرأة الموشحة بارتياح . وكانت تريز تستجمع قواها لتصرخ قائلة : جان . أنا والدتك . إلا أن قوة خفية كانت تردعها فتردها خائبة

لقد وعدت بالكتمان ولابد ان تفي . تلك الفتاة المقمة الباقية لها في هذه الدنيا. مرت التخيلات المزعجة على تريز وشعرت أن الحائل دون ضمها ابنتها إلى صدرها إرادة زوجها الفولاذية . فتذكرت ما قاله لها في رسالته الاخيرة من نيويورك . « أجل . سيأتي اليوم الذي فيه تعلم جان أن تريز ردون أو الكونتيس دي بوسي هي والدتها » . لكن سبب هجر والدها لها وزواجها ثانية ذلك مما تخبئه لها الايام وتظهره الأعوام فيما بعد

إذا فرضنا أن علمت جان الحقيقة فهل تزول محبتها لها ؟ — كلا

عندئذ نهضت تريز وهي تتأمل في المستقبل والرجاء يشفعها وخرجت وكانت أضواء المصابيح الكهربائية تنير الشارع القفر . فأدركت أن لا رقيب عليها وسارت إلى منزلها وهي تتأسف لعدم تمكنها من التعرف بها

وبينما هي في غرفتها إذ طرأ على خاطرها أمر العودة إلى المكان الذي

شاهدت إبنتها فيه فقوت عزيمتها وخرجت من منزلها قاصدة المنزل الذي ذهبت اليه أولاً

ولم تكد تطأ عتبة الباب حتى طرق أذنها وقع أقدام وراءها ويد حديدية وقعت على كاهلها أوقفتها عن عزمها فالتفتت مرتعبة وارتعدت فرائصها واصطكت أسنانها من شدة الخوف. وكان جون فقال وهو يهز رأسه استهزاء: لقد تنبأت وقوع الخيانة وأنا في منزل الفيكونت لأنك أردت. فسأشهر الحرب والمرأة إذا أرادت عملت ... هل كنت هنا قبل هذه المرة؟

— نعم

— هل حادثتها (يعني جان)؟

— كلا

— هل علمت بك؟

— كلا

— من فتح لك هذا الباب؟

— وماذا يهمك من هذا السؤال؟

— هل مدام ريفيل فتحته

— لا يمكنني الاجابة على ذلك

— وماذا يفيدني إقرارك؟ ألست بعالم أن الفيكونتيس صديقتك في المدرسة وقد طلبت منها هذه الخدمة فهي لا ردك؟ يجب أن أغادر هذا المنزل ...

— تخطئ اذا فعلت

— لماذا؟

— لأنك تقلل من الواجب عليك نحو التي أنت مدين لها. وهي لا تلام مهما فعلت ... الفيكونتيس إمرأة شريفة بثثت لها شجوني فوعدتني خيراً وكان ما بيننا سراً مكتوماً عن كل الناس حتى عن زوجها ... هل ما فعلته يعد جريمة نحوك؟

— نعم

— وكيف ذلك ؟

— تذكرة لك أعيد إلى مسامعك خلاصة ما قاله عشيقك حينما كان في منزل في شارع باك المشؤوم : لا أريد تجزئة . فبيننا الآن حائل منيع واليوم الذي تعلم فيه جان عن وجودك تخير بيني وبينك بعد أن تعلم الحقيقة الصادرة من اقرارك المنسوخ بخط يدك . ربما تذكرين المقابلة الأخيرة ؟.. ورسالتي ؟ وربما فهمت أن كلا منا يسعى لنفسه ويحتفظ بماله : لك ابنتك ولي ابنتي ...

— ربما اقترحت عليّ هذا الأمر لأنك تعلم أن وجود الأخرى يعد من رابع المستحيلات

فقهقه ضاحكا وقال : الأمر بسيط

— أنت قاس وفظ إلى حد التوحش

لجذبها بعنف وقال : أنصحك بأن تكفي الملامة بعد العار الذي ألحقتني به واعلمي أن دمك كله لا يكفي لارواء غلة انتقامي

فتخلصت منه وهي تقول : خذ دمي وروحي إذا تجاسرت فاني أبارك اليد التي تسفكه . إنك ظالم في حكمك على والدة ملوعة الفؤاد بمثل هذا القضاء الصارم الذي لم تسنه القوانين البشرية ...

— الوداع

عند هذه الكلمة فرت منه كما تفر الغزالة من وجه القانص وهي تتعثر بأذيالها ولما استقرت في غرفتها أطلقت بصرها في رسم زوجها الراحل وقالت: لم لا يقدم على قتلي فأستريح مما ألاقيه من العذاب

الفصل الثالث

العودة

في العاشرة من صباح يوم صفا جوه وتحلت سماؤه بلونها الطبيعي بينما كانت سوزان تعمل بنشاط ما كلفت به إذ فتح باب الغرفة ودخلت الكسندرين وقالت لها: سيدتي تدعوك

فقامت سوزان وكانت تنتظر هذه المفاجأة بفارغ الصبر فاجتازت القاعات حتى غرفة كارولين وهناك لم تمالك من اظهار فرحها فقالت : أنت هنا أيها الملازم

وكان الملازم بيير واقفاً بقرب الموقد فقالت كارولين : هوذا صديقك يا سوزان أرجو أن تكوني مسرورة بلقائه

فقال الملازم : لقد تغيرت ملامحك كثيراً حتى أن من يراك لأول وهلة لا يعرفك . لأنك أصبحت آنسة بعد أن كنت قروية من لندفن

كان وجه بيير شاحباً من تأثير جراحه . وكانت سوزان تلاحظه فقالت: لقد تغيرت ملامحك ياعزيزي

— لأني تألمت كثيراً وقد زاد في آلامي خوفي أنها تطول فلا أعود أراك . . . . ولا أرى بلادي العزيزة

— والآن هل عزمت على الذهاب ؟

— غداً أكون هناك

— وحدك ؟

— كلا سيصحبني شاب عني من الخدمة يدعى لاشوم وهو من ضواحي سوفاجير وقد خاطر بنفسه لينجوبي من تهلكة محققة . والقبطان بليس الذي أنا مدين له أيضاً لقيامه بأعمال أخرى

— متى تغادر باريس ؟

— في هذا المساء

— وبعده ؟

— أذهب إلى لندن

— وبعد ؟

— أعود إلى باريس ومنها إلى حمامات بنريس حيث يتم فيها شفائي . . . يجب أن أرى طبيبنا اليوم ليحكم في نتيجة جراحي

— وبعد ؟

— أذهب إلى التوبكين . . . أو أعود إلى لندن . . . سأقرر عزمي في هذا المساء

فقالت كارولين : متى يبرح القطار ؟

— الساعة الثامنة

— وماذا تفعل قبل ذلك ؟

— أتناول الغداء ثم أذهب إلى الوزارة . . . هل تنعمي عليّ بسوزان ؟

— لتصحبها إلى بريطانيا ؟

— كلا بل لتتناول الغذاء معي

فقالت كارولين تخاطب سوزان : إلبسي قبعتك وتأهبي

فأسرعت سوزان لقضاء أمر سيدتها

فقالت كارولين مغتنمة فرصة غياب تلميذتها : أتحب هذه الفتاة ؟

— من صميم فؤادي . . .

خرج بيير مع سوزان بعد أن استأذنت سيدتها

وكان لاشوم في انتظارهما فساروا إلى حدائق التويلري وكانت الساعة إذ ذاك حوالي الحادية عشرة فجلسا على مقعد وأخذت سوزان تقص على بيير خلاصة ماحدث لها منذ وفاة والدته إلى إقامتها عند كارولين وكيف لم تنبئه عن وفاتها خشية أن يؤثر ذكرها على حياته

بعد ساعة من الزمان قصدوا مطعماً في شارع رويال حيث تناولوا الغذاء

وهم يتسارون ويتجاذبون أطراف الأحاديث

وفي أثناء الطعام أخرجت سوزان خمس لوبسات وأرادت أن تعطيها للملازم ليسلمها إلى الأب كرجور فلم يقبل وقال : سوف تعطيني إياها عند عودتي

فقالت : وهناك . . . ضع باسمي باقة من الزهور البيضاء على قبر والدتك

فلم تتمالك سوزان عندئذ من إخفاء مبلغ تأثرها وأذرفت دمعة جفت لوقتها

فأخذ الملازم رأسها بين يديه وأدنى شفتيه من شعرها الحالك اللامع وقال همساً : احذري من فساد باريس

ثم افترقا وسوزان تشيعه بصرها حتى توارى عنها . . . .

الفصل الرابع

الافتراق

كان جون مذ عودته إلى فرنسا لا يهدأ له بال وخصوصاً بعد مقابلته الفجائية لزوجته التي أظهر لها الجفاء

حان وقت الافتراق وكانت الساعة السابعة من الصباح حين نزلت حان الى الحديقة وجلست على مقعد تنتظر وقد استولى السكون على الجوار فسمعت وقع أقدام البارون فالتفتت نحوه وقالت وهي تحاول الابتسام : سنفترق بعد قليل يا عزيزي أليس هذا بمؤلم ؟

— نعم

— ألا يحدثك فؤادك بشيء ؟

— بلى

— بماذا تشعر إذاً ؟

— أشعر بأني مضطرب قليلاً

— لماذا ؟

— لأننا سنفترق عن قليل ولا نعلم هل سنلتقي ثانية

— إعلم ياعزيزي إن هـذا الفراق لا يستمر طويلا إلا إذا داهمنا مفرق الأحباب والجماعات . فاذا كان اعتقادي مفارقتك إلى الأبد لما عدت من أمريكا . . .

ثم جذبته بيـدها وقالت : الآن أجلس ولنتحدث جـدياً . . . إلى أين أنت ذاهب ؟

— إلى صديقي بريفيل

— وهل تبقي هنالك ؟

— أبقى إلى أن أجد منزلا يناسبني . . . لماذا تسأليني هذا السؤال ؟

— لأني أريد مراسلتك . . . . وحيث أستشيرك عن أمور شتى

— لم لا تستشيري والدك ؟

— لأن بيننا حائلا ؟

— هل زالت منه المحبة الوالدية مثلا ؟

— كلا . منذ بضعة أيام سألته عن والدتي فلم يجبني بصراحة وأني لأتعس شابة في الوجود لافتراقي عنك مع أني في أشد الاحتياج إلى إرشاداتك . . .

— سأعدك بمساعدتي حسب حاجتك إليها

— إعلم الآن أن مسألة والدتي وشقيقتي قد أقلقت راحتي ونفرتني من والدي الذي خدعني ولا يزال يخدعني ويخفي بين طيات فؤاده سراً هائلا . ..

— هدئي روعك ياعزيزتي . . .

— أليس عاراً أن يكون أبي في هذه الحال ؟ . . . .

وبينما هما كذلك إذ أقبل جون على البارون وقال له وهو يصافحه : استودعك الله أيها الصديق الحميم وأرجو ألاّ يطول فراقنا

افترقوا وكانت عربة في انتظارهما خارجا فركباها وسارت بهما

وفيما كان البارون واقفاً إذ لمح امرأة متشحة بالحـداد تشابه جان تمام المشابهة فأعتقد أن ما يراه ليس إلا أضغاث أحـلام فأطرق ثم رفع رأسه فلم

يجد أحداً وكانت عربة تقف أمام المنزل ثم برز منها الفيكونت وهو يقول هل تأهبت للسفر ؟

— نعم

— لم يبق لدينا إلا مدة المسافة إلى المحطة

بعد بضع دقائق لم يبق في منزل بريفيل غير البواب

الفصل الخامس

أب وابنته

كان القطار الذاهب إلى نيفر مزدحماً بالمسافرين وكانت جان تغتنم الفرصة لتمتع بصرها بالحدائق الغناء والغياض المخضرة والمستنقعات القليلة الغور

لم تكن تلك المناظر لتؤثر على نفسها وبصرها أكثر من ذكرى الأمر الذي حارت له وهو إخفاء والدها عنها السر الذي ظل تحت ستار الكتمان نحواً من عشرين عاماً

جان شابة فطنة وجميلة ولا تريد أن تلعب بها يد الأقدار كما تشاء . جان بكل معنى الكلمة تريد أن تعلم الحقيقة. كما أن السجين في الظلمات يريد أن يخرج منها إلى النور

إذا مر هذا الأمر في مخيلتها شعرت بأنها ضعيفة أمام رجل ذي ارادة قوية فترتمد كالقصبة

وقف القطار في نيفر وكانت عربة يقودها جوادان واقفة بانتظار صاحب المزرعة . فركباها وسارت بهم اليها . إلى تلك الأرض التي تركها يائساً وقد عاد اليها ظافراً

في الطريق قال الحوذي (وهو مولين الذي كان في خدمة آل ردون) لجون : هل هذه الشابة ابنتك ؟

— نعم

فأظهر الحوذي إندهاشاً وقال في نفسه : إنها تشابه والدتها تمام المشابهة
وكان جون قدأوصاه بعدمالتحدث بهذا الشأن . وكان في الطريق يشرح لجان أخبار تلك البقاع القديمة والطوارىء التي حدثت له فيها
وقد قال في خلال أحاديثه : هـذه غابة مونتيبي . . . وهذا مستنقع بيير . . . وهذا برج كنيسة سان بناندازي . . .
وقفت العربة أمام غابة شانتلي . فترجلا ودخلا إلى حيث كان الأب فوكار جالساً يخاطب جيرارد وبجانبها امرأة أخرى أصغر منها سناً
فقال الأب : هذه الآنسة الجميلة إبنتك ؟
— نعم . ثم قال لجان : عانقي الأب فوكار الذي هو صديق والدي . . . فعانقته جان . فقال الشيخ همساً في أذن جون : وأين شقيقتها ؟
— لا يعلم مقرها إلا الله
أراد جون أن يقصر الزيارة فقال لجيرارد : يجب أن يتأهب موليس لإعداد العربة لأننا نرغب أن نصل قبل المساء
ركب جون وابنته العربة بعد أن ودعا الاب فوكار . فسارت بهما وكان الطريق بين شاتيلون وسوفلي طويلاً
لما وصلت العربة إلى مرتفعات شفان قالت جان : ماذا تدعى هذه الجهة ؟
— قصر بوسي
— لمن هذا القصر ؟
— لأرملة
— ماذا تدعى ؟
— الكونتيس دي بوسي
— هل هي متقدمة في السن ؟
— كلا . . . ماذا يهمك أمرها وأنت لا تعرفينها ؟
— هل هي غنية ؟
— نعم ؟
— هل تقيم فيه دائماً ؟

— بل أحياناً

— وبقية أوقاتها ؟

— حيث تريد . . . متى كانت صاحبة ملايين فلا يهمها أين قطنت

— هل بقعة بوسي بعيدة عن سوفاجير ؟

— أربعة فراسخ

اجتازت العربة الشارع المؤدي إلى سوفلي فقال جون وهو يصفق طرباً: لقد وصلنا

— إن سعادتي لا تقدر

— لماذا ؟

— لان هنا موطنك وموطني معاً

— أجل

— بل موطنك الذي تزوجت فيه ونشأت أنا منه

فارتعدت فرائص جون وقال وهو يزدرد ريقه : لقد مضى على ذلك زمن طويل

أصبح ذلك المنزل الذي تحيط به مزرعة سوفاجير قصراً فخماً . وقفت العربة أمام الباب الخارجي فترجلا ومسك جون بيد إبنته لكنه شعر بانقباض لا يدرك له سبباً . فقال جون : نحن في منزلنا فلنستقر فيه وندم سعيدين ...

— هل تعتقد أن سعادتنا لا تدوم ؟

— قد لا تدوم . وذلك حين تزول منك العاطفة البنوية وأنا لا أريد...

— لا تعتقد ذلك فاني مدينة لك بما قمت به نحوي من التربية والحنو وهو ما لن أنساه قط

— هل تحبينني ؟

— دائماً

— إني أخشى إن فقدتك فقدت كل شيء . . . كل مالي على وجه البسيطة

ثم بعد تفكير طويل قال : لقد أبحت لك ان لي سراً يشمل حياتي . ولا بد أن تعرفيه . . .

— متى ؟

— ليس هذا المساء . فلندخل الآن . وغداً اعلم إن كنت قد أخطأت بعودتي إلى هذه البلاد أم لا

وكانت جان تتسائل : ما هو هذا السر يا ترى ؟

كانت الاشباح المخيفة تمر أمام مخيلة جان فلا تدرك لها معنى

فالاب وجل حائر . . .

من له قلب ونفس وعواطف ولا يتأثر لذكر والدته لاسيما إذا كانت على قيد الحياة ؟

فجون إذاً يقاوم بارادته الصلبة تلك القوة المغتصبة التي تعاركه

عند العاشرة عاد جون وإبنته إلى غرفة النوم المعدة لهما وقال لها : نامي مستريحة فغداً تعلمين كل شيء

سمعت جان وقع أقدام والدها حتى توارى فقالت في نفسها : ماذا سيحدثني غداً ؟ وما يكون السر الذي يعزعليه إفشاؤه ؟

فتحت النافذة واتكأت وكان على مسافة قريبة منها في الجهة اليمنى قمة جبل صخري تلاعبت بها محن الأيام وسطعت النجوم بنورها اللؤلؤي الضئيل عليها فظهرت في شكل مهيب وسط تلك البقعة الهادئة

مر رجل خلال ذلك وفي يده مشعال وقد تبينته جان فعرفت أنه الحوذي الذي جاء بهما فقالت له : أنت هنا يامولين . . . هل لك أن تخبرني عن إسم هذه الجهة ؟

— دعيت بالصخرة الدامية

— ولم دعيت بهذا الاسم الرهيب ؟

— قيل أنه فيها مياه دموية حمراء . ويعتقد بعض الناس أن الكهنة في قديم الزمان كانوا يقدمون عليها القرابين من الضحايا البشرية

انقطعت هذه المحادثة القصيرة فأقفلت جان النافذة

عند منتصف الليل تمكن سلطان النوم من جان فنامت نوماً عميقاً

في صباح اليوم التالي استيقظت وارتدت ملابسها ونزلت إلى رحبة القصر

حيث كان المزارع وموليني يتحدثان فقالت لهما وهي تشير إلى الصخرة : إني ذاهبة إلى هذه الجهة

خيل لجان أن هذه الصخرة ستفتح لها مكنوناتها الملآنة بالأسرار فسارت حتى وصلت إلى ممر ضيق فأبصرت على مسافة منها رجلا يتنزه فكان والدها كلاهما يتجهان نحوها . . . فلما أدركا قمتها كانت جان تحاذر أن يراها والدها فاختبأت بين أوراق شجرة الكستناء بحيث تراه ولا يراها

وقف جون أمام شجرة هائلة تدل هيئتها على أنها بلغت المائة عاماً فتمكنت جان من قراءة اسمين منقوشين على جذعها قد أظهرتهما محن الأيام وصروف الدهر وهما : تريز تونيلييه وجون ردون

فسقطت دمعتين من مقلتي جون . دمعتا اليأس والألم . فخرجت جان من بين الأوراق واقتربت من والدها ووضعت يدها على كاهله فالتفت نحوها وقال منذهلاً : أنت هنا ؟

— نعم

ثم أشارت إلى الاسمين وقالت : هل تريز تونيلييه والدتي ؟

— نعم

— لماذا تبكيها ؟

— لأني تذكرت الايام السعيدة التي قضيناها معاً...وا أسفاه لقد كانت قصيرة . . .

— هل توفيت ؟

— كلا لكنها هجرتني

— متى ؟

— حين سافرت إلى أمريكا . . .

— لقد قلت لي قبلا أنها توفيت ؟

— بل لا تزال على قيد الحياة

— أين هي الان

فأشار بيده الى قصر بوسي الفخم وحدائقه المحيطة به التي تزيده رونقاً وبهاء وقال : هنا تقطن

— أهي الكونتيس دي بوسي ؟

— هي بعينها

— كيف تكون زوجتك وتدعى بغير لقبك ؟

— لأنها نالت حوار طلاق من القضاء

— لماذا لم تعترض على القضاء

— لأني كنت بعيداً . . .

— وماذا فعلت بعد ذلك ؟

— اقترنت بالكونت صاحب هذا القصر الجميل

— وهل لا يزال حياً ؟

— بل توفي منذ ثلاثة أعوام تقريباً

— لماذا كذبت حينما سألتك عنها على ظهر الباخرة ؟ . .

— لأني أردت أن أحول بك من مخالب امرأة سلبت هنائي وراحتي...

— وريموند ؟

— تركتها في فرنسا لأنها لا تحتمل مشاق السفر

— عند من ؟

— تركتها لعناية أسرة أثق بهم

— لقد هجرتنا والدتي إذاً ؟

— لا أعتقد أن الأم الحنونة تفترق عن أولادها بطيبة خاطر

— وما هو سبب هذا الانشقاق ؟

— لذلك سبب خطير لا أريد أن أبوح به لك لأني لا أريد أن يزول احترامك لها . . . فقد كانت حنونة نحوك . . .

استولت على جان تلك الرغبة التي تاقت نفسها إليها مراراً . . . .

بكت على والدتها فكيف إذا كانت على قيد الحياة ؟

رأت أن تنتظر ريثما تستشير صديقها البارون وتطلعه على الحقيقة

ثم التفتت نحو أبيها وقالت له : أو تخشى بأساً ؟

— أجل لأني خدعتك مدة طويلة

لا أريد أن أعلم سوى أنك رجل شريف وشفوق علي . . . وسأنتظر اليوم السعيد الذي فيه تمحى هذه الذكرى المؤلمة من مخيلتك. واليوم الذي فيه تسمح لي بولوج قصر بوسي وأعانق والدي كما كنت أعانقه وأنا طفلة . . . ويزداد سروري حينما أراكما متحدين تتقشان أسميكما على هذه الشجرة ذكرى عهد جديد وثيق . .

ثم أدارت مجرى الحديث وقالت: أ تكتئب لفقد رجوند

— بدون شك

— هل بحثت عنها ؟

— كثيراً ووالدتها الآن تبحث عنها . . .

ذكرى الطفولة السعيدة . . . تذكرت جان التنزهات الجميلة في حدائق التويلري وشعرت إذ ذاك أن الوالدة مهما تصلب فؤادها لا بد أن يكمن فيه ذلك الانعطاف والحنو نحو أولادها . . .

فقالت : لم لا أسعى لايجادها مادمنا مقيمين في فرنسا ؟

— إن رأيك سديد فلنقم بالبحث حتى نجدها

عاد جوزه وابنته إلى القصر وهناك قالت له : أطلب منك أمراً لا أخالك تبخل به عليّ . . .

— وما هو ؟

— إن تعطيني رسم والدتي لكي أقابله برسمها الذي في ذاكرتي . ومتى ذهبنا إلى باريس أسعى لأخذه بالفوتوغرافية

فأخرج جون من محفظته الجلدية رسماً قد أعفاه القدم وأعطاه لجان التي أخذته وأنعمت فيه النظر ثم أعادته اليه . ولما اختلت في غرفتها قالت في نفسها : لقد أحبها ولا يزال يهواها . . . سوف أصالحهما فتبتدىء حياتنا الجديدة المملوءة بالهناء والرفاهة

الفصل السادس

بزوغ فجر الحقيقة

في الثامنة من صباح اليوم الثالث وهو يوم الأحد استيقظت سوزان وهي تقول لقد تأخرت

سمعت طرق بالباب فقالت : من في الباب ؟

— أنا الكسندرين

— حسناً امشي الهوينا فسأتبعك بعد برهة

كان الطقس جميلا وفي شهر سبتمبر . . .

نزلت سوزان ولما مرت بجانب البواب قال لها : رسالة لسيدتي سوزان فأخذت الرسالة منه وتأملتها فاذا هي من بريطانيا فقالت في نفسها : من الملازم بدون شك . وكانت تحوى الرسالة هو ما يأتي :

عزيزتي سوزان

أكتب إليك كمتهم قضى عليه الأمر . برئت من جراحي لكني أعفيت عن الخدمة العسكرية بقرار من الأطباء . . . .

هذه هي الحقيقة الجارحة

كنت أطمع بأن أصل يوماً ما إلى درجة قبطان مثلا فيمكنني إذ ذاك أن أتخذ لي شريكة في حياتي . . .

تلك الحسناء التي وددت أن أهبها اسمي ولقبي هي أنت

الآن لم يعد لي مطمع في الجاه والمال وما امتلكه هو منزلنا القديم ومصيف يساوي ألفين تقريباً وبضعة من النقود تكرمت بها وزارة الحربية للذي كرس حياته لخدمة وطنه

لن يطيب لنا العيش في وسط الطبقة الضئيلة بين البحر الهائج وسكينة الطبيعة الهادئة

حتى إذا رزقنا الله أولاداً نجعلهم أعوذجاً لخدام الوطن أو بناتاً ليندرجن في سلك الرهبنة

هذا كل مايمكنني أن أقدم لك ياعزيزتي

أقول لك والدمع يترقرق من مقلتي حزناً وأسى : أترغبين أن تلقبي نفسك بالبارونة كردانيل فتشاركين أيام بعلك في ذلك المنزل الحقير وترتدين الملابس القروية

لاتعجلي في الاجابة بل خاطبي ضميرك النقي للاختيار بين المعيشة التي أنت فيها و بين التي ستؤولين اليها

إن رجلا فقيراً مثلي لايلح عليك بهذه التضحية الجسيمة . . .

بعد بضع أيام أعود إلى باريس قاصداً حمامات نريس حيث تعود إلى القوة والنشاط . . .

سأراك بدون شك فتخبريني عن عزمك الأخير وأقبلي تحيات صديقك المخلص بيير كردانيل

لم تكد تأتي على آخر الرسالة حتى فاجأتها الكسندرين فقالت لها : هل أبصرت صديقك هذا الصباح ؟

— أي صديقي ؟

— جيرك حارسك الأمين . . .

— كلا

كانت سوزان تتكلم وأفكارها مشتتة شاردة . . .

قبلت أن تكون زوجته لتفي دينها ألا وهو الجميل . . .

سارت الشابتان في شارع سان اونوري متجهتين نحو ميدان مادلين ولم تزالا سائرتين حتى وصلتا إلى شارع سورمابا الذي يمر فيه الخط الحديدي ...

وكان ثمت شاب حسن البزة يتمشى عند مدخل الممشى المظلل بأشجار اللبخ الباسقة فصادف في سيره الكسندرين وسوزان فحياها وقال للأولى : هل فعلت ؟

فالتفتت الكسندرين نحو تلميذتها وقالت : إن ابن عمي قد دعانا لتناول الطعام في سودين

وساروا جميعاً إلى مائدة وجلسوا على مقاعد مظللة بأشجار الحور وكانت سوزان لا تزال شاردة فقالت لها الكسندرين : هل أنت في بريطانيا ؟

سمع مارسيال هذه الكلمة فأصغى بكليته وقال لابنة عمه : لا تلومي هذه الحسناء اذا كانت تفكر في شؤونها الصغيرة

وبينما هما في الحديث إذ مرت صديقتان لالكسندرين فاعتذرت لابن عمها وذهبت معهما . . .

فانتهز مارسيال فرصة غياب خليلته وقال لسوزان : آه لو تعلمين كم أنا سعيد بمقابلتك اليوم

— أنت لطيف جداً

— أني مسرور من تقدمك في العمل وابنة عمي تمدحك دائماً كما أنها تحبك كثيراً . . . . لا بد أنك حديثة الاقامة في باريس !

— قدمت منذ أربعة أشهر فقط

— من اقليم بريطانيا ؟

— نعم

— في أي جهة منه ؟

— في قرية صغيرة على شاطئ البحر . . .

— ماذا تدعى ؟

— لندفن في مقاطعة المورهيان بقرب قرية سانتان دوري

— الحقيقة إني لم أسمع بهذا الاسم قبل الآن

لم تكن هذه الأسئلة لتوجه إهتمام سوزان فقد كانت تناجي نفسها وتقول :سوف أكون البارونة كردانيل

كانت التاسعة عند ما عادت الشابتان إلى منزلها ومارسيال يرفقتهما

صعدت كل إلى غرفتها وانتظر مارسيال برهة . ثم صعد إلى غرفة الكسندرين وأقام عندها ساعة ثم انصرف وهو يقول لها : سوف أحدثك بشأني . . .

— متى ؟

— بعد يومين أو ثلاثة . . .

— لم لا تحدثني الآن ؟

— لأني أريد أن أخط المشروع أولا . . .

— فلننتظر

انصرف مارسيال على أطراف أصابعه محاذراً مباغتة رقيب

أما سوزان فجلست بقرب النافذة وشرعت تكتب الرسالة الآتيــة الى صديقها الملازم بيير :

صديقي

أخذت بملء الشوق رسالتك وتلوتها وفكرت كثيراً في ما عرضته عليّ فألفيت أن أصرح عليك هذا السؤال : كيف ترغب أن تتخذ شابة تعسة كزوجــة لك ؟ فتاة لا تملك شيئاً . ابنة ذات والدة مختلة الشعور تربت برحمة محسنه . . .

تأمل كيف غادرت لندن منذ بضع أشهر وعليّ ثوب رث وحذاء غليظ وبضع دراهم تركتها لي والدتك رحمها الله

تذكر ما قيل عني في البلاد وما سيقال عني بأني ابنة مجهولة الأصل ... هل أنا حقيقة إبنة هذه المنكودة ايفون والا أفلا يكون والديّ أسوأ حظاً مني لاضطرارهما الى ترك ابنتهما في قارعة الطريق . .

الآن وقد شرحت لك حقيقة حالي فلك الخيار على إني لا أعارضك . . .

أنت لا تشك في صحة قولي بأني مدينة لك ولوالدتك المسكينة التي سيبقى ذكرها في أعماق فؤادي فلا تزيله السنون العفون . لا تعتقد أن قبولي يعد تضحية فاني اكاد لا أصدق أنك تقترح عليّ أمراً كهذا

متى اقترنت بك نقطن حيث تطيب لنا الاقامة . .

في منزل والدتك نمضي أياما سعيدة مملوءة بالسكينة والهناء ونحذو حذو من قطن فيه قبلنا

الآن أقول لك هذه الكلمة : اعلم أن آمال المستقبل واسعة فلا تقنط بل فكر قليلا قبل أن تعرض علي هــذا الأمر . . باريس ملآنة بالعائلات النبيلة وشاباتها تتوق إلى لقب بارونة

إني أعدك بقبولي ولا أجد سواك يغير عزمي
مهما طرأ علي فاني أبقى مطيعة لك إلى آخر نسمة من حياتي
وثق بشعوري الرقيقة
سوزان

لم تنته من كتابة هذه الرسالة حتى كان الدمع ينهمر مراراً من مقلتيها النرجسيتين

الفصل السابع

التجسس

أصبح مارسيال منذ محادثته مع سوزان يظهر كل لطف وحشمة نحوها ونحو الكسندرين التي يدعوها بابنة عمه المزورة . أما هي فكانت لا تثق به لأن وعوده الباطلة قلما تصدق

وكان يجد لذة في مماكسة بوسكاري فكان يقول له : لا أعتقد أن لغزاً سهلا كهذا يصعب عليك حله

وذاك يجيبه : لا بد أنك وقفت على سر هذه المسألة ؟

— وأحمد العزة الآلهية التي قادتني اليه بدون تعب

— هل شاهدت الفتاة ؟

— ربما

— وتود أن تحتفظ بالنتيجة لنفسك ؟

— هذا الأمر لا يعنيك

في يوم الجمعة خرجت سوزان من محل الأزياء . بعد أن انتهت من عملها فقابلت صديقها جيرك وقالت له : ماذا تفعل هذا المساء ؟

— كالمعتاد . أتنزه قليلا ثم أعود إلى غرفتي وأنت ؟

— يجب أن أعود أيضاً

— ان مناخ هذا المساء منعش والتنزه جميل بين الرياض والحدائق . . .

— ألم أخبرك بأني في انتظار رسالة من صديق لي من لندن . . .

وما زالا سائرين حتى وصلا إلى منزل سوزان فتصافحا وعاد جيرك وهو يقول في نفسه : لم أر في حياتي فتاة جميلة ومهذبة مثلها

لم تطأ سوزان عتبة الباب حتى أوقفها البواب بقوله : رسالة لسيدتي سوزان

فأخذت الرسالة بلهفة و بينما كانت صاعدة وقد طفح السرور وجهها إذ قابلتها الكسندرين فقالت لها : إلى أين ذاهبة ؟

— لاستنشاق نسيم هذا المساء الجميل . هل ترغبين مرافقتي ؟

— أتأسف إني لا أستطيع

— لماذا ؟

— لأن كثرة الشغل أنهكت قواي

— إذاً الى الغد

أسرعت الكسندرين في خطاها لكيلا تتأخر عن الميعاد المضروب وكان جيرك يسير في الجهة الاخرى وقد أبصرها وقال في نفسه : أخشى على سوزان من هذه الشريرة المتسترة بثياب الفضيلة

وصلت إلى زاوية شارع بواس فأوقفها مارسيال الذي كان يتخطر ذهاباً وإياباً ، تأبط بذراعها وهو يقول : أين سوزان ؟

— لم تأت لأنها تعبة

فتبسم مارسيال ابتسام الظافر وقال : أعد نفسي سعيداً لعدم وجودها بيننا . . . .

— لماذا ؟

— لأني أرغب في محادثتك على انفراد . . .

— أين يكون حديثك ؟

— في حدائق الشانزيليزيه حيث نأمن الرقباء تحت أشجارها . . . لقد خاطبتك بشأن زواج ؟

— لكني لا أعتقد في كلمة مما تقوله
— سوف أؤكد لك أنه بمساعدتك تعود العاقبة علينا بجزيل الفائدة
— يغيظني أنك تبني قصوراً في الهواء
— كلا فاني أبني على أرض صخرية . . .

دخلا حدائق الشانزيلزيه وتبعهما جيرك وقد اختبأ وراء شجرة غليظة قائمة على بعد ثلاث خطوات منهما فسمع مارسيال يقول لرفيقته : لقد اتفقنا إذا ؟

— نعم
— يوم الأحد القادم ؟
— آخذها معي إلى أنجيين حيث تهتم أنت بما يلزم لاتمام الحيلة

عند هذه الكلمة تصافحا وسار مارسيال في شارع بواسي قاصداً منزله في شارع بروفنس وسارت الكسندرين في شارع رويال وكان جيرك يتبعها على بعد خطوات قليلة وهو يترنم بصوت منخفض هذه العبارة :

« صبراً جميلا أيها الشقيان . سوف تعلمان من يكون الحائل المنيع دون انفاذ خطة مشروعكما العقيم حيث ترغبان إيقاع سوزان في حبائلكما . ويل للذي يمس شعرة واحدة من رأسها لأذيقنه كأس الردى ولوكان جباراً عنيداً »

الفصل الثامن

الفضيحة

كانت ليوني صاحبة نفوذ في قصر بوسي ولسيدها ثقة عظمى بها

أتى الساعي وبيده رسالة فسلمها اليها وهو يقول : رسالة خصوصية لسيدتك

— من أعطاك إياها ؟
— أعطتني اياها آنسة جميلة في ربيع الحياة
— متى ؟

— منذ برهة
— أين؟
— عند مفرق الطرق . وهي على جوادها وتشابه الكونتيس تماماً
— وأين هي الآن ؟
— لقد عادت من حيث أتت
— من أي جهة توجهت ؟
— قصدت سوفلي بدون شك

أخذت ليوني الرسالة وقصدت غرفة سيدتها وهي ترقص من شدة الفرح وقالت : رسالة وردت باسم سيدتي

فأخذت تريز الرسالة ولم تكد تتلوها حتى تساقطت دموع الفرح واطمأن بالها لأن عبارات ابنتها كانت تدل على أنها لا تزال مداومة على حفظ عهود الارتباط البنوي

إبنتها الكبيرة تحبها من صميم فؤادها . وهي تريدها مذ أدركت أنها لا تزال على قيد الحياة . وستكون لها تحت ستار الخفاء ما دام جون يسعى لتفريقهما بكل ما لديه من القوة والارادة

جون أدى خدمة يستحق من أجلها الثناء وهو كتمه سبب الشقاق بينه وبين امرأته

وكأن صوت داخلي صادر من أعماق فؤادها يقول : غداً تعانقينها فتتم سعادتك

أخذت تفكر هنيهة ثم رفعت رأسها وقد ظهر على محياها الوجل خشية مباغتة جون لها فيقضي على آمالها الواسعة التي تحلم بها . لكنها عادت فسكن روعها وأبى لجون أن يتلصص وراء إبنته وقد ودعته وهو لا يشك في اخلاصها نحوه

إبنة تسعى في إزالة ذلك الشقاق

هذه إرادة الابنة تقاوم إرادة والدتها التي لا يحملها شرفها وكبرياؤها على

الخضوع أمام إرادة ذلك الرجل الذي لم يستر عليها عارها . فهل تضرعات إبنة تلين إرادتي والديها ؟

مرت هذه التخيلات على ذاكرتها خلال رقادها فاستولى عليها السهاد فتمثل أمامها إذ ذاك طيف زوجها الراحل يمر ذراعيه ليعانقها فترتعد مفاصلها خوفاً وتردد هذه الكلمات : لا أريد إذ لا يزال في نفسي الأمل

بدت تباشير الصباح فاستيقظت تريز ودعت خادمتها لتأمر باعداد جوادها ثم ارتدت ثيابها وتناولت بعض الطعام بشهية ولما انتهت نزلت إلى رحبة القصر وكانت ليوبي بانتظارها فامتطت صهوة الجواد وسارت به ولم تعد إلا الظهر حيث تناولت الغداء وانتظرت حتى الميعاد المضروب وذهبت بجوادها إلى الغابات المجاورة لقصرها ولم تأت الثانية بعد الظهر حتى وصلت إلى كوخ بوتوشبان الذي قطن فيه آل رفين الراحلون

وقفت تريز هنيهة وهي تتأمل الكوخ الذي أودع فيه طفلتها ريموند فشعرت بانقباض شديد ولم تتمكن من المكوث كثيراً فشدت رحالها قاصدة الصخرة بتمهل لان الموعد المتفق عليه هو الثالثة

وصلت تريز إلى سفح الصخرة قبل الميعاد بعشرين دقيقة فربطت الجواد بجذع شجرة وصعدت إلى الجهة التي فيها الشجرة المنقوش عليها اسمها واسم من هجرها فلم تتأثر لرؤيتها

لِم لم تتأثر لهذه الذكرى ؟ لأن هذه النيران التي تأججت في فؤادها مدة قد خمدت وبرد رمادها

وفيما كانت تريز في تأملاتها سمعت وقع أقدام على حصى الممر الضيق الكائن على مسافة مائتي متر منها فالتفتت إلى جهة الصوت وقلبها ينبض بسرعة

اقتربت جان ففتحت تريز ذراعيها لتعانق إبنتها وهي تقول : جان إبنتي

أرادت جان أن تعانق والدتها لكنها توقفت فجأة وشحب وجهها حتى شابهت الاموات فأسندت يدها إلى جذع شجرة قريبة

لماذا توقفت جانٍ عن معانقة والدتها وقد جمد الدم في عروقها ؟

ذلك لأن رجلاً خرج من بين أوراق الاشجار وهو يقول وقد ملأ الزبد شدقيه من شدة الانفعال : لقد تنبأت بهذه المقابلة

ثم خاطب جان بصوت جاف : كان الاحرى بك أن تكوني صريحة في أقوالك فتخبري بيننا ولا تعديني باطلاً . . . يظهر أن دماء هذه المرأة لا تزال تجري في عروقك

ثم التفت نحو تريز وقال : إني لا أطارد وتذهب أتعابي سدى ما وعدته أوفيه . الاصوب ان أشرح لها حقيقة الامر :

« جان انت تعرفينني جيداً وقد عشنا معاً أكثر من ستة عشر عاماً أنت تشابهين الجندي الذي ينضم إلى صفوف الاعداء عند القتال ... عدوي الالد الذي صادفته في طريق الحياة هو هذه المرأة

« انظري إلى هذه الصورة الفتانة فان جمالها فائق الحد . . . والرجال يقعون في شباكها لدى رؤيتها لاول وهلة . ولاعينها الخلابة تأثير في نفس من يراها . . .

« وجبينها يدل على الذكاء الفطري . . .

« وشفتاها تشفيان العليل وتدعوان العشاق إلى ارتشاف كأس الهوى من ثغر نادر

« كنت في العشرين من عمري فلاحاً قذراً جاهلا مستسلماً إلى التصورات الخيالية . لكنني كنت أبيّ النفس متى وعدت أفي . نشأت من هذه المزرعة وكان والدي فلاحاً أميناً ووالدتي امرأة بسيطة مخلصة له فكنت أعد نفسي أسعد الخلق بوجودي في هذه المزرعة

« أبصرت هذه المرأة فعشقتها وكانت قد قدمت إلى هذه البلاد مع والدها وهو قبطان أعفي من الجندية . شغفت بها والحق يقال إني لم أعالك إخفاء عواطفي وبثثت لها حبي فماهدتني على مداومة هذه الصلة وكنا نذهب كل يوم إلى هذه الشجرة وننقش عليها اسمينا تسجيلا للعهد . . .

« على هذه القمة قبلت والدتك أن تكون لي نعم الزوجة فأعتقدت أني أسعد الناس لكن الحقيقة كانت بخلاف ذلك

« باريس أم العجائب . باريس ابتسمت لها ولمطامعها . أقمنا فيها فكانت تتنزه كل يوم في الحدائق وتمرح مع صديقاتها وربما كانت تبحث عن عشيق يأتيها بما تشتهيه نفسها من نفائس الحلى لتتزين بها فتصبح إمرأة نبيلة ...

« جئت أنت فتضاعف فرحي ولفرط حبي لها لم أنتبه إلى ما يدور حولي فكانت الابتسامة التي تصدر منها تزيل كل ظنوني وقبلة من شفتيها كانت تنسيني لوعتي واشتياقي نحو بلادي التي تركتها رغم إرادتي إرضاء لها

« خمسة أعوام مضت وأنا سابح في بحار السحاب الكثيف وعلى بصري عصابة تحجب الحقيقة . . .

« باريس بلاد الاريستقراطيين الماليين وإيرادي لا يكفي معيشة الترف والفخفخة . . .

« بعد ثمانية عشر شهراً من ولادتك رزقت طفلة أخرى دعيت ريموند وكانت تشابهك جمالا ورقة وكنت أشعر بحنو غريب نحوها فصممت على تكريس حياتي لراحتكما وراحة العائلة إلى أن داهمتني المصيبة . . .

« رسالة هائلة أنبأتني بأن لزوجتي عشيقاً مثرياً . . .

« أشير علي أن أذهب إلى المنزل الرهيب الكائن في شارع باك ...

« فقصدته وانزويت في أحد أركان غرفه . وذلك قبل أن يحين الوقت لاجتماع الحبيبين . كنت أفكر في حالي ومآلي . . . وانتهاك عرضي ...

« حتى ان الشاهد الذي يراقب تمثيل دوري على مسرح الحياة لا بد أن ينفطر فؤاده أسى ويندب سوء حظي . . . وذلك العاشق الولهان لم يدر أن للجدران آذاناً صاغية بل أخذ يبوح بما يكنه فؤاده

« فأدركت أمراً خطيراً ولغزاً فككت رموزه بفضل العناية الثاقبة

« أدركت أن إبنتي الأولى هي إبنتي الحقيقية . . . والثانية إبنة عار إبنة فاجرة . . إبنة زناء . .

« لم تمض بضعة أيام على هذه الحادثة حتى بعت المزرعة . . . بفتاي كما كنت أعتقدها على بساطة نيتي ... ريموند تركتها بعناية أناس عاملين كي تضل أبحاث من يبحث عنها . . . أما أنت فأخذتك معي إلى أمريكا حيث قضينا

الأعوام الطوال بعيدين عن كل ما يكدر صفاء المعيشة ...

« هجرت هذه الامرأة لأني شعرت بضعف إرادتي أمامها وأني سأخضع لها إذا داومت على الكتمان وعدم الاهتمام

« قطعت كل العلائق التي تربطني بها . إلا أني تكدرت كثيراً لفقد ريموند التي شاءت الأقدار أن تخبئها . . .

« هناك في الأراضي المتوحشة أقمت ولم يهنأ لي نوم أو طعام فسئمت الحياة وندبتها وتحول غرامي إلى بغض شديد وأقسمت بالانتقام

« انتظرت حتى رحل الكونت ساعدها الأيمن فقدمت إلى فرنسا كي أرشف كأس الانتقام وأعلمتها بفقد ريموند وأنذرتها حتى إذا سمحت للتقرب منك شرحت لك تاريخ حياتي كي يتولد فيك حب الاحتقار لوالدتك ولكي لا يكون عندك شك في صدق كلامي

ثم أخرج رسم زوجته ومزقه وقال : لقد رافقني هذا الرسم في رحلتي... الآن لا أريد شيئاً من هذه المرأة

وأخرج رسالة الأقرار وقرأها بصوت عال :

«أشهد أن محو المركيز دي بورد هو عشيقي منذ أكثر من سنتين وإنه بدون شك والد الطفلة ريموند وكان زوجي غائباً مدة ولادة هذه الطفلة

تريز تونلييه زوجة ردون

تحريراً في باريس في ٢٣ يونيو سنة ١٨٧٦

— والآن لك الخيار أن تتركي والدك الذي انتشلك من هوة العار ولا ملامة لذلك . . . إن رغبت إمنعيه عن مشاهدتك واذهبي مع والدتك واقتسمي معها العار . . . أنت طليقة الرأي . تروي في الأمر ثم أحكمي بما يروق لك

والتفت جون نحو تريز وقال مازحاً : تدهشني جسارتك واقدامك على معانقة جان . . . (بحدة) شقية أنت . . .

فتمتمت جان بحزن : كفى يا والدي . كفى . . .

ثم انقلبت على ظهرها فاقدة الصواب فأرادت تريز أن تتقدم نحوها

لتضمها فقال جون بخشونة : أمنعك بتاتاً من التقرب منها . . . والآن مهما فعلت فهي تحتقرك وستحتقرك حتى آخر نسمة من حياتها

فتجلدت الكونتيس وانتصبت قائلة : أنت تقتلني بيدك . . . الوداع إلى الأبد . . .

جثت على ركبتيها وقبلت جبين جان وقالت : إعتن بها

ثم قامت وركبت جوادها وسارت إلى قمة التل المبني على سفحة قصر سوفاجير وحوله المزرعة وانتظرت طويلا مترقبة . فأبصرت عربة تقف أمام الباب ورجل يترجل منها حاملا بين ذراعيه شابة فوضعت يدها على صدرها وتنهدت ثم أطلقت لجوادها العنان

وقفت أمام منزل الدكتور رتول وكان واقفاً عنـد بابه فاستقبلها فقالت له : اذهب إلى قصر سوفاجير لمعالجة إبنتي جان وأرجو أن تفيدني بعدئذ عن حالتها

— ماذا حدث لها؟

— إنها تتألم . . .

— وأنت؟

— لا أشكو من بأس . . .

الفصل التاسع

بريق الأمل

عند التاسعة ونصف من صباح يوم السبت التالي ليوم الحادثة التي سبق ذكرها للقراء كان الدوك دي لوسي مصحوباً بحفيدته وهما سائران في الطريق الصغير المؤدي إلى المحطة على مسافة كيلومتر واحد . ويظهر من سيماء المركيزة أنها حزينة شاحبـة . فلما اقتربا من رصيف المحطة قالت المركيزة : أظن أنك ستنفذ ما أوصيتك به ولا تنساه ؟

— ثقي بي دائماً

— إذهب أولا إلى أصحاب شركة فريبورج الذين يخدعون الناس وأخبرهم أني مستاءة جداً من نتائج أبحاثهم وأن مابذلته قد ذهب سدى . . .

— ستكون زيارتي الأولى لهم . . .

— وبعد ؟

— أتناول الغذاء إذا سمحت ؟

— بدون شك وبعد ؟

— أذهب إلى كارولين لأجل قبعاتك . . .

— وبعد ؟

— أؤنبها على صنعها

— ليس الأمر بذي أهمية . . متى تعود ؟

— ربما عدت هذا المساء أو غداً في النهار

ركب الدوك القطار إلى باريس ولم تأت العاشرة ونصف حتى كان قد ركب عربة أقلته إلى شركة فريبورج

كانت قاعة الاستقبال خالية وبوسكاري جالساً على مكتبه ينقش رسماً نصفياً على قبضة عصا

دخل الدوك واقترب من بوسكاري وأخذ يتأمل ثم قال مازحاً : بكم تبيع العصا ؟

— ما فيش فرق .. بلويسين فقط

— متى تنتهي منها ؟

— هذا المساء

— أرسلها إذاً إلى فندقي غداً صباحاً ولا تتأخر عن العاشرة ونصف .. سأزيد على القيمة نصف لويس

— أشكرك كثيراً يا سيدي

بعد انتهاء الحديث فتح فريبورج باب غرفته وحيا الدوك ثم تنحى قليلا وقال : ليتفضل سعادة الدوك بالدخول

فألقى بوسكاري نظرة على رقعة الدوك وكانت غير ممنونة فقال في نفسه : لا بد أنه آت بشأن المسألة العظمى

وكانت عربة الدوك بانتظاره فذهب بوسكاري إلى الجوذي وقال له : أين يقيم الدوك ؟

— في الجهة الغربية لضاحية سان أونوري

— شكراً لك ياعزيزي

خرج الدوك من وكالة فريبورج فلقي بوسكاري فقال له : لا تنس العصا ؟

— سمعاً وطاعة

كان مجمل حديث الدوك مع فريبورج أن هذا الأخير كان يماطله بوعوده الباطلة

وركب الدوك العربة فسارت إلى منزل كارولين فترجل وذهب لمقابلة الكسندرين وسألها : أين سيدتك ؟

— في غرفتها

دخلت الكسندرين إلى مخدع كارولين وكانت تصرف سوزان وتقول لها : إنها هدية مني فاقبليها

انصرفت سوزان بينما كان الدوك يقترب من كارولين وهو يقول لها : من تلك الشابة التي صرفتها ؟

— هي التي خاطبتك عنها منذ بضع أيام . كيف تجدها ؟

— جميلة جداً . . . من أين أتتك ؟

— أرسلتها لي صديقتي مدام كردانيل

— لماذا؟

— لأن أحوالها كانت عسرة . وكانت هذه الشابة فوق ذلك تعيل والدتها المختلة الشعور

— أراك تعاملينها بكل عطف كأنها إبنتك

— كيف علمت ؟

— لأني أراك تهدينها شيئاً ...

— أهديتها دراجة لأنها مولعة بركوبها . . . كنت أخشى عاقبة استعمال هذه الآلة الجهنمية

— هل يهمك بقاؤها عندك ؟

— كثيراً . لأنها تذكرني بيوم قدومي إلى باريس . . .

— ماذا تدعى ؟

— سوزان

— جئت بشأن القبعات . . .

— هل لم تعجب حفيدتك ؟

— كلا

— سأرسل لها غيرها

— لقد انتهت إذاً مهمتي

— متى تعود ؟

— في هذا المساء إذا تمكنت . . . إلا إذا تكرمت بقبول تناول الطعام معي

— اني طوعاً لك في كل ماتأمرني به

— هذا المساء إذاً

— أين ؟

— في المكان المعتاد

— متى ؟

— عند الثامنة

قام الدوك وقال مودعاً : إلى الملتقى ياعزيزتي

لم يمض الزمن المضروب حتى كان الدوك مع كارولين لدى مائدة الطعام يتجاذبان أطراف الأحاديث السارة

كان الدوك يشرح لكارولين سبب الانقلاب الذي طرأ على عائلة المركيز وذهابه إلى شركة فريبورج وكيف أنه لم يحصل إلى الآن على نتيجة مرضية

— تقول بأن الأرملة بريطانية الأصل ؟

— نعم

— ماذا قيل عن الأرملة ؟

— قيل أنها عادت إلى بلادها . . .

— في أي مقاطعة ؟

— المورهيان

— ماذا كانت تدعى هذه الأرملة ؟

— زوجة بليز رفين القتيل

— تقول بأن الأبنة تدعي سوزان ؟

— نعم

فشعرت كارولين بقشعريرة وقالت : وما يكون لقبها ؟

— تلقب بلقب والدها ردون

— غداً يزورني رجل قادم حديثاً من بريطانيا فاسأله عن هذه المرأة

— ماذا يدعى ؟

— كردانيل

— الملازم بير ؟

نعم وهو ابن صديقتي المسكينة وقد وصلتني رسالة منه تفيد بأنه سيعود في خلال هذين اليومين

نهض الدوك وقال : غداً أسافر

— متى ؟

— بعد الظهر هل يمكنني أن أراك قبل سفري

- بدون شك . إنه يوم أحد لم لا نتناول الغداء معاً ؟

— إذا شئت

— أنا التي أدعوك

— أين ؟

— في منزلي

— إلى الغد إذاً عند الظهر . . .

ركبت كارولين عربتها وهي تقول في نفسها : هل تكون سوزان الضالة التي يبحثون عنها . . . إلهي ! هل يكون ذلك حقيقياً

الفصل العاشر

جلاء الحقيقة

أضحى بوسكاري مذ تحادث مع الدوك يتقلب على فراش من القتاد وهو يتمعن في الرقعة فلا يصدق ما أبصرته عيناه فأخذ يؤمل في مستقبله ويشيد القصور لكنه مع ذلك كان يخشى معاكسة الأقدار له

أنهى صنع القبضة ولم يعتن بها كثيراً لان أفكاره كانت شاردة فلم تعجبه ورمى بها لحطمها

في السابعة من صباح يوم الاحد ارتدى بوسكاري ملابسه ونزل يتمشى حتى حان الوقت فسار إلى ميدان مادلين وكانت الساعة تشير إلى عشرين دقيقة بعد الثامنة

عند العاشرة ونصف وقف بوسكاري أمام باب القصر الحديدي وأخذ يتأمله ويتعجب فأتاه خادم وسأله : ماذا ترغب ؟

— مقابلة سيدي الدوك دي بوسي لأمر ذي شأن

كان الدوك جالساً في إحدى القاعات المفروشة بأفخر الرياش والأثاث المتين فلما رأى بوسكاري قال له : لقد أتيت في الميعاد تماماً ؟

— لذلك أسباب أخرى تحملني على القدوم إلى قصر سيدي الدوك

فسأله الدوك منذهلا : أسباب ؟ لا أدري إلا سبباً واحداً منها

— العصا ؟

— بدون شك . وأين هي ؟

— وآسفاه لم أجدها تليق بمقامك السامي فرميت بها . . . وسوف أصنع عصا أخرى لأقدمها لك . . . وانما أتيت لسبب خطير جداً . . .

— تفضل بالجلوس أولا . ولنتحدث

— لم يكن قدومي لأزعاج الدوك . . . .

— لا بأس لنا مدة ساعة نقضيها كما نشاء

— لا أدري هل يمكنك أن تثق بي تماماً لأني أود أن أطلعك على ما يفيدك . . .

— وماذا يفيدني ؟

— أمور في غاية من الأهمية .... ألم تذهب إلى وكالة فريبورج للبحث عن فتاة ضالة . . .

— وكيف علمت ؟

— لقد تنبأت . . . أليست تدعى سوزان ؟

— نعم

— وأهلوها من الاغنياء المليونيين ؟

— كيف علمت ؟

— لان هذه الوكالة كانت تأخذ الأموال لتخزينها في خزائنهافقط

— هل أطلعوك على شيء من هذه المهمة . . ؟

— كلا . لكني تمكنت بالصبر والروية من القبض على رأس الافعى

— أخبرني بجلية الامر

— ليسمح لي سيدي الدوك بسؤال ألقيه عليه

— سل ما تشاء

— ألم تكلف شركة فريبورج للبحث عن فتاة وضعت بعناية حطاب يدعى بليز رفين ؟

— بلى

— وقد هجرت أرملته البلاد ولا أحد يعلم أين ذهبت . . . في امكاني إطلاعك على مقر هذه الارملة الآن . . .

— والفتاة ؟

— بموجب معلوماتي يمكنك أن تجدها في خلال ثمانية وأربعين ساعة

— تصريحك هذا يكفل لك ثروة تقتنيها وحدك

فتنهد بوسكاري عن ارتياح وقال : لقد أخطأت نحو الشركة التي كلفتني بهذه المهمة لأني أخفيت عنها أموراً عديدة . . . ولم يكن ذلك إلا فرضاً مقدساً عليّ . . . .

— وكيف ذلك ؟

— لقد أقمت طويلا في خدمة هذه الشركة ودرست أخلاق الشريكين ومناقبهما فوجدت أنهما يسعيان وراء المال فقط يعدان ويطللان ... ويفتنان إذا ما وجدت الفتاة في حوزتهما إحتفظا بها إلى بعد الاستيلاء على ثروتها أو مايقرب من ذلك

— فهمت الآن . . . تدعي أن الفتاة ذهبت إلى المورهبان . . .

— نعم . مع مربيتها

— هل أبصرت الفتاة ؟

— نعم وكانت طفلة جميلة في الثالثة من العمر

— كيف كانت معيشتها في لندفن ؟

— كمعيشة أهل القرى الحفاة الاقدام وهم صيادون وهي حرفة السواد الاعظم منهم . . . لكنهم امناء مخلصون لايخدعون . . . وقد عاشت بينهم مملوءة بصحة وعافية . . .

— ماذا كنت ترجو من أمرها ؟

— كنت آمل أن يحين الوقت فأسلمها لاهلها . . . أما شركة فربورج فانها تأمل بيعها لمن يدفع غالياً أو تحتفظ بها وبذا تعود ثروتها إليهم . هذه هي خطة هؤلاء الاشقياء المنافقين . . .

— ماذا تعلم الآن عنها ؟

— وآسفاه . لقد قصدت القرية منذ مدة قريبة فوجدت الارملة ولم أجد الفتاة

— أين ذهبت ؟

— لا أعلم

— ماذا يقول القرويون ؟

— لاشيء سوى شيخ طاعن يدعى الأب كرجوز رفض إفادتي ببعض معلوماته بشأن سفر الفتاة

— وماذا كان جوابه لك حين خاطبته عن المعلومات ؟

— أجاب ببرود : إذا رغب والداها أن يعلما الحقيقة فليأتيا الحي في لندفن

— أين تكون لندفن ؟

— على بعد سبعة فراسخ من سنتان دوري

— لقد أديت الآن خدمة عظيمة تستحق عليها المكافأة يجب أن تساعدنا إذاً حتى النهاية ؟

— لاتفيد مساعدتي ياسيدي الدوك . . . .

— أين ترجح وجودها الآن ؟

— في باريس . . . لكنها لاتصلح للشابات الفقيرات مثلها . . .

— هل يمكنك أن تكون رهن الاشارة ؟

— من غير بد

— كيف أطلبك إذا احتجت إلى مساعدتك ؟

— عنواني في شارع بروفنس نمرة ٦٧ (بيس)

فأخرج الدوك صرة من الاوراق المالية بقيمة ألف فرنك وقال له: خذ هذه الاوراق فانها تمينك (مؤقتاً) على سد بعض النفقات

قام بوسكاري وشكر الدوك كثيراً ثم حياه تحية عسكرية وانصرف

جلس الدوك إلى المنضدة وكتب الرسالة التاليةإلى حفيدته

حفيدتي العزيزة

لدى وصول رسالتي إليك أسرعي بالسفر لمقابلتي في منزلي فاذا لم تجديني إذهبي إلى منزل كارولين فانها ستطلعني على أمر يهمنا كلينا

لاتدعي زوجك يعلم شيئاً عن أمر سفرك السريع وأظن أنه في إمكانك تناول طعام العشاء معي في قصري جدك

لوسي

أطبق الدوك الرسالة وأعطاها لخادمه وقال له : هل أكلت ؟

— كلا ياسيدي

— إذاً خذ هذه الرسالة لحفيدتي . . . خذ مايلزمك من الطعام واركب القطار إلى لوسي . واحذر أن يراك أحد ... خمسة وعشرين دقيقة إلى المحطة

انصرف الخادم فارتدى الدوك ملابسه ثم ركب جواده وسار به الى منزل كارولين . وكانت الساعة عشرين دقيقة بعد الظهر . فوجدها مرتدية بأحسن ملابسها المزخرفة خياها وقال : ستعذريني لتأخيري متى علمت السبب

— إني لا ألومك على تأخيرك بل أعد نفسي سعيدة بمرآك اليوم . . ؟

أعدت كارولين المائدة لجلس الدوك وجلست هي معه لتناول الطعام فقال الدوك : لقد أعلمتك عن سبب الانقلاب . . .

— بدون شك

— إعلمي أيضاً : أولا : قابلت عاملا في شركة فريبورج فأطلعني على حقائق شتى كنت متشوقاً لمعرفتها . ثانياً : وكانت الشركة المذكورة قد كلفت هذا الرجل في الأعوام المنصرمة بالبحث عن ضالتنا فعرف مكان الأرملة والطفلة . ثالثاً : وأن سوزان عاشت في كوخ حقير على شاطىء البحر كأمثال القرويات المعدمات تسير حافية القدمين . رابعاً : أن أرملة بليز رفين المقتول قد اختل شعورها وأصبحت منذ ذلك الوقت لاتدري شيئاً عن الماضي

— ما اسم هذه القرية ؟

— أظن لندفن

— لقد سمعت ترديد هذا الاسم مراراً على مسامعي

— من حدثك عنها ؟

— القبطان كردانيل

— وهل يقيم فيها ؟

— نعم

— لو كان هنا الآن لاطلعنا على بعض معلوماته بشأن قضيتنا

— إنه عائد إلى باريس
— متى؟
— لا أعلم . فاني بانتظاره
— يظهر أن الجو يصفو لنا والأقدار تساعدنا لنلمس الحقيقة بأيدينا وترشدنا إلى مقر الفتاة التي ستسبب سعادة العائلة . ما أحلى لي مفارقة الحياة بعد انقشاع هذه الغمامة . . .
— هل عزمت على تنفيذ مشروع التحقيق ؟
— أجل السفر الى المورهبان وهو قراري الأخير
— لقد عزمت أنا على تأجيل سفرك
— لماذا ؟
— بهذا الفعل إما أن أكون مخدوعة تماماً أو مصيبة كبد الحقيقة . وما أشد سروري إذ ذاك ...
— أنا لا أفقه حرفاً مما تقولين . . .
— ألسنا نبحث في موضوع شابة جميلة ؟
— بلى
— ومتحلية بكل ماينبغي للفتيات أن يتحفن من آداب وتربية وتعليم ؟
— هذا مما لا أشك في صحته
— هذه الفتاة التي تبحث عنها ستأتي لديك وتقبل يديك . . .
— لعلك تسخفين بي . . .
— بل أ كلمك بالحقيقة
— وأي حقيقة تعنين في هذا الموقف الجدي الخطير
— أن الفتاة التي تبحث عنها قد رأيتها بنفسك مراراً
— أين ؟
— هنا
— ألعل ضالتنا تلميذتك سوزان ؟
— هي بعينها . اعلم أني هـذا الظن خطر على بالي من قبل فلم أجرأ على

التصريح به لك . وخشيت أن يكون ظني كاذبا فأسبب لك فرحاً وقتياً

أردت زيادة التثبت فأرسلت في طلب سوزان فقيل لي أنها ذهبت للتنزه مع صديقات لها . . .

وفيما هما يفكران في الأمر أقبلت الخادمة تقول : الملازم بيير يطلب مقابلة سيدتي

فنهضت كارولين وذهبت لاستقبال الملازم الذي دخل فقدمته كارولين للدوك وقالت : أظنكما تعارفتما من زيارة قبل هذه

ثم وجهت الخطاب للملازم وقالت: إني أراك خلاف عادتك. هل تشكو من علة ؟

كان وجـه الملازم مظلماً على غـير ماتعهده كارولين من البشاشة وطلاقة المحيا فقالت له : مالي أراك متغيراً ؟ . . .

— لا شيء سوى أن طبيبي أكد لي أن في إمكاني العودة إلى الخدمـة العسكرية فلا يمر علي بضع أيام حتى أبرأ تماماً

— ما الذي يكدرك اذاً ؟

— لقد أظهرت حباً عميقاً لسوزان . .

— وهل هذا يكدرك ؟

— كلا . بل كنت أظنها فقيرة مثلي وإذا بها إبنة ذي الملايين . . .

— من أخبرك بذلك ؟

— الاب كرجوز من لندن . . . لقد أطلعني على كل ما كان يخفيـه بين طيات فؤاده عن أصل هذه الشابة وقدومها مع إمرأة الحطاب إلى بلادنا . . . منذ أكثر من عشرين عاماً . . .

— ومن أطلع الاب كرجوز على حقيقة حال سوزان ؟

— عامل في شركة الاستعلامات كان يتردد إليه خلال هذه المدة

— ماذا يدعى ؟

— بوسكاري

— فماذا يحزنك إذاً ؟

— كوني ملازم عائداً من الجندية لا أمتلك سوى منزل حقير وقطعة أرض محدودة هيهات تكفي لسد رمقي فيما بعد . . .

— أنت تهواها إذاً ؟

— منذ أمد بعيد . . .

— وهل بثثت لها غرامك ؟

— منذ أيام معدودة

— هل عرضت عليها أمر الاقتران ؟

— وآسفاه . لقد طلبت منها هذه التضحية العظيمة . . .

— ماذا أجابت على اقتراحك ؟

فأخرج الملازم رسالة سوزان وقدمها لكارولين فتلتها ثم ناولتها للدوك وقالت : أتل هذه الرسالة منعم النظر . . .

فأخذها الدوك وتلاها ثم قال : إعلم أيها الصديق أن بنات الأشراف الآن يسعين وراء اللقب فلا أخالك تجهل أنه يرفع مكانة المرأة التي تلقب به ... كان الواجب أن تتروى في عاقبة مافعلته . . . سوزان شابة مهملة في الحداثة لولا الاعتناء الذي بذلته نحوها ... والآن أرجوك أن تجيبني على ما أطرحه عليك من الأسئلة ؟

— إني رهن الاشارة

— أتعرف هذا الشيخ ؟ (يريد به كرجوز)

— منذ طفولتي عرفته

— ماذا يحترف ؟

— يبيع الدخان وله منزل يكري غرفه بأجور زهيدة

— هل مربيـة سوزان هي حقيقة أرملة بليز رفين الحطاب المقتول في غابات شفان ؟

— لا ريب في هذا

— هل غادرت سوزان منزلها مرة ؟ . . .

— كلا . إلا حين قدومها إلى باريس في المدة الأخيرة وأذكر أيضاً أنها

سافرت مرة برفقة والدتي إلى سنتان دوري

— ظهر لي من خلال أسطر الرسالة إنها تثقفت وتعلمت ؟...

— أجل . إن والدتي عنيت بأمر تربيتها ما استطاعت وعطفت عليها عطف الأم الحنون وثقفتها ببعض العلوم والآداب الاجتماعية والتدبير المنزلي ولقنتها فيما يجب على الشابة نحوالله ونحو القريب وهو الصلاة والبر والاحسان

ثم استولت السكينة على الجميع كأن على رؤوسهم الطير مدة قصيرة وكل يفكر في حل هذه المشكلة إلى أن أقبلت الخادمة تنبئ بقدوم المركيزة دي بورد

دخلت المركيزة فقام الدوك بنفسه لاستقبالها وقال: لقد أبكرت في الحضور

فقالت :وصلتني رسالتك وكان زوجي قد غادر المنزل على جواده قاصداً أولني لتناول الغذاء فيها . فركبت القطار السريع إلى باريس ومنها ركبت عربة أقلتني إلى هنا ... ماذا حدث ؟

— أمور كثيرة ...

— تسر ؟

— بدون شك

— أخبرني عما تعلمه بشأن ...

— إن الأقدار بمساعدة هذه السيدة النبيلة (كارولين) وهذا الملازم الصنديد (بيير) قد ألهمتنا إلى ما يسميه المؤمنون العناية الالهية فأطلعتنا على ما بسببه يمكنك أن تسعدي زوجك

وببضع كلمات شرح الدوك لحفيدته تفصيل الخبر . فقالت مستفهمة : وأين هي الآن ؟

—لا أعلم

سوزان ليست هنا

سوزان ليست في منزلها

سوزان لم تعد

مضت الساعات. وكانت الكسندرين غائبة أيضاً . .

ودت المركيزة لو كانت سوزان حاضرة فتأخذها بنفسها وتقدمها لزوجها قائلة : لقد كنت حزيناً لفقدها وها أنا قد أحضرتها إليك ليعود إليك السرور والهناء ...

وكان جيرك غائباً ...

الفصل الحادي عشر

خطة شقي

أشرقت الشمس ترسل أشعتها الذهبية وجعلت تسعى سعياً بطيئاً . وكان مارسيال قد ارتدى ملابسه وهو يتأهب لتنفيذ مهمته الشيطانية التي استعان لأجلها بالكسندرين وهذه تسعى لفائدتها الخصوصية وهي استرجاع ما فقدته بواسطة خليلها المحتال . فكان يقودها كما يشاء وكانت له أطوع من بنانه

لم تستول الغيرة على نفسها حين خاطبها بشأن زواجه لأن الرابطة التي بينهما لم تكن إلا كشعلة نار انطفأ لهيبها فجأة . فلم تعلم كيف تكون خطته وكيف يكون سعيه سوى أن التي سيقترن بها من صاحبات الملايين

استعان أيضاً بفاني خليلته الثانية وكان يقول لها : أريد أن أرى ... ستفعلين كذا وكذا ...

فكانت تجيبه دائماً : سأفعل ما يصفو لك

كانت الكسندرين وسوزان في صبيحة هذا اليوم تتنزهان وهما تتجاذبان أطراف الأحاديث فوصلتا إلى حديقة « كافيه رويال » وجلستا إلى خوان وتناولتا القهوة معاً

كان الطقس جميلاً فسارتا حتى مدخل الغابة حيث قابلتا مارسيال فحياهما بكل أدب ...

سار الثلاثة ومارسيال يتكلم بلسانه السيال ويطنب عن نفسه وعن

مستقبله . وكانت سوزان تصغي إلى أقواله وكأن هيكل جسمها حاضر وروحها هاءة تناجي نفسها بهذه العبارة : غداً يأتي بيير ... بيير الذي تراه نفسي ولا ترى أحداً سواه . . تنصت إلى كلامه ولا تصغى إلى قول آخر... ماذاتكون يا ترى كلمته الأخيرة ؟

قارب الظهر فتناولوا الطعام في مطعم بقرب جسر أستير ومارسيال يقوم بأداء كل ما يلزم ...

بعد تناول الطعام قرر مارسيال بالاتفاق أن يذهبوا إلى أنجيين لتمضية بقية النهار

سار الثلاثة على دراجاتهم يجدون في السير . وفي خلال الطريق اتفق مرور عربة تقـل امرأة جميلة (هي فاني)لحياها مارسيال فمدت يدها وصافحته وقالت : إلىأين أنت ذاهب ؟

— إلى حيث تسوقنا الأقدار

— هل تقصد الذهاب إلى انجيين ؟

— هذا عزمنا اليوم

— إن زيارتك ستسبب لي فرحاً عظيما

سارت العربة فأتم الثلاثة سيرهم. فقالت الـكسندرين لمارسيال : من هذه المرأة ؟

— هي إحدى زبائناتكم

— لا أعرفها

فقاطعت سوزان الحديث قائلة : أتذكر جيداً أني رأيتها قبـل الآن ... لقد أتت لقياس القبعات ...

فقال مارسيال : لقد أبصرها سائح أمريكي فشغف بها وبجمالها وعرض عليها مرافقته وغمرها بالدولارات فلم يسعها إلا إجابة طلبه ...

كان مارسيال يغتنم الفرص فيبتسم لسوزان لـكنها لم تكترث له ...

ماذا تنم هذه الابتسامات ؟ تنم عن شعور كاذب وعواطف خداعة ... ابتسامات شيطانية وشعور صادرة من أعماق فؤاد أخمده الهوى فلم يبق منه ألا رماد بارد

بلغوا مطعماً في انجيين فجلسوا في الحديقة إلى خوان قريب من الشارع وكان رجل طاعن في السن واقفاً بالقرب منهم فأخذ رسالة من جيبه وقدمها لمارسيال وقال : أظن سيدتي ترغب في مقابلتك

فأخذ مارسيال الرسالة وتلا ما يأتي :

عزيزي

إن حظوتي بقدومك مع صديقتيك لتناول العشاء في منزلي سيكون كأسر ليالي حياتي

فليكن ميعاد الزيارة الساعة السابعة وإن شئت فلا بأس إذا كانت قبل هذا الميعاد بربع ساعة ...

المتشوّقة لرؤيتك

فاني

كان الرجل العجوز واقفاً ينتظر الرد فالتفت مارسيال نحو الكسندرين وسألها وهو يقدم لها الرسالة : ما رأيك في هذه الدعوة ؟

— لا أرى بأساً في الذهاب

لم يستشيرا سوزان في هذا الأمر لأنها كانت تائهة في بحار المناجاة الواسعة ...

تناجي بحرلندفن الزمردي اللون وصخوره السوداء المتجمعة على شاطئه

تناجي القرويين الذين يزرعون ويستثمرون خير ما أنبتت بلادهم موطنها العزيز

عندئذ قال مارسيال للشيخ : سنجيب طلبها بعد برهة

ولم تمض بضع دقائق حتى كان الثلاثة على دراجاتهم يجدون في السير قبل ادلهام الظلام

كان الباب الخارجي للمنزل مفتوحاً على مصراعيه . فدخل الثلاثة إلا سوزان التي عثرت بحجر فوقعت على الأرض وانزعجت قليلا

فأسرعت فاني لانهاضها وقالت لها بلطف : الحمد لله على سلامتك ...

— لا بأس . ليست هذه الصدمة الأولى بل كثيراً ما اصطدمت وأصبت برضوض خطرة ...

أعجبت فاني بجمال سوزان فأخذتها على انفراد وقالت لها : أنت جميلة جداً وجمالك يوقعك في هوة الفساد إن لم تتبصري جيداً . لأن باريس لا تصلح للفتيات التقيات أمثالك ... إني أعرف باريس جيداً وشبانها على الاجمال شياطين ... لا تخضعي للأصدقاء الذين يتملقون ويظهرون الحشمة والاداب فهم ليسوا إلا عقارب يمهدون السبل لأغراضهم ثم ينفذون سمومهم حين تسنح لهم الفرص ...

أصغت سوزان بكل انتباه إلى نصيحة فاني

لم يطل موعد العشاء . وفي التاسعة ونصف ذهبت فاني إلى غرفتها فارتدت ملابسها وجاءت إلى زوارها وقالت لهم : إني ذاهبة إلى الأوبرا . خذوا حريتكم كأنكم في منازلكم

فأبرقت أسرة مارسيال وكاد يرقص من شدة الطرب

فرافقتها سوزان إلى عربتها وعادت وهي تجد الخطى . وكانت تحسب لكلامها ألف حساب

في العاشرة صعدت سوزان إلى غرفة الراقصة لتأخذ قبعتها وقفازيها تأهباً للرحيل ...

ثم نزلت وركبتاها ترتجفان من غير أن تدرك لذلك سبباً وكانت الكسندرين تتبعها ...

وعند عتبة المنزل أوقفها مارسيال قائلاً : برهة إذا سمحت لي بها ياعزيزتي

— والكسندرين ؟

— تكون معك أيضاً

— لكن ...

— هل كلامي يرعبك ؟

— كلا البتة ...

— أريد التحدث معك برهة بأمر يخصك أكثر مما يخصني ...

فتذكرت سوزان قول الراقصة فأخفت اضطرابها وقوت عزمتها وقالت له : إلهي . ماذا يكون لديك أعظم من مسألة العودة ؟

— ألم تفهمي بعد ؟
— بربك كلا
— سأخبرك حالا . إنما اصغي إليّ بكل انتباه
— هل يطول حديثك ؟
— كلا . عشرة دقائق أو ربع ساعة على الاكثر
— إن انتظارنا يضجر الكسندرين
— لقد اتفقت معها فهي تدرك مقدار حبي لك ...
— ماذا تدرك ؟
— الحب الذي أوقع في فؤادي ...
— إن الأمر يتعلق إذاً بالحب ؟
— وهل يكون خلاف ذلك ... ألم تفصح عيناي بما يزيد عن الوصف ويغني عن الكلام ؟ لا تعتقدي إني أظهر عواطفي كما يظهرها الآخرون كشرارة نار تشتعل ولكنها لا تلبث أن تنطفئ بعد قليل... فهي شهوات حيوانية تهيج لها الأعصاب فجأة ثم تخمد . . . أو هي أشبه بالزهرة التي تقطف فلا تلبث أن تذبل ويزول بهاؤها ورائحتها ... إني أجسم لك آلهة الحب الحقيقي وأقدمه لك لأكون الساعي في سبيل سعادتك المرضية ... إنك لا تقدرين مبلغ التأثير الذي لحق بي عند رؤيتك لأول وهلة في نافذة غرفتك ...

رأيتك فشعرت بالحب الحقيقي ينفذ بين مسام فؤادي العذري . . .

أنت هي ضالتي التي أنشدها منذ صباي . . .

أنت التي تحوزين أساس السعادة ومفتاح أبواب المستقبل فهل تتكرمين وتنعمين علي بكلمة رضى ؟ ؟

فوجفت سوزان خيفة لكنها تجلدت وقالت كأنها لم تسمع شيئاً : لقد تأخرنا فالأوفق أن نعود ... ماذا تريد ؟

— تكوين سعادتك
— وكيف يكون ذلك ؟

— باقتراني بك

فسخرت وقالت : أنت في ضلال . .

— لماذا ؟

— لأن الحب الحقيقي لا يتولد بهذه السرعة ...

— صدقت . لكن ألا تعلمين أن نظرة واحدة تكفي للوقوع في شرك الهوى ؟

— صدقني . أنا لا أعرف هذا الضرب من الغرام ولا أخاله حقيقياً ... أنت تعرض عليّ أمر الاقتران ؟

— بدون شك

— حاشا أن أقبل منك هذه النعمة لأني شابة فقيرة وربما كنت لقيطة ولا أمل لي في المستقبل

— إن جمالك يغني عن كل أموال العالم

— ما الفائدة الآن من المجادلة في مسأله سبق فيها السيف العذل ؟

— لقد وعدت شخصاً قبلي ؟

— نعم

— ألا يمكنك إلغاء هذا الاتفاق ؟

— كلا البتة . إنما تذكر أن الشابة المخلصة هي التي تعد وتفي ...

— ماذا يدعى هذا الموعود ؟

— وماذا تفيدك معرفتك به ؟

همت سوزان أن تخرج فأوقفها مارسيال ثانية وقال بصوت أجش : لم يحن الوقت بعد . . .

فصعدت سوزان إلى الغرفة التي كانت فيها آنفاً فتبعها مارسيال وهو يفرك يديه كأنه فاز بغنيمته وحقق آماله

كان للغرفة نافذتان وبينهما شرفة واسعة . فقالت سوزان : يجب أن ننهي الحديث . ماذا ترغب أيضاً ؟...

— أتضرع إليك للمرة الأخيرة أن ترفقي بحالي

. .

— لا تسعى عبثاً في اقناعي فان إرادتي قوية
— ألا تعلمين أن وجود منافس لي يزيدني تعلقاً بك ؟
— لقد تغيرت طباعك وانقلبت صداقتك وهذا غير ما أعهده فيك
— السبب أني لا أصدق كلمة مما تقولين الآن
— كيف ذلك ؟
— لا أدري أن ابنة شريفة مثلك لم يمض على إقامتها أربعة أشهر تعاهد زيداً من الناس على الاقتران به. فأما أنت لا تريديني ورفضك هذا إهانة لي أو...
— لا تزدني من هذا الكلام المؤلم لأني بريئة مما يجول في خاطرك
— ألا تعلمين أن شابات باريس تحسدك متى صرت لي زوجة ؟
— أنت تعرض عليّ أمراً مستحيلاً
— لا سبيل إلى التملص من أحكامي
— لقد صممت على عزمك ؟
— وهو الاقتران بك هذا المساء عينه
— صه . أو أدعو ...
— تدعين من ؟
— الكسندرين ؟
— الكسندرين غادرت المنزل منذ مدة قصيرة ... والبستاني في منزله... والخدمة على مرحلة منا ...
— فهمت الآن . لقد نصبت لي شركا ؟..
— ما أرغبه منك سيكون إما باللين أو بالقوة ...

ثم قهقه وهو يوصد باب الغرفة أما سوزان فانها ارتدت إلى الوراء قليلا وهي تلازم الهدوء فقالت مستسلمة : لماذا تعلق أهمية عظمى على فتاة حقيرة مثلي ؟

— لقد أوضحت لك السبب
— أنت تهواني حقيقة ؟
— ويقرب حبي لك من المبادة

— لا بد أنك تخفي عني أمراً هو أخطر مما أعتقده

كانت الغرفة في الطبقة الأولى . فقفزت سوزان فجأة من إحدى النافذتين إلى الشرفة بينما كان مارسيال يوصد النافذة الأخرى

فهز مارسيال رأسه ساخراً وقال : أخشى أن سقوطك يشوه أحد أضلاعك الناعمة التي يفديها العاشق بحياته

فلم تعبأ سوزان بأنذاراته وقفزت إلى السلم الخارجية فزأر مارسيال زئير الأسود وقفز وراءها فلم تمهله سوزان حتى يقبض عليها بل صعدت بخفة ورشاقة على سور الحديقة وصاحت بملء فيها ثم ألقت بنفسها في البحيرة وتوارت تحت المياه

سمع صوت هو صدى صيحة سوزان

***

كان جيرك الرفيق الأمين حاضراً وبرفقته الكسندرين ...

لم يهدأ بال جيرك منذ الحادثة الأخيرة التي دارت بين الشقيين في حدائق الفازيليزيه

في نفس هذا المساء عاد إلى المنزل الذي تسكن فيه سوزان فقيل له غادرت المنزل ولم تعد . فخامره الخوف وسار لا يعي ...

فاتفق أن رأى الكسندرين على دراجتها عائدة وحدها فأوقفها وقال بخشونة : أين سوزان ؟

فوجفت الكسندرين لهذا السؤال وحاولت الانكار فأكرهها جيرك فاضطرت أن تعود إلى الفيلا صاغرة

***

وكان مارسيال قد تسلق سور الحديقة فقبض جيرك على عنقه بعنف فكاد هذا يختنق فقال له : يا لك من شقي سافل ...

فرفع مارسيال مدية ليطعن خصمه بها قائلا : إرفع يدك أو ...

فلم يمهله جيرك بل تنحى عنه قليلا ثم رفع عصاه وهوى بها على اليد التي فيها المدية فكسرها . فنظر الشقي إلى الكسندرين شزراً وقال متوعداً :

تخونيني يا فاجرة سوف تذوقين من يدي كأس انتقامي وأي انتقام يكون...

فارتمدت فرائص الكسندرين . أما مارسيال فانه هوى فاقداً الصواب من شدة التأثير

***

عند ما عاد لمارسيال وعيه أبصر نفسه موثقاً وحوله نفر من رجال ونساء لا يعرفهم ولمح سوزان وإلى جانبها المركيزة دي بورد تقول لها : لقد انتهت آلامك يا عزيزتي . غداً تشاهدين والدك وأنا آخذك إليه

أتت في تلك اللحظة كارولين فوجدت الجمع يتحدثون والكسندرين واقفة وحدها تضطرب . فاقتربت منها وقالت : ماذا حدث ؟

— غداً تعلمين كل شيء ...

بعد خمس دقائق أتى بوسكاري فاقترب من مارسيال وقال له : ألم أخبرك بأنك ستفسد الطريق الذي نسير عليه ؟

ذهبت سوزان لمصافحة الملازم الذي كان يلمحها تارة وإلى الرجل الموثق تارة أخرى

بعد بضع دقائق نقلت عربتان أبطال هذه الحادثة إلى منزل شارع السلام

ولدى وصول النبأ البرقي إلى المركيز أسرع إلى باريس فوجد الجميع في انتظاره فحياهم وأخذ سوزان بين ذراعيه وعانقها ثم ذرف دمعة حارة وأخرج نبأ برقياً أعطاه لزوجته قائلا : لقد وصلني منذ ساعة

فتلت المركيزة ما يأتي :

« الكونتيس دي بوسي على فراش الموت وهي تطلب حضورك لمشاهدتك في آخر لحظة من حياتها وهي تطلب من زوجتك ألا تبخل عليها بهذه النعمة »

الدكتور ربول

وصلت رسالة الطبيب متأخرة

الفصل الثانى عشر

الانتحار

عقدت لجنة في وكالة فريبورج تماقد الشريكان على أن يذهب هوشار إلى قصر الكونتيس دي بوسي . جمع هوشار الأوراق المختصة بقضية سوزان ووضعها داخل دوسيه ثم ركب عربة أقلته إلى محطة ليون . وهناك ركب القطار الذاهب إلى نبفر في الدرجة الأولى واختار مكاناً هادئاً كي يمضي بقية الليل بكل هدوء وسكينة

وفي الصباح وقف القطار في شاتوشينون فنزل فريبورج وقصد الفندق الذي نزل فيه جون حينما كان عائداً من أمريكا

فأعد له طعاماً فاخراً لائقاً بمقامه فأكل حتى شبع ثم خرج وركب العربة التي كانت بانتظاره فسارت به إلى قصر الكونتيس . فدخل إلى فسحة الدار فقابل رئيس الخدمة وسأله عن الكونتيس دي بوسي فأجاب : هي في غرفتها . من يرغب في مقابلتها ؟

— المسيو هوشار من باريس

— حسناً

فغاب الخادم برهة ثم عاد يقول : هل لسيدي أن يتبعني ؟

كانت تريز في غرفة قريبة من مدخل القصر فلم يكد يدخل هوشار حتى أبصر رجلا يتأهب للانصراف وهو يقول : إلى الملتقى

— إلى الملتقى أيها الصديق

هنا ابتسمت الكونتيس ابتسامة اليأس

وجلست وجلس هوشار إلى جانبها وقال بادئاً الحديث : آه لو تعلمين ياسيدتي الكونتيس عظيم أسفي لخيبة مسعاي ... لقد علقت أهمية كبرى بهذه المسألة التي أخذت دوراً كبيراً ولكن ...

كانت الكونتيس مسندة يدها إلى المائدة وقد أثر هذا الكلام في نفسها وزاد في يأسها

قال هوشار : منذ مدة غير بعيدة عولنا على وضع حد لهذه المسألة التي لا نرى فائدة من طول مدتها ... أنت والدة وعواطفنا لا تسمح لنا بقطع الأمل . إلا أن هذا الأمر أضر بنا لما سمعناه من رسائلك من التأنيب على إهمالنا وفتور همتنا مع أننا بذلنا جهدنا وهذا لا يؤذي سمعتنا ولا يقلل ثقة زبائننا بنا

— والنتيجة ؟

— النتيجة مؤثرة فتريني متردد للافصاح عنها

— هل توفت ريموند

— ...

— زدني إفصاحاً ... لقد قضي الأمر أليس كذلك ؟

— هذا هو اعتقادنا الراجح

— أين قبرها إذاً ؟

— في أعماق اليم أو في أجواف الأسماك

— كيف تعتقد أنها ماتت ؟

— سأقرأ عليك تفصيل ما جاء في مذكراتي التي كتبتها حينما ذهبت بنفسي إلى فرنسا وتقبت آثار الفتاة المفقودة وهي :

« في العهد الذي غادرت أرملة رفين باريس يرى الناظر في ضواحي اسيس إمرأة بلباس الحداد وبرفقتها طفلة وهي تنتقل بها من قرية إلى قرية دون أن تستقر في إحداها . وكانت تبحث عن فندق تقطن فيه ولم تمض بضعة أشهر حتى اختل شعورها لكنها كانت لا تؤذي أحداً حتى إذا سئلت عن أصلها وعن أصل الفتاة التي معها كانت تضحك . . وكانت لا تقصر عن دفع أجرة الغرفة التي تقطن فيها حتى أصبحت موضوع حديث أهل القرى من حيث الامانة والوداعة . وكان رسمها الحقيقي يوافق وصفها في مذكرات الطبيب ربول التي أرسلها

إلى صديقه جون ردون . أما الفتاة فكانت كما قال عنها مشاهدوها : جميلة حتى انها تفتن الشاب والشيخ معاً . وكانت شقراء اللون وشعرها ذهبي نادر المثال أما عيناها فزرقاوان

«إذا قارنا الفتاة بعربيتها التي نعتقدها والدتها ألفينا بوناً شاسعاً بينهما من حيث المشابهة

«بعد شهرين من إقامة الأرملة مع سوزان في قرية لندفن لم يسمع عنهما مايثبت وجودهما . بالرغم من أن ادارة الامن أقلت اهتمامها قد قدمت التقرير الآتي وهذا خلاصته :

«وجد على شاطيء نهر اللوار وعلى مسافة قصيرة من كوخ شرجي ملابس فتاة . . . وا كتشف صيادو ميناء سانجان لوجران قبعة طائفة على وجه المياه على مسافة ثلاثة فراسخ من اسنيس ويؤكد أهل القرية أن سوزان كانت تلبس هذه القبعة . . .

— والأدلة على ذلك ؟

— أليس ماقلته كافياً ؟ لقد علمت قبل الخوض في ذكر هذه الحادثة المؤلمة إنها ستؤثر عليك وبما أنها خطيرة فآثرت نقلها بالحرف الواحد لئلا تلوميني . . .

ثم أعطاها قطعة من جريدة وقال : خذي . إقرئي الحقيقة . . .

فأخذت تريز الجريدة بيدين مضطربتين وتلت قطعة في الصحيفة الثانية محاطة بدائرة حمراء . ولم تبلغ إلى آخرها حتى ظهر عليها التأثر واليأس فأعادت إليه الجريدة فوضعها هوشار بين الأوراق وقال وهو يبسطها بين يديها : أتفيدك هذه المستندات ؟

— لعلها تفيدك أنت أما أنا فلا أرى فائدة بعد قطع الأمل

— سأحتفظ بها إذ ربما تحتاجين إليها يوماً ما . . .

— هل تعتقد أنها ألقت بنفسها في المياه ؟

— هل من اعتقاد آخر يرجح على هذا الاعتقاد ؟

فنهض هوشار يريد الانصراف فقالت له تريز : أنتظر برهة . . .
ثم أخذت ورقة وكتبت عليها ما نصه :

سيدي الفاضل

لقد وعدت السادة فريمورج وهوشار وشركاءهما رؤساء وكالة البحث والتنقيب الكائنة في شارع بروفنس بمبلغ مائة ألف فرنك إذا أتاني أحدهم بوثائق تؤيد وفاة إبنتي المسكينة ريموند وبما أن حامل هذه الرسالة (المسيو هوشار) قد أيد لي صحة هذا الأمر : أنا الموقعة إسمي أدناه الكونتيس دي بوسي أرجو منك أن تدفع بموجب هـذا المستند لأمرهم مبلغ مائة ألف فرنك من الباقي لي بالحساب ؟

المخلصة

تريز دي بوسي

عنونت تريز الغلاف وأعطته لهوشار قائلة له : ما عليك الا تقديم هـذا الغلاف فتقبض المبلغ

لم هوشار أشياءه ونطق آخر كلمة تعزية تنم عن عواطفه الرقيقة وأنصرف شاكراً

وقفت تريز أمام نافذة غرفتها الخصوصية وسرحت بصرها في حديقة القصر وما يجاورها من المزارع المخضرة والمواشي ترعاها

نظرت إلى كل هذه الأشياء نظرة الحزن والأسى . . .

ماذا تفيد السعادة اذا كان فؤاد المرء مجروحاً ؟

طعن فؤاد الكونتيس طعنة بسيطة في بادىء الأمر ثم التأم الجرح على كر الأعوام وتهيجت الأعصاب حوله وكأن الطعنة قد أصبحت نجلاء بعد الحادثة التي مر ذكرها على القارىء

مضت ساعة من الزمان والكونتيس يخيل لها أنها واقفة على صخور لندفن تشرف على البحر وترى ريموند تتخبط في المياه ثم تهوى إلى الأعماق . . .

يالتعس المرأة التي تعاكسها الأقدار عند ابتغائها أصعب الصعوبات فلا تنلها . . .

جلست أمام مكتبها وأخذت ورقة وقلماً وكتبت الرسالة التالية :

سيدي

لقد أذنبت لديك كثيراً وارتكبت هفوة كانت سبباً لشقائك فأطلب الصفح . . . تأكد أنه في الخطوة الأخيرة نحو العالم الآخر تتحطم كبريائي أمضي عندئذ وراء الراحة والسكينة التي لم أجدها في هذا العالم

لقد ثأرت لنفسك وكان انتقامك رهيباً . . . انتقمت من المرأة التي أثارت هداك . إنتقمت من المرأة التي لم تزل إلا لراحتك

هوت فهوت . تضرعت فأبيت . أصررت فتركتها كالطير المقصوص الجناح لاتجد من يصاحبها في اختراق مفاوز هذه الحياة . . .

أبكي بكاء الثاكلة . . . أبكي بكاء مراً . . .

جفت مقلتاي من كثرة البكاء ولم يبق الآن إلا ذرف الدموع الطاهرة

أرجو من الله أن يعفو عنك لما سببته لي من الشقاء وأن يلطف حرارة النيران المتأججة في فؤادك

الوداع

تريز

أطبقت تريز الرسالة وعنونت الغلاف باسم جون ردون في مزرعة سوفاجير وأخذت ورقة أخرى وكتبت الرسالة التالية :

والدي العزيز

هذه رسالتي الأخيرة التي تصل اليك فهي رسالة الوداع

لن تراني بعد اليوم

إن طريق الحياة مسالك وعرة لاطاقة لي على احتيازها

لاراحة لي في هذا العالم بعد فقدها (تعني إبنتيها)

الراحة الأبدية هي التي ينشدها المعذبون المضطهدون في هذه الحياة

الوداع . الوداع ...

إبنتك الشقية

« تريز »

ثم أخذت ورقة أخرى وكتبت الرسالة التالية :

عزيزتي جان

لقد فصلنا إلى الأبد

سببت لي سعادة في طفوليتك بوجودك بقربي أضمك بذراعي عطفاً ...

هل تذكرين الليالي التي قضيتها ساهرة حول فراشك الصغير أبكي وأشفعك بنظراتي الوالدية التي تنعشك وتخفف من آلام سقمك

إن عطف والدة لهو أشد تأثيراً في نفس الأبنة من أي حب آخر . فهو يخلد في فؤادها ولا تنساه حتى بعد مضي الأجيال المقبلة . . .

مسكينة أنت ياجان . . .

سوف تعلمين كم تشقى الوالدة حينما تفقد أحد أولادها فترثين إذ ذاك لحالي وتندبين حظي . . .

لقد خدعت والدك ولعبت دوراً مؤثراً في تاريخ حياتي فكان انتقامه وحشياً ! ! !

يجب أن تعلمي أني جاهدت وتألمت كثيراً لأني كنت أعبدكما ورغبت لو أفقد ثروتي كلها لايجادكما ولو بعيدتين عني ومتمتعين بتمام الصحة . . . وتفكران بي ولو بعض أويقات الفراغ . . .

خاب أملي لدي عودتكما الأولى إلى فرنسا . . . إحدى إبنتي مفقودة والأخرى تخالني مائتة . . .فبحثت عن ريموند . . .

اعتقدت أنه سيخفي عنك أثر الماضي المؤلم . . . فأتمكن بذلك من مواعدتك سراً وأحظى برؤيتك فتعود إلى الروح الخالدة الهادئة التي أبحث عنها فلا أجدها . . .

أصر وأراد فأنتقم ووضع حائلا بيني وبينك وهو الاحتقار . . . هذه هي إرادة الرجل . . .

جاءني أحد المكلفين بالتفتيش عن سوزان وأعرب لي عن الحقيقة وهي أن الفتاة قد أغرقت نفسها في الماء تخلصاً من متاعب الحياة المملوءة بالتعاسة وقد وجدت ملابسها على شاطىء البحر وقبعتها طائفة على وجه الماء

لقد قضي الأمر . لم يبق لي أحد . . .

لا أطيق الحياة لأني ضعيفة ولا أقوى على أحكامها القاسية . . .

بكيت ولا أزال أبكي حتى تجف دموعي وتتحول إلى دماء . . .

حاولت إلى وراء الراحة فلم أعكن . . . هل يا ترى أجدها في العالم الآخر ؟ . . .

ويلاه بمن أستعين في تعزيتي ؟ أبوالدي ؟ مسكين ! لقد نحل جسمه لمظم مصائبه وقد تدانى إلى اللحد . . .

أبي لم يعد يعرفني لأن الضعف الشديد أثر على عواطفه وعقله . . .

عطفاً بي يا إلهي! لم يعد لي مطمع في هذه الحياة سوى رحمتك . . .

إلهي ! لماذا تعاكسني الأقدار ؟

سأموت يابنتي بملء ارادتي وفي ربيع حياتي فائقة الغنى يحبني جميع الفقراء الذين سيذرفون الدموع الحارة على قبري أسفاً وتحسراً

إني ذاهبة أبحث عن الراحة الحقيقية التي لا يكدر صفاءها مخلوق . . .

إلى اللحد . . . بين جميع من استراح فيه قبلي . . .

اذا زرت المقابر يوماً فألقي بصرك على هامات بنيانها تجدي رسوماً . . .

كم من شابة قصفت يد المنون غصن شبابها وهذا من غدر الزمان الخؤون . . .

تعتبروني ضحية من الضحايا لكنكم في ضلال . . .

الآن خذي مني نصيحة : اذا طلبت للزواج ففكري طويلا قبل القبول وإذا تزوجت يوماً فليكن وعدك صادقاً ولا تخضي للتجربة

فكري في والدتك الشقية . . .

فكري أيضاً في شقيقتك ريموند التي قضت على حياتها . . . شقيقتك التي كانت تحبك وتلعب معك في حدائق التويلري وكان افتراقكما بدئاً لتعاستها . . .

الوداع ياعزيزتي

حينما تصلك رسالتي أقصدي الصخرة الدامية التي استحقت هذا الاسم

الرهيب هذه المرة . . هناك على قمتها تضعين قبلتك على جبيني البارد . . .
عندئذ تدركين ماهية التضحية التي بذلتها

الوداع
والدتك
تريز

أطبقت تريز الرسالة وعنونت الغلاف باسم جان في مزرعة سوفاجير

في الثالثة ابتدأت جيوش النهار تضمحل والتحفت السماء بالغيوم الكثيفة والضباب

لمحت تريز ببصرها قمة الصخرة المشهورة . . .

هناك على قمة جبل الجلجثة . . تقضي على نفسها . . .

هناك ابتـدأ دور تمثيل الرواية على مرسح الحياة . . . وهناك ينسدل الستار عن إنتهائه . هناك عاهدت جون على الحب الخالص . . .

وهناك أقر بكل شيء . . . فالفضيحة والعار...

***

حان الوقت . فارتدت "ريز ملابسها وتزينت للموت جميلة

دخلت إلى غرفة زوجها وجثت بقرب فراشه وشرعت تبكي بكاء مراً...

أخذت المسدسين اللذين كان يحتفظ بهما الكونت جيداً لكونهما أثرين نفيسين

كان السائس في انتظارها وأمتطت الكونتيس الجواد فقال : هل ترغب سيدتي رفيقاً للطريق ؟

— كلا . فاني ذاهبة لمقابلة إحدى صديقاتي

سارت الكونتيس بالجواد إلى سفح الصخرة وأجالت بصرها في ماحولها فأبصرت على مسافة منها الأب انطوان وهو حطاب القرية فاقتربت منه وقالت : أنت هنا يا انطوان ؟

— نعم يا سيدتي الكونتيس

— إلى أين أنت ذاهب من هذه الجهة ؟

— إلى سوفلي

— كان غرضي الذهاب إليها لكني غيرت عزمي فهل في إمكانك تأدية خدمة ؟

— بكل سرور

— سلم هذه الرسائل لأصحابها

ثم أعطته الرسائل ولو يسين فقال : هذا شيء كثير . . .

— لا بأس فان عمل الخير يسرني

— قبل عشر دقائق أكون في سوفاجير . . .

سارت تريز بالجواد حتى قمة الصخرة وهي تبتغي ألا يفاجئها أحد عند مباشرة عملها . . .

عندئذ ربطت جوادها بشجرة قريبة . . .

الفصل الثالث عشر

وقوع الصاعقة

ركب البارون بانيل قاصداً سوفاجير ليشاهد جان ونفسه تحدثه بوقوع خطب جلل لما يعلمه عن صديقه من غريب أطواره

وصل إلى المزرعة فاستقبله جون بكل ترحاب . أما جان فانها بعد أن لزمت فراشها مدة بسبب تأثير المفاجأة في الصخرة تمكنت من الخروج من غرفتها لأول مرة باذن الطبيب ربول

خطر لجان لأول وهلة أن تستشير من هو أسد منها رأياً ومن تثق به

وكانت تنتظره بفارغ الصبر لأنها أدركت أن والدتها تألمت كثيراً من فظاظة والدها وكان لهذه المفاجأة أشد تأثير في نفسها

بعد ساعة من الزمان أخذت جان البارون وسارت معه إلى إحدى جوانب المدينة وإذ ذاك أجهشت بالبكاء وقالت وهي تتألم : أواه ياصديقي

— ماذا حدث ؟

— أموراً هائلة

تمكن البارون بعد الجهد من تسكين روعها فقصت عليه ماحدث منذ قدومها إلى سوفاجير

كان البارون يصغي ونفسه تحدثه بأمر سينتج من وراء الفضيحة انتقام صديقه الرهيب

ماذا يحكم ولمن ينصف ؟

بين والد غضبان حاقد . ووالدة منبوذة يائسة ..

إذا كان لجون حقوق الوالدية فحقوق الوالدة أعظم وأقدس

فقال البارون : سأراه . سأحدثه . ولعل ...

فتعلقت جان بذراعه وقالت : قد تعتقد (تعني والدتها) أني أهملتها أو أحتقرتها . . .

— اكتبي لها رسالة

— سأفعل

— بضعة أسطر تفيد بأنك إبنتها ولا تزالين تحبينها . . .

— هل أبصرتها ؟

فأخبرها كيف إنه أبصرها من نافذة عرفتها وقال أخيراً : إنها تمثالك المتجسم يا عزيزتي

— من يأخذ الرسالة ؟

— أنا آخذها بنفسي إذا شئت

— سأعطيك جوادي « جم » فهو يسير بك إلى قصر والدتي كلمح البصر

— حسناً

— فتقول لها حينئذ : هي لا تتجاسر على المجيء إنما تمدك بذلك بعد أن تهدأ العاصفة

كانت جان بعد استشارة البارون مسرورة بأنها ستحيي آمالا طالما أشتهتها والدتها . . .

لم يكد البارون يعدو بالجواد حتى كان الأب انطوان قد وصل وأعطى

جان الرسالة فأخذتها منه بلهفة ولم تكد تأت على بعض الأسطر الأولى حتى صرخت صرخة دوت لها سوفاجير بأ كملها وكان البارون قد توارى فلحقت به عند سفح الصخرة

عندئذ سمع صوت طلق ناري وعقبه طلق آخر . . .

فتمتم البارون بحزن : لقد قضي الأمر . . .

فشحب لون الفتاة وصعدت إلى أعلى الصخرة حيث شاهدت منظراً مؤثراً

شاهدت الكونتيس دي بوسي مستلقية وقد اصفر لونها وذبلت نضارتها وكانت لاتزال قابضة على المسدس . . . فجثت جان على ركبتيها وأجهشت بالبكاء وأي بكاء بفقد والدة تميسة

اقترب البارون من جثمان الكونتيس ووضع أذنه على صدرها فسمع نبضاً ببطيء وكان الدم يتدفق بغزارة من جانبها الأيسر ويروي الحشائش النابتة على قمة الصخرة المشهورة

كانت جان تفرك يدي والدتها الباردة لتولد بعض الحرارة وهي تناديها بأعذب الألفاظ

تأثر البارون وكان التأثير ظاهراً على محياه

أهكذا تنتهي حياة والدة تميسة حال بينها وبين بنتها رجل لايحق أن يدعى رجل لأنه خليق أن يعيش بين الصواري . . .

هذه هي الارادة الفولاذية التي تقاوم أحكام الهيئة الاجتماعية

أبصر البارون المائتة يعود اليها رمق من الحياة فتفتح عينيها الغائرتين لتشاهد إبنتها التي أحبتها حباً يعجز عن وصفه اليراع . . . تفتح عينيها لتسعد وأي سعادة في دقائق حياتها المعدودة

سمع البارون أيضاً تمتمة جان في أذنيها : أنا بقربك ياحبيبتي . . . لا أزال أحبك . . . كيف تموتين وأنا لازلت محافظة على العهود البنوية ؟

في هذه الآونة سمع وقع عجلات عربة وحوذيها يحث جواديه على الجري وصوت إمرأة تصرخ مرتعبة

هي ليوني خادمة الكونتيس ذلك لأن سكوت تريز أدهشها فهرعت إلى

غرفتها ووجدت الخزانة مفتوحة والأثواب ملقاة بغير انتظام بعضها على فراشها والبعض الآخر على أرض الغرفة وأوراقاً منتثرة في فضاء الغرفة وغلافاً على المكتب ممنوناً باسم الكاتب بوشين واشتمت رائحة الشمع الأحمر المحروق فأدركت أن سيدتها كتبت وصيتها

لقد أوصتها بأن تلحق بها إلى سوفلي لأنها ستعود مع والدها

فزاد انشغال بالها وأخذت معها بعض خدمة القصر وركبوا عربة

وقفت العربة عند سفح الصخرة فسمع نداء استغاثة وطلب مساعدة فقفزت ليوني من العربة وصعدت بسرعة إلى حيث كانت الكونتيس تئن على الأرض وكان رجل قد أتى قبلها يتبعها ورجلاه تصطكان وشعر رأسه منفوش والعرق البارد يتصبب على جبين ناصع وعيناه تقدحان شرراً

هو جون ردون الرجل الرهيب

وصلت اليه الرسالة حيث أقرت له بعزمها الأخير فهرول كالسكير الذي صحا من نشوة غفلته

هرول كالقاتل الذي تخدر عصبه من شدة تبكيت ضميره

أسند جون ذراعه بشجرة قريبة متمثلا أمام شبح المائتة . أما ليوني فانها جثت على ركبتيها وقالت مستعطفة :سيدتي . لقد أتيت . . .

وكأن رمق حياة على أبواب الأبدية أشبه بالطيف الضئيل عاد إلى الكونتيس ففتحت عينيها وابتسمت ثم تنفست فكان تنفسها زفيراً متقطعاً

هل لمحت ببصرها الخامد ذلك الشقي المسند ذراعه إلى الشجرة ؟

أجل... فرفعت رأسها وأشارت لجون أن يقترب

فاقترب وهو يرتعد كالقصبة ثم جثا على ركبتيه وتناول يدها الباردة وأقربها من شفتيه وألقي عليها قبلة حارة ويالها من قبلة . .

هذه هي قبلة يهوذا حينما خان السيد المسيح . . . هذه هي قبلة من سمى ا٠٠١ زوجته بيده

ئ وقفت الكونتيس في ثبات قربها إلى النزع

رون بملء فيه : ليذهب من يأتينا بالطبيب

لحل جون ردون جواده واعتــلا صهوته فسار به يطوي الارض طياً وتمكن البارون بمساعدة بعض خدمة الكونتيس من نقلها ولما اقتربوا من جهة القصر قالت وهي تجاهد نفسها : ليس هنا . . . إلى منزل والدي

عند الخامسة كانت تريز نائمة على فراشها الذي كانت تنام فيه وهي عذراء أما جان فانها كانت جاثية تبكي والبارون واقف بقرب الفراش يتمتم هــذه الكلمة : تشجعي

كان القبطان تونيلييه جالساً في إحــدى زوايا الغرفة يفتل شاربيه ويهز رأسه تحسراً

أما المائتة فكانت تفتح عينيها من آن الى آخر لتشاهد إبنتها الجاثية ولسان حالها يقول : إني سعيدة بوجودك بقربي

وكانت ليونى واقفة خارجاً تنتظر قدوم الطبيب بفارغ الصبر وهي تقول: هل يأتي ؟

الفصل الرابع عشر

مخدر الغرام

أتى الطبيب ربول ولما امتحن الجرح المصاب قال بعزم : قد تسلم الروح الآن أو بعد حين

الطبيب ربول ماهر في حرفته وأمثاله نادرون في هــذه البلاد . فاختلا بالقبطان والبارون وقال لهما : ليس عليّ الآن سوى تلطيف آلامها المعدودة المدى

تمكن الطبيب بعد الجهد من ازالة بعض الخطر فأخــذت الجريحة تتنفس بارتياح وعادت إليها بعض الذاكرة وأخذ الألم يخف تدريجياً

كان دون ردون متكئاً على جدار زاوية الغرفة لا يتجاسر على مشاهدة فريسته . . .

لم تبد بشائر الفجر حتى كانت تريز تتبين خيال الرجل الذي أذاقها من العذاب فهمت في اذن جان هذه الكلمات : دعيه يأبي فاني أرغب في محادثته

فسمع جون هذا الكلام الخافت وهرول وهو يرتجف فرفعت تريز بصرها وقالت وهي تتنهد : اتركونا وحدنا

وقع بصر الزوجين على بعضهما فجمد الدم في عروق جون فأمتثل خاضعا لذلك التمثال الجميل المنحوت بأيدي الطبيعة الجائرة . تريز التي طالما اشتهاها في غربته وأرادها لولا أرادته التي أماتت عواطفه . . .

جثا جون على ركبتيه وتناول يدها وأوسعها القبلات الحارة وقال وهو يصعد الزفرات : أطلب عفوك يا حبيبتي

— لقد عفوت عنك . . . ألم يصدق ظني بأنك لاتزال تهواني ؟

— أجل . إني أهواك بكل جوارحي . لم تكن حياتي إلا أمدات عذاب مستمر وعراك بين عواطفي وإرادتي . . .

«كفي دليلا على مبلغ حبي لك أنه لم يسغ لي شراب ولا لذ لي طعام في بلاد غربتي . . . . وأنا أفكر بك وأتحسر على فراقك وأتمناك في يقظتي وأحلم بك في نومي . . .

«أجل أهواك ولا يمكنني أن أعيش بدونك . فاذا خطفتك يد المنية فلا يبقى لي غير التكفير عن قساوتي البربرية بعقاب أقرب إلى العذاب الذى ذقته خلال السنين الطوال. . .

« باريس أذاقتك من تفاحة حواء

«باريس مدينة العبودية والاسترقاق

« باريس مدينة الخلاعة والفساد

«يالتعاسة حظي. . . لقد عذبت من كنت أعبدها وسيكون عذابي أمر بفقدها ...»

فشعر جون عندئذ بضغط ضعيف على يده وسمع صوت تريز الخافت يقول : لقد فقدت سعادتنا بسبب هفوتي . . . إن خطأي لاينسى ولا يتسى

لأحد إصلاحه ولا يمحوه غير الموت . . . وأطبقت تريز جفونها فصاح عندئذ جون بالطبيب قائلا : لقد فارقت الحياة . . .

فأجابه بهدوء : لم تزل في قيدها . . . نامت لتستريح . . .

والحقيقة أن النوم قريب الراحة والراحــة قريبة النزاع والنزاع الضئيل يؤدي إلى الموت بدون ألم

مرت الساعات كالخيال . . .

عنــد الظهر وقفت عربة أمام المنزل وترجــل منها خمسة أشخاص أدرك جون أحدهم وهو ابن عمه روبول

من هو ذلك الكهل الذي معه ؟ ومن تلك الشابة الشقراء الجميلة ؟ ومن هو ذلك الشاب بلباسه العسكري ؟

عند دخولهم إلى قاعة الاستقبال قدّم المركيز الطبيب ربول إلى الجراح الشهير ريشارد الذي قال : ماذا يتراءى لك أيها الوصيف ؟

—أخشى أن تكون الطلقة صائبة والقضاء هو الأخير . لكني سعيد بقدومك ...

دخل المركيز وسوزان إلى غرفة الكونتيس ففتحت هذه عينيها وأجالت ببصرها في ماحولها فأبصرت المركيز واقفاً لا يحرك ساكناً فقالت بصوت خافت: ماوراءك ياعزيزي؟

— وردتني رسالة برقية . . . أسرعت لأرى ماذا فعلت . . .

— لقد يئست فانتحرت . . .

— لأنك أعتقدت بوفاة ريموند . أليس كذلك ؟

— وواحسرتاه !

— لقد خدعوك

— هل لاتزال على قيد الحياة ؟

— نعم

— هل وجدتها ؟

— مساء أمس

— أين كانت ؟
— في باريس
— والآن ؟
— هي بقربك
— ريموند فلذة . . . .
— والدتي . . .
فاقتربت ريموند من والدتها فطوقتها بذراعيها وكانت جان بقربها فقالت لهما : أحبا بعضكما كما أحببتكما أنا . . . .
عند هذه الكلمة أسلمت الكونتيس الروح دون أن تتألم
كان الجميع حولها إلا جون فانه كان حائماً حول المنزل وهو في حالة يرثى لها من الاضطراب
أدرك جون وفاة تريز عند ماسمع شهيق الشابتين وكان مسنداً أحد ذراعيه إلى عمود فسحة المنزل فأتاه الدكتور ربول فبادره بالسؤال : لقد انتهى الأمر أليس كذلك ؟
— نعم . لكنها أسلمت الروح بدون تألم . . . تعالى معي
— لا أريد
في هذه اللحظة خرج المركيز ورفقته البارون والملازم بيير فاعترضه جون قائلا : الحمد لله الذي متعني بعقابلتك لقد كنت أبحث عنك من زمان
— لم أختبيء عن أعين الناس قط
— إن بيني وبينك حساب لأناقشك به
— إني رهين إشارتك
— إني حاقد عليك . . . لقد كنت سبباً في عذابها (يعني زوجته)
— وما تفيدني كل هذه المعلومات . . . ألم أقل لك . . . . ؟
فقاطعه جون قائلا : متى ؟
— في الزمن الذي يحلو لك
— والأسلحة ؟

— ما تختاره
— والمكان ؟
— ماتراه موافقاً
— في المكان الذي انتحرت فيه خليلتك . . .
— فليكن
— وشهودك ؟
— هذان الرجلان
— حسناً جداً
— بعد ساعة أكون هناك

عند عتبة المنزل أشار جون إلى الصخرة وكان القبطان قد خرج ليرى ما كان من أمر هذه المناقشة فأمره بالسكوت فابتعد دون أن ينبس ببنت شفة

حدثت الدعوة إلى المبارزة في أقل من بضع ثوان . . .

وكانت جان وريمون تسهران على جثة والدتهما

بعد بضع دقائق دخل جون إلى الغرفة موقف أمام تمثال المائتة وزفر زفرة كادت تخرج روحه . فتناول يدها وقبلها بحرارة ثم أخذ الابنتين بين ذراعيه وقال لهما : أحبا بعضكما . . .

أنصرف وهو كالضائع لايدري كيف يسير وكيف يكون اتجاهه

الفصل الخامس عشر

البقعة الحمراء

كانت الثانية بعد الظهر وقد أعد الشهود المعدات للمبارزة من غير أن يفكروا في مصالحة الفريقين ؟

سار المركيز متجها نحو الصخرة التي لايعرفها ولا يريد أن يعرفها لهول اسمها وفي الطريق قابل الملازم بيير فسأله بقوله : ماذا تم ؟

— لقد اتفقنا . طلقين على بعد عشرين خطوة . . . بعد نصف ساعة على الاكثر

— أين خادمك ؟

— لقد فارقنا منذ برهة وسيلاقينا عند الصخرة بعد بضع دقائق . . .

سارا والمركيز مشتت البال فقال : إن إنذهالي أشد وأعظم من تأثيري أيها الصديق من حقد يدوم عشرين عاماً في نفس رجل فلاح مثل هذا . . .

بعد بضع دقائق كان الفريقان عند رأس الصخرة وكل يستعد للمبارزة الهائلة . . .

كان البارون يقيس المسافة التي يجب أن تكون بين المبارزين وبالاتفاق كان نصيب جون الجهة التي سقطت فيها الكونتيس مضرجة بدمائها

ألقى جون بصره على مزرعة سوفاجير بصره الظافر لأنه عاد فامتلكها بعد سنين طوال قضاها بالمثابرة والاجتهاد في بلاد الغربة . . .

لقد حانت الساعة . . . ساعة الانتقام . . . ساعة الاقتحام . . .

فأخذ جون المسدس وفحصه جيداً ثم رفع بصره إلى غريمه ورمقه بنظرة منكرة خفق لها فؤاد البارون . . . لأنه تذكر يوم أطلق مسدسه على أفعى على بعد عشرين خطوة فقتلها للحال . . .

سدد جون مسدسه دون أن يطلقه . . .

في هذه اللحظة أنحنى وكأن أمراً غريباً جفله فجعله يرتعد من رأسه إلى أخمص قدميه ذلك لأنه أبصر على العشب الأخضر بقعة من الدم لم تجف بعد

هذا دم الكونتيس . . .

هذا دم تريز الفتانة . . .

طال إنحناء جون وهو يتأمل الدم . . .

رفع بصره وقد أظلمت الدنيا في عينيه فسرد مسدسه وقال منتهراً : لم لا تطلق ؟

ولما لم يجب المركيز سدد جون مسدسه إلى رأسه وأطلقه وللحال وقع على الارض يتخبط بدمائه . . .

فامتزجت دماء الزوجين وتسربت إلى الأشجار القريبة لترويها . . .

كان ذهول الشهود أمام هـذه الحادثة الجديدة يفوق حد التصور . . .

***

عند الصباح دقت أجراس كنيسة سوفلي دقات الحزن. كما دقت منذ نيف وعشرين عاماً دقات الفرح احتفالا باقترانهما . . .

هرع سكان سوفلي إلى الكنيسة ذات المشاعل الموشحة بالسواد

الكنيسة لا تقبل أجسام المنتحرين غير أن كاهن القرية أظهر عطفاً وصلى على روحهما وفعل ماتقتضيه السنة الكنسية وطلب من جمهور الحاضرين أن يصلوا ويتضرعوا من أجلهما ففعلوا

شيعت الجنتان حتى سفح الصخرة . عندئذ احتمل ثمانيه من القرويين الاشداء التابوتين وصعدوا بهما حتى قمتها حيث أودعاهما على الارض

على قمة تلك الصخرة تعاهدا على الحب الخالص ونقشا اسميهما على أشجارها القريبة تذكاراً لعهد وثيق . . .

فرقت التجربات العالمية بينهما فاتحدا على الموت على قمة هذه الصخرة عينها وجرت دماؤهما في الأرض تلمن باريس الجائرة التى دست سمومها في شرايينهما . .

مايفرق في الحياة يلأم في الموت . . .

بعد أن ووريا التراب وقطنا لحديهما وحلقت روحاهما في الفضاء السماوي الواسع عادت الشابتان وهما يرددان هذه العبارة اللذيذة : أحبا بعضكما بعضاً

كان المسيو بوشين في انتظارهما يصحب البارون والملازم بيير . . .

ولما استوى المقام بدأ الكاتب الحديث فقال مخاطباً الوارثتين : يجب أن أطلعكما على وصية الكونتيس دى بوسي وهذه الوصية قد أودعت عندي في نفس اليوم الذي انتحرت فيه والدتكما . . .

«قد قسمت ثروتي وأملاكي التى ورثتها عن زوجي الراحل إلى شطرين : أحدهما يعود إلى الفقراء المقيمين في باريس والضواحي المجاورة لبوسي . هذا الشطر يربو على العشرة ملايين

«والشطر الآخر وهو يربو على الاثني عشر مليوناً يقسم بين إبنتي جان وريموند . فالقصر وأراضي بوسي وفندق باريس ومحتوياتهم وأربعة منازل في ضاحية سان أونوري ومبلغ مليونين ونصف مليون كل هذا يختص بحقوق الوراثة وغيرها لريموند . وإذا مضى عشرة أعوام دون أن يظهر أثر لريموند تعود تلك الممتلكات وغيرها لجان أما باقي الشطر من أموال ونفائس وحلى وغيرها فتختص بجان

ختم الكاتب حديثه قائلا : وسيكون المركيز دي بورد منفذاً شرعياً للوصية

أبصرت جان البارون واقفاً إزاء شجرة فلحقت به وسألته قائلة : مابالك واقفاً؟

— إني بانتظارك

— آه لو تعلم ياعزيزي كم إني تعسة

فسارا سوية يتجاذبان أطراف الأحاديث فقال البارون : هل تنبأت عن حدوث هذا الخطب قبل وقوعه

- كلا . والآن لقد أصبحت وحيدة في هذا العالم . . . .

- كلا فاني لاأزال بجوارك أرعاك بنظراتي الأبوية

وهل تعتقد إني أعيش بغير صديق لي مثلك ؟ ... إن الموت أفضل...

فأخذ البارون يهدىء روعها فقال : إن كلامك هذا يؤلمني ! . . كيف تموتين وأنت حديثة السن ؟ . . من يحوز صحة وجمالا وغنى مثلك ويفارق هذه الحياة عن طيبة خاطر؟ . . .أعلمي أيضاً أني لن أدوم لك الحارس الأمين فيجب والحالة هذه أن تتشجعي لأن لك شقيقة أحدث منك فترشدينها وتساعدينها لخوض هذا المجتمع الحيوي . . .

— سيأتي يوم تغادر شقيقتي منزلنا ولست بتابعة لها أينما ذهبت . . .

— إذا رغبت أخذناك معنا إلى نورمانديا حيث تمتني بك مدام بريفيل وتكون لك كأم ثانية

— وحدى أتتركه ؟

فلم يجب البارون . فقالت جان : لماذا أراك مضطرباً هكذا . . .أليس لأنه تعز عليك مفارقة صديقتك جان ؟

« أليس لأنك غير متزوج وستعود إلى بلادك منفرداً ؟

« أطلعني على الحقيقة . فقد عشنا معاً مدة طويلة وأنت تكتم حبك لي فهل هذا يعد أنفة منك أم كبرياء ؟ »

— لا هذا ولا ذاك

— إذا سأجد دواء يحول دون افتراق أحدنا الآخر

— وما هو ؟

— أن تقترن بي

— دعي عنك المزاح . . .

— أنا أجد في كلامي . . . العادة أن يفاتح الرجل المرأة ولكني انتظرت طويلا دون أن أرى منك اهتماماً نحوي . فهل ترغب من جان إمرأة مطيعة تشاطرك حياتك ؟ أنا لا أتركك مطلقا . فاذا رفضت امتنعت أنا عن الزواج بتاتا . . .

— أجل إني أهواك ياعزيزتي ولكن هل كنت تجيبين اقتراحي لو كنت اقترحته ؟

— بدون شك لم لم تبح لي به من قبل ؟

— خشيت أن ترديني خائباً . . .

***

على بعض خطوات قريبة منهما كانت ريموند والملازم بيير يتحدثان فقالت ريموند : على ماذا صممت ياعزيزي ؟

— الحقيقة أنى لاأعلم

— هل تعود الى باريس ؟

— بدون شك

— إني تعسة . . . عاذا تفكر ياعزيزي ؟

— بوجوب مفارقتك بأقرب وقت

— لماذا ؟

— لانك غنية وأنا فقير معدم

— أنت تؤلمني بهذا الكلام وتزيدني حزناً على حزني

عندئذ أخرج الملازم رسالة ريموند وقال : أنت طليقة من هذا الوعد

فأجهشت ريموند في البكاء وقالت : لقد نشأ الحب بيننا وأنا فقيرة فهل فصل الثراء بيننا ؟ اذا كنت حقيقة لاتهواني فرد لي رسالتي وإلا فضع يدك في يدي لنتماهد على الحب الخالص . . . أما اذا رفضت فقد أضفت مصابا آخر الى مصابي

فجثا الملازم على ركبتيه وأخذ يديها وأدناها من شفتيه وقال : حقيقة أني أهواك ياحبيبتي لكني كتمت عنك شغفي بك لارى هل أخمدت هذه الملايين نيران حبك لي . . .

الفصل السادس عشر

بعد الخاتمة

دنت الساعة الحادية عشر في الصباح وقد خرج هوشار بعربته قاصداً مكتب بوشين وهو يؤمل أن يقبض المائة ألف فرنك التي منحته اياها الكونتيس في ذلك اليوم المشؤوم

قرع باب البناية وكان فريبورج يصفق طرباً لاعتقاده بأن هوشار قد أتى بالغنيمة فقال : أدخل ياهوشار الحبيب

وكان الطارق بوسكاري فنظر فريبورج اليه شذراً وقال : من دعاك إلى هنا ؟

— لا أحد وانما أريد أن أطلعك على شيء

— سار

— قد يكون ساراً

كان بوسكاري قد قبض الالاف فرنك التي وعده بها الدوك دي بوسي

فتزيا بما يليق بمقامه. فقال فريبورج وهو يمعن النظر فيه : يلوح لي ياشقي أنك أثريت ؟ . . .

— قليلاً

— على ماذا عزمت ؟

— على ترك وكالتكم الغراء

— بعد أن اغتنمت ثروة من ورائها ؟

— نعم

— أطلعني عما تخفيه في بواطنك

— اعلم أني اكتسبت بحمد الله ندرة من المال سأعيش من ايرادها

— متى جاءتك هذه الغنيمة ؟

— يوم الاحد الاخير

— عن أي مهمة ؟

— عن مهمة سوزان

— هل وجدتها ؟

— نعم

— كيف وجدتها ؟

— كانت في بريطانيا أولا ثم قدمت الى باريس منذ بضعة أشهر . . .

— هل تعرف أهلها ؟

— أجل وهم : الدوك دي لوسي والمركيز دي بورد والكونتيس دي بوسي

— ألا تعلم ياشقي أن مافعلته يعد خيانة ؟ . . . ان ماربحته هو من ايراد الوكالة فكيف تتعدى على حقوقها وأنك عامل عندنا . . .

— أعلم والله أعلم أنك سعيت لمعرفة مكان الفتاة وطمعت بربح لنفسك دون أن تفكر في الذين بذلوا جهدهم لمنفعتكم . . .

فأراد فريبورج أن يقفز على بوسكاري وقد اشتد به الحنق فأوقفه هذا وقال له : عفوك ياسيدي المحترم أو أحطم رأسك بهذا العصا . . . لقد أتيت

لمصافحتك وإلقاء التحية عليك وليس لتريني هذا الجفاء ؟

فهدأ روع فريبورج وقال : أنا لا أريد منك شيئاً . . . وانما أريد أن أعلم هل قبض المبلغ . . .

— عمن تتكلم ؟

— عن هوشار

— وأي مبلغ تعني ؟

— أجرة النبأ الذي أطلعه على الكونتيس

— وما هو ذلك النبأ ؟

— أن الفتاة ريموند ماتت . . .

— ألا تدرك أن مثل هذا الأمر يعد جريمة ؟

في تلك اللحظة دخل هوشار فانتصب فريبورج واقفاً وقال ووجهه طافح من السرور : خير انشاء الله ؟ ؟ ؟

— لا خير ولا شر فان الكاتب أبى الدفع بحجة أنها دعوى كاذبة . . .

— أتعلم أيها الرفيق من كان سبباً في افول نجمنا ؟ . .

— كلا . . .

— هذا بوسكاري الخائن . . .

وكان بوسكاري يتأهب للانصراف، وهو يقول : كونا أبيض الأيادي نحو مستخدميكما كي ترفرف السعادة عليكما وتنالا ما كنتما تحلمان به...

وبعد ان انصرف بوسكاري قال فريبورج: الحق معه

عندئذ جمع هوشار الأوراق التي تتعلق بهذه المسألة المشؤومة ووضعها في الموقد ثم تنفس الصعداء وقال وهو يحاذر : بشرط ألا تتداخل العدالة بيننا

***

عنــد العاشرة من هذا المساء وقف نفر من الناس حول باب فيلا أنجيين ينظرون إلى رجل ملقى على فراش وهو يئن أنيناً مؤلماً

عند نصف الليل عادت فاني إلى منزلها فوجدت خليلها الأميركي بانتظارها فقال وهو يلازم الهدؤ : عند عودتي أبصرت هذا الرجل في غرفتك فأردت

أن ألقيــه من النافذة فاسترحمني البســتاني وقال لي بأن لاقدرة له على المشي فوضعناه عند عتبة المنزل . فمن هو وما شأنه هنا ؟

فلم تجب بل أخذت فرائصها ترتعد بشدة فظهرت على وجه الامريكي علائم الغضب وقال : لاتعيدي الكرة لأن أمثال هؤلاء الشبان خطرون . . .

فندمت فاني على مصاحبتها مارسيال وحلفت ألا تجتاز عتبــة حانة شارع بروفنس مرة أخرى

أما مارســيال فانه حزن جداً لنكد طالعه وندم لعــدم قبوله نصيحة بوسكاري ولات ساعة مندم

وأضطرت وكالة فريبورج وهوشار أن تنتقل من البناية الشامخة إلى حانوت حقير في الطبقة الأرضية وصارت أشبه بمكتب للاستخدام

وتمكن بوسكاري أن ينتفع بالمبالغ لترقيــة حرفته التي قد تكلل بالنجاح بالاستمرار والمثابرة

أما ربول فبقي في خدمة المركيز وأدخل خادمة الكونتيس في الخدمة بعد أن اقترن بها

هما الآن غنيان ولم يبقيا في خدمة المركيز الا لتعلقهما به

أما كارولين فانها تركت محل الازياء لالكسندرين وأنسحبت إلى منزلها في الخلاء لتمضي بقية أيامها في بحبوحة الرفاهية

وتزوج فريعون بقروية فلاحة رزقت منه طفلا صبوح الوجه

وانخرط جيرك في سلك الجندية ليدافع عن الوطن العزيز

وأنفذ المركيز وصية الكونتيس حسب إرادتها المقدسة

وتزوجت الشقيقتان بعد مرور بضعة أشهر على هذه الحادثة المحزنة وأحتفل بعقد قرانهما في كنيسة سوفلي وكانتا إذ ذاك متشحتان بالسواد

لدي دخول ريعوند إلى الكنيسة سمعت قروية تقول لرفيقتها : من أجل هذه انتحرت الكونتيس . .

فلم تتمالك ريموند عندئذ عن إخفاء عواطفها وأذرفت الدموع الحارة

وسمع البارون قروية تشير إلى ريموند وهي تتعجب وتقول: إنها على شاكلة الكونتيس تماماً

وعلى أثر خروجهما من الكنيسة تعانقتا عناقاً طويلاً

ثم افترقتا وكل منهما تتمنى لشقيقتها الهناء والرفاهية . . .

